

ليلى والمجنون

د. محمد غنيمي هلال

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

ليلى والمجنون



دكتور/ محمد غنيمي هلال

دار نهضة مصر للطبع والنشر

مقدمة

الطبعة الثانية

المعنى الرمزى لجمال ليلى فى الأدب الاسلامى ورمزية الجمال فى الآداب العالمية

موضوع هذه القصة ليلى فى جمالها الصوفى كما أضفى على قيس ، فتوصل بجمالها إلى الله . وقيس بآرائه الفلسفية فى هذه القصة لم تعرفه البيئة العربية ، ولكنه أسطورة خلقها فلاسفة التصوف الإسلامى ، ليتخذوا منه قالباً لآرائهم فى الجمال والحب الإلهيين . وهؤلاء الصوفية يمثلون فى الأدب الإسلامى تياراً فلسفياً عالمياً كان له رواج كبير فى الآداب العالمية منذ أفلاطون ، ثم منذ أفلوطين ، وقد تأثر به فلاسفة المسلمين ، وعبروا عنه فنياً فى أدبهم وأشعارهم وقصصهم(١) وفى هذا التعبير الفنى سموا بفهمهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحس ودواعى المتعة ، ونفذوا إلى أبعد آماد معانيه التجريدية . فالجمال فى الطبيعة والمخلوقات دليل على وهاد إلى جمال الله تعالى الذى يؤكدون جميعاً أنه منزه عن التشبيه والمثال . والجمال لديهم هو وسيلة سمو الروح واهتدائها إلى المعانى الخيرة المطلقة ، والمبادىء

---

(١) قد فصلنا القول فى ذلك فى كتابنا : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية

السامية . وآيات الإبداع فى المخلوقات سبيل النشوة الروحية التى يعرج بها كل امرىء نقى السريرة إلى الله ، وبه « جرى ذكر الله فى كل مكان . وأشرقت لمعة منه على الملك والملائكة فبهر الملائكة ذلك النور ، وخروا مسبحين للسبوح ، ولهجوا مستغرقين بالتسبيح ؛ وانطلقت هذه الصيحة من غواصى بحر الفلك : سبحان ذى الملك ؛ ووقعت على الوردة من تلك اللمعة أضواء ، فسرت من الوردة للبلبل حرقة الروح . واتقدت خدود الشمع بقبس من تلك النار ، فأحرقت فى كل منزل منه مئات الفراش . واحترقت الشمس بحرارة ذلك النور ، وبه أخرج النيلوفر رأسه من الماء . ومنه تحلى بالجمال محيا ليلى ، فصارت كل شعرة من غدائرها مناطاً لقلب المجنون (١)» .

فالجمال الإلهى فى مظاهره فى الطبيعة يتجلى فى الموجودات والكواكب والنجوم كما يتجلى فى الناس . والملائكة فى تسبيحهم بجمال الله كالبلابل والفراش والطيور جميعاً ، تشترك فى عبادة ذى الجمال المطلق المنزه عن الشبيه ، وتهيم بهذا الجمال فى نشوة مقدسة ؛ بل إن الشمس محترقة بذلك النور وجداً : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٢) . وهذا الحب لله يغمر الكون ، وهو سبيل حفظ نظام الكون كله . فما الجاذبية

---

(١) هذه ترجمة بعض أبيات من الشعر الفارسى من قصة : يوسف وزليخا ، لعبد الرحمن الجامى مؤلف قصتنا نقدمها للقراء ، نقلناها من المخطوطة الفارسية للقصة من مكتبة جامعة القاهرة ، الورقة الخامسة .

(٢) سورة الإسراء .

التى يعبر عنها فى قوانين علم الطبيعة إلا مرادف لهذا الحب اللاواعى فى فهم هؤلاء الصوفية . فلولا الحب ما انتظم الكون ؛ ولكن هذا الحب يصبح واعياً فى الإنسان الذى يهتدى إلى الله بآيات إبداعه فى الكون . ممن اهتدوا إلى الله عن هذا الطريق « قيس » ، حين تأمل فى جمالى سالكا تفكير الفيلسوف الصوفى ، فكانت ليلى سبيله إلى هذه الهداية الروحية ، ثم كأنه فى عاقبة الأمر رمزاً للجمال الإلهى ، فحين كان ينطق باسمها — بعد هدايته — كان يقصدالحبيب الأعظم ، فارتقى قيس بالتأمل فى الجمال الجسمانى المحدد إلى الانتشاء بالواردات إلهية لجمال يجل عن الكيف ، كما يقول أحد الصوفية من المسلمين على لسانه :

لا تقل دارها بشرقى نجد ... كل أرض للعامرية دار
ولها منزل على كل ماء ... وعلى كل دمنة آثار

وهذه نظرة شرحناها فى مكان آخر مصدرها من التيارات الفلسفية (١) العالمية التى تأثر بها الرومانتيكيون من الأوروبيين كما تأثر بها صوفية المسلمين . ومن أمثلة ذلك أن « فكتور هوجر » يعبر عن نفس الفكرة التى سبق أن أوردناها وهى أن الحب لله سبب نظام الكون على طريقة أفلاطون وصوفية المسلمين — بهذا التعبير الشعرى : « لو خلا الحب من الكون انطفأت الشمس » .

(١) فى كتابنا السالف الذكر .

وقد اتخذ صوفية العرب طريقاً فريداً فى التعبير عن ذلك بأشعارهم ، إذ يسلكون فيها مسلك الرمزية الصوفية . ومحور هذه الرمزية الصوفية أن جمال الطبيعة له ظاهر وباطن . ويجب أن يصل المفكر إلى باطنه العلوى بالاهتداء به إلى جمال الله وحبه . ومن يقف عند ظاهر الجمال ، ويهتم بمتعته الحسية أو الجسدية ، يكون شبيهاً — فى رأى إخوان الصفاء — بالأطفال الذين يهيمون باللعب والدمى . ولا يليق بالحكماء أن يهيموا بظواهر الأجساد ونقوشها فيكونوا بمثابة أطفال فى الحقيقة ؛ إذ يقفون عند مرحلة تمثل طفولة التفكير ، لأنهم لا يرتقون إلى فهم ما وراء الأشكال ، وهؤلاء يسميهم أفلاطون : « العوام » ، لأنهم يهيمون بالأجساد من أجل التوالد . ويرى أفلوطين أنهم فى نظرهم إلى جمال الطبيعة كمن يحاولون أن يقرأوا كتاباً لا يعرف حروفه الأبجدية ؛ فيستعجم عليهم الفهم لقصورهم ودنو منزلتهم العقلية . وعند أفلوطين أن الطبيعة « لغة عجيبة لمن يقرؤها » . ولكى يستطيع قراءتها يجب أن يبدأ بتطهير نفسه ، حتى يستطيع أن يحب الجمال فى ذاته . وبما أن جمال الطبيعة له ظاهر وباطن — كما قلنا — فيجب أن يهتدى المفكر إلى أسراره الباطنة . ولهذا أراد الصوفية أن تكون أشعارهم كذلك لها ظاهر وباطن ، فظاهرها غزل يمكن أن ينطبق على الغزل الحسى ، ولكن باطنها الهداية إلى أسرار الهيام بالمعارف الإلهية والواردات الباطنة ، والأسرار الجمالية العليا . يقول محيى الدين بن العربى فى مقدمة ديوانه : « ترجمان الأشواق » : « لما نزلت بمكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ،

التقيت جماعة من الفضلاء . . . ولم ار فيهم مع فضلهم مثل . . . أبى شجاع بن رستم ابن أبى الرجاء الأصفهانى . وكان لهذا الشيخ بنت تقيد النظر وتزين المحاضر . علمها عملها . عليها مسحة ملك وهمة ملك . فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد . . فكل اسم أذكره فى هذا الجزء فعنها أكنى . . لا ولم أزل فيما كتبته فى هذا الجزء على الايماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقنا المثلى . . . والله يعصم قارىء هذا الديوان من سبق خاطره إلى مالا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية » .

ومما سبق يتضح الفرق الهائل بين الرمزية الصوفية فى الشعر العربى والرمزية فى معناها المذهبى الحديث . وإنما ننبه إلى ذلك خشية الخلط بينهما .

وعلى نحو ما شرح محيى الدين بن العربى ، يسير « قيس » فى هذه القصة .

وبرغم الأشعار الفارسية الكثيرة التى تنهج منهج الرمزية الصوفية فى الأدب العربى على نحو ما شرحنا ، انفرد صوفية الفرس والآداب الإسلامية الأخرى بتصوير نماذج أدبية فى قصصهم تشرح قضيتهم فى الحب والجمال واتخاذها طريقاً للاهتداء إلى الله . ومن أعمق من سلكوا هذه السبيل مؤلفنا « جامى » فى قصصه الإسلامية ، ومنها القصة التى نقدمها الآن للقراء .

وقد سلك هؤلاء الصوفية في الآداب الإسلامية مسلك الشعراء والكتاب الفلاسفة في الآداب العالمية . وفي صدر هذا التقديم ، أشرنا إلى غناء العاطفة بالتعمق في معاني الحب والجمال وفلسفتهما ، على نحو مافعل الصوفية . وهذا مجال خصب للمقارنات الأدبية . ونكتفي الآن بالإشارة إلى شخصية «هيلين» في الآداب الأوروبية . ومشهور أنها في أساطير اليونان — زوج منلاوس ، وفي الإلياذة أنها هربت مع «باريس» ، أو اغتصبها باريس . وكانت روعة جمالها تفوق الوصف وهي — في الأساطير اليونانية كذلك — بنت الإله زيوس ، وأمها «ليدا» امرأة تندريوس ، من ملوك اسبرطة . وكانت «ليدا» محبوبة للإله زيوس . وكثير من شعراء الإغريق قد برءوا «هيلين» من وصمة الهرب من زوجها . أن باريس هوالذي اغتصبها ،ولكنها هربت منه إلى مصر ، ولم يتبع باريس سوى خيالها الذي انخدع به باريس (١) . ومن أجل عفتها وطهرها ، ولأصلها الإلهي الأسطوري أصبحت معبودة في اسبرطة . ويرى أفلاطون أن الحب إذا كان إلهياً لا يمكن أن يكون سيئاً . كما يرى لذلك وجوب تبرئة هيلين من وصمة الهرب من زوجها (٢) وسرعان ما صارت رمز الجمال المطلق وبخاصة لدى الشعراء الإسكندريين ، ومن أشهرهم تيوكريتوس الإسكندري في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد . ثم أنها سمت بزوجها

(١) أنظر مثلا مسرحية : هيلين ، ليوريبيدس ، أنظر كذلك مقالة للأستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة ، عنوانها : Absolutio Helenae ، ص ٨٨ .

(٢) Platon Phaedrus, 242 d-243 b.

وأخواتها إلى درجة إلهية بما سببته لهم من عذاب (١) ، صهرت به روحهم .

وقد اتخذها جوته «(في مسرحيته : فاوست (الثانية) نموذجاً أدبياً سامياً به اهتدى « فاوست » إلى الله بعد أن ضل الطريق إليه بالعلم ، وبالسحر ، وبالمغامرات الكثيرة التي صورها «جوته» في مسرحيته «فاوست» (الأولى) ، وها هو ذا فاوست بعد أن تعرف هيلين — رمز الجمال المطلق — عرف كيف يهتدي إلى الخير ، ويغني مشاعره الإنسانية ويتعمق فيها بالعاطفة ، وكيف ينفذ إلى أسرار الجمال الحق في مرآة جمال المخلوقات ، وكيف نجح في تحقيق المعاني الخيرة التي لاسبيل إليها سوى العاطفة ، الإنسانية الكبيرة ، وكان طريقه إلى تلك العاطفة هو فهم أسرار الجمال لمعرفة الجمال المطلق ، والسمو إليه بالروح ، فهو نوع من المعراج على أنه رمز السمو بالروح ، وبه تأثر دانته حين عرج إلى الله بحب بياتريتشه . وفي هذا كله تشبه «هيلين» شخصية ليلى في هذه القصة الفارسية ، كما يشبه «فاوست» قيساً ، وفي آخر مسرحية فاوست (الثانية) ، يقول «جوته» على لسان جوقة مسرحية يسمع صوتها ولا ترى :

« كل ما هو هالك
ليس سوى رمز
والمتعالي على الإدراك (٢)

(١) انظر كذلك : Isocrate: Eloge d'Héléne, 61-64: وكذا Herodote VI, 61 والمرجع السابق للدكتور محمد صقر خفاجة ص ٩٠ .

(١) يقصد به الله .

يصبح ها هنا مشاهداً :

وما لا يوصف

يصبح ها هنا محققاً

والأنوثة الأبدية

تجتذبنا نحو الأعلى » (١) .

ولا يخفى تلاقى هذه المعانى مع المعانى الصوفية التى يسوقها مؤلفنا فى خاتمة هذه القصة (٢) . وليس الشبه بينهما اتفاقاً ، بل مصدره تاريخى ، ذلك أن الفلسفة العاطفية فى أوروبا ، والفلسفة الصوفية العاطفية ، كلتاهما متأثرة بفلسفة أفلاطون وأفلوطين ، كما شرحنا فى كتابنا : « الحياة العاطفية » ، وقد بينا هناك بهذا التأثر سبب أوجه التشابه الكثيرة بين الأدب الصوفى الإسلامى والأدب الرومانتيكى .

وفيما قدمناه فى إيجاز ، يتضح كيف كانت ليلى وقيس فى الأدب الفلسفى نموذجين غنيين بمعانيهما ، وبتمثيلهما لتيار فلسفى عام ، فيه تجلى فضل الصوفية فى خلق نماذج أدبية فلسفية جارينا بها النماذج الأدبية العالمية .

محمد غنيمى هلال

---

(١) يقصد به الله .

(٢) انظر على الأخص فصل ٤٥ — ٤٨ .

المقدمة

عبد الرحمن الجامى

يتفق نقاد الأدب من الفرس على أن المكانة الأولى فى الملحمة للفردوسى ، وفى القصص الشعرى لنظامى الكنجوى ، وفى شعر التصوف لجلال الدين الرومى ، وفى الأدب الخلقى والتعليمى لسعدى الشيرازى ، وفى الغزل لحافظ ؛ ويجمعون كذلك على أن الجامى كانت له الصدارة فى هذه الأجناس الأدبية جميعاً (١) .

ولد نور الدين عبد الرحمن الجامى فى جام ، من أعمال مدينة هراة ، عام ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) . وكانت بلاد فارس تجتاز فى تاريخها فترة عصيبة ، عقب غارات تيمور لتلك البلاد (فى أعوام ١٣٨٠ ، ٨٣٨٤ ، ١٣٩٢) ، تلك الغارات التى وحد فيها إيران بحد السيف ، ولكن ما لبثت أن تمزقت بعد موت ابنه : شاه رخ (١٤٤٦ م) الذى بذل جهد اليائس فى الإبقاء على وحدتها فى حياته . ثم خضعت البلاد لدويلات صغيرة انتشرت فى عهودها الفوضى وكثرت الحروب الأهلية ؛ وظلت على هذه الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين فى بدء القرن السادس عشر الميلادى .

وكان العصر — على ما به من اضطراب غنياً بانتاجه الأدبى ؛

---

(١) انظر : Bricteux : *Youssouf et Zoleikha de Djami*, Paris 1927, p. VII

فقد خلف لنا كتابه ميراثاً فيما فى التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر. ولم يكن من بين شعرائه — على كثرتهم وخصب مواهبهم — من يقارن بالجامى فى مكانته وشعره.

بعد أن أتم الجامى دراسته فى جام، ذهب يستكملها فى مدينة هراة؛ وأظهر فى أثناء تلك الدراسة شغفه الشديد بالتصوف. وكان إمامه فيه سعد الدين الكشغرى (١) أحد علماء العصر، وشيخ الطريقة النقشبندية فى عهده. ولما مات سعد الدين عام ٨٦٠ هـ. (١٤٥٥م) اتخذ الجامى مسكنه بجوار قبره فى ضاحية من ضواحى هراة، وهناك تعرف بمير على شير (٢) الذى كان وزيراً فى بلاد السلطان حسين بيقرا آخر بنى تيمور.

ويحدثنا هذا الوزير عن حياة الجامى فى مقامه الهادىء فى تلك الضاحية، ويقرر أنه كان كثير الاطلاع على العلوم الدينية والدنيوية وقد بز فى ذلك علماء عصره. ويذكر أنه كان دائم التفكير فى الذات الإلهية، لينفذ من وراء الحجب إلى جمال الحقيقة، وكثيراً ما كانت تعتريه لذلك حالات من الوجد الصوفى عنى بتسجيل خواطره فيها فى شعره، ويشهد ذلك الوزير أيضاً أن الجامى كان

(١) يتحدث عنه الجامى فى كتابه : نفحات الأنس، مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ٢٠٣.

(٢) قد ألف هذا الوزير كتيباً بالتركية عن حياة الجامى عنوانه خمسة المتحيرين وهو من أهم المراجع لحياة الجامى، وقد ترجم فقرات منه Belin فى Journal Asiatique, 1861 ويذكر فقرات منها أستاذى هنرى ماسيه فى مقدمة H. Massé : *Béharistan de Djami*, Paris 1925.

قد وصل فى العلوم إلى درجة ليس وراءها مزيد ، حتى إنه أصبح فى غير حاجة إلى الرجوع إلى كتاب للإجابة عن مسألة من المسائل فى أى فرع من فروع العلوم .

ويدل على مكانة الجامى بين معاصريه أن ابن بيقرا ، والى هراة ، أقبل يوم وفاة الجامى مع رجال حاشيته فى ملابس الحداد ، ليودعوا الشاعر إلى قبره . وكان رجال الحاشية — كما يحكى على شير — يتناوبون حمل النعش ، وقد وقفوا طويلا يبكون على قبر الشاعر ، بجانب قبر شيخه سعد الدين الكشغرى ، فى جمع غفير من الشعب ازدحمت به الشوارع ، حتى كان يتعذر فيها السير بالجنازة ، مما اضطر الأمراء إلى الاشتراك مع رجال الشرطة فى شق طريق السير . ولم يكن الجامى ذا حظوة لدى بنى وطنه فحسب ، بل كان كذلك موضع التقدير من ملوك العصر . وقد بقيت لنا رسالتان وجههما إليه السلطان بايزيد الثانى من القسطنطينية (١) .

* * *

ومن بين مؤلفات (٢) الجامى الكثيرة نخص بالذكر اثنين : هما قصة يوسف وزليخا ، وقصة ليلى والمجنون (٣) ، وهما من إنتاج

---

(١) راجع: Browne : *Lit. History of Persia*, III, pp. 422-423.

(٢) للجامى مؤلفات كثيرة دينية وأدبية وصوفية ، وقد ألف كذلك فى النحو والعروض والموسيقى : المرجع السابق ص ٥١٢ — ٥٤٨ .

(٣) قد تم نظمه للقصة الأولى عام ٨٨٨هـ (١٤٨٣ م) ، وللقصة الثانية عام ٨٨٩ هـ (١٤٨٤ م) — انظر المرجع السابق ص ٥١٦ .

الشاعر فى أيام كهولته . إذ كانت سنه إذ ذاك قد ناهزت السبعين . وفى كلتا القصتين نرى أثر ثقافته الإسلامية والعربية ، فقد أخذ القصة الأولى عن القرآن ، والثانية عن الأدب العربى . ويزعم الجامى فى مقدمته ليوسف وزليخا أنه أول من نظم القصة (١) ، ولكنه فى مقدمة ليلى والمجنون يذكر أنه اطلع على قصتين ألفتا قبله فى الموضوع : الكنجوى ، وثانيهما لأمير خسرو (٢) الدهلوى . ولكن أثر الجامى ظهر واضحاً فى صبغه القصتين بلون دينى وفلسفى اكتسبتا به طلاوة وطرافة .

وفى الحق قد كان لنظامى من قبله الفضل فى أن جعل من ليلى والمجنون قصة احتلت فى الأدب الفارسى مكانة لا تقارن بها فى الآداب الأوروبية إلا قصة روميو وجوليت ، أو قصة تريستان وإيزولت . ومنذ نظامى والموضوع فى الأدب الفارسى مجال لخيال الشعراء عامة والمتصوفة منهم خاصة (٣) .

والجامى — مثل نظامى — ذو روح إسلامية وميول عربية ، على

---

(١) ولكن الفردوسى كان قد سبقه ، راجع مقدمة يوسف وزليخا ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، ويرجع أن الجامى لم يطلع على قصة الفردوسى راجع :
Bricteux, *op. cit.*, p. XI

(٢) مات الأول عام ١٢٠٢ والثانى عام ١٣٢٥ م ، انظر كتابنا : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الباب الثانى .

(٣) لنشأة الموضوع وتطوره فى الأدبين العربى والفارسى ، راجع كتابى السابق الذكر .

خلاف الفردوسى الذى ظهرت بعض ميوله الإيرانية فى الشاهنامه(١) وقد تأثر الجامى كثيراً بنظامى فى قصة ليـــلى والمجنون ، ولكن شخصيته مع ذلك واضحة فى كثير من آرائه ومشاعره التى تتراءى من خلال قصته ، فقد سادها لون من التشاؤم (٢) الذى استولى عليه فى شيخوخته .

وقد كان الجامى أكثر عناية فى قصته بشرح إدراكه للحب على نحو ما يرى المتصوفة ، مبيناً أن الهيام بالجمال الجسدى يقود إلى الله متى أدرك المحب أن ذلك الجمال مرآة لجمال الله ، فاتخذه بذلك طريقاً للتقرب (٣) منه . ويعتقد الجامى أن « العشق الذى هو منقبة من مناقب الإنسان وخاصة من خصائصه ، حيثما وجد ، يستلزم العفة والطهر ، أما العشق الذى فيه هوى النفس وشهوة الطبع فمن صفات البهائم والسباع (٤) » . وعلى هذا النحو يشرح الجامى كيف أحب المجنون ليلى وتقرب من الله بحبه (٥) . هذا إلى أن الجامى قد اتخذ من المجنون معبراً عن آرائه فى التصوف فى كثير من المواقف ، كإدراكه الجمال على نحو ما يرى المتصوفة ، واعتماده فى الوصول إلى الله على القلب لا على العقل ، إذ العقل عند المتصوفة قاصر عن

(١) انظر : Browne : *Lit. Hist. of Persia*, III, p. 545.

(٢) انظر مثلا فصل ٥٢ من هذه الترجمة ، وكذا فى مواضع متفرقة من القصة .

(٣) راجع مثلا فصل ٤٨ من الترجمة .

(٤) راجع بها رستان للجامى ص ٣٩ .

(٥) راجع مثلا فصل ٤٨ من هذه الترجمة .

إدراك الحقائق (١) .

ويعرض الجامى فى أول قصته لنظرية المتصوفة فى أن الجمال كان السبب فىوجود الخلائق ، فهؤلاء يعتقدون أن من طبيعةالجمال ـأينما وجدـ حبالظهور والابانة عنالنفس . وكان هذا شأنالجمال المطلق الذى أراد أن يعرف فخلقالخلق ليعرفوه ، فيهتدوا إلى جماله بما فى خلقه من جمال (٢) . فكان السبب فى وجود الكون ما اتصف به الله من جمال أراد أن يظهره ، فخلق العالم على ما فيه من نقص وشر ، ليستدل المتأمل فيه على ذى الجمال المطلق والخير المطلق ، كما يستدل بالظلام على النور ، وهذه هى الحكمة فى وجود الشر فى العالم فى نظر المتصوفة . وفى العالم — مع هذا الشر — كثير من مظاهر الكمال والخير ، إذ قد أودع الله الخلائق لمحات إشراق من الحسن هى مرآة ذلك الحسن الذى تقصر العقول عن إدراك كنهه ، وبها يستدل القلب — عن طريق الكشف — على جمال واجبالوجود

(١) لا يتسع المقام هنا لشرح نظريات التصوف فى ذلك وتأثير الأفلاطونية فيها ، وأحيل القارىء فيه إلى كتابى السابق .

(٢) وبهذا يفسر الصوفية حديث « كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بى فعرفونى ، وفى لفظ : فتعرفت إليهم فبى عرفونى » . وقد اعتمد الصوفية هذا الحديث وبنوا عليه أصولا لهم . قال ابن تيمية : ليس هذا الحديث من كلام النبى ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف .. قال القارىء : لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفون ، كما فسره ابن عباس : راجع : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس ، لاسماعيل بن محمد العجلونى ، ص ١٣٢ .

وبهذا كان الجمال — عند المتصوفة — سبب وجود الخلق ، وكان الهيام به سبيل الوصول إلى الخالق ، ثم الفناء فيه عن طريق العشق . وبهذا اكتسب العشق عندهم معنى سامياً ، إذ لم يكن مصدره العاطفة والتسامى بها إلى درجة العفة والطهر فحسب ، بل كان مع ذلك عادة ، ينتهى فيها الزاهد ، بتأمله فى جمال من يهيم بها من حسان الخلائق ، إلى أن تتصل روحه بذى الجمال المطلق والحسن الذى لا يتناهى . فالصوفية لا يغفلون شأن الجمال الجسدى وأثر النظر إليه فى معرفة جمال الله . فالحب عندهم بهذا المعنى سلم للقربى (١) من الله . ولهذا تشتبه قصائدهم فى الحب بقصائد غيرهم من الغزلين ، حتى ليختلط الأمر أحياناً : فلا يدرى المرء أهو أمام عاشق وله ، أم أمام زاهد يتعبد . وإليك مثلا ما يقوله الجامى فى حالة من حالات وجده الصوفى وهيامه بالله .

« ها هنا طرف الحديقة ، وشط النهر ، وحافة الكأس ، فانهض أيها الساقى ، إذ الزهد حرام فى هذا المقام . إذا ثمل الشيخ فى صومعته طرباً لسماع الألحان ، فدعنى وخمر الدنان ، إذ فى مثل هذه الحال يدوم سوار الخمر . وحين تضع شفاهك على شفاه الكأس لا أستطيع — أنا الثمل — أن أميز هنا أين الخمر من ياقوت الشفاه . قلبى وحده أسير حلقات غدائرك ، فأينما طاف طائر القلب فهو

(١) لقد أوجزت هنا غاية الإيجاز فى عرض هذه النظريات من التصوف ، وقد شرحتها وبينت أصولها الدينية والفلسفية فى الباب الثالث من كتابى السابق .

هنا أسير شباكها . أنت تسل سيفاً لتفطر قلبي شطرين ؛ دع السيف فنظرة منك هنا كفيلة ببلوغ هذا المرام . لا تشرح مشكلات العشق لذوى العقول ، ولا تبح أمامهم بدقائق يدركها الخواص ، فى حين مقامهم عام المجالس . قد صار الجامى ثملا بحبك لم ير خمراً ولا كأساً ها هنا مأدبة العشق ، فأى مكان فيها للخمر أو للكأس (١) ؟ » .

* * *

وبحسبنا فى هذه العجالة هذا القدر من حياة الجامى ، لنترك القارىء أمام النص الذى علقنا عليه بما يشرح غامضه ، ويشير إلى معانيه التاريخية والفلسفية ، وبعض مصادره العربية ، ونود أن ننبه إلى أن الجامى — على ما له من فضل وبراعة — ولوع فى أسلوبه بالتكلف والحلية اللفظية ، والتلاعب بالألفاظ ، وذلك طابع عصره وقد حافظنا على خصائص أسلوبه ، وحاولنا ما استطعنا أن ننقل فى الترجمة كل ما يرمى إلى تبيانه من معان ، حتى تكون الترجمة صورة صادقة للنص الفارسى ، وليتيسر بها الرجوع إلى الأصل لمن يدرسون الأدب الفارسى ، ثم لكى تكونَ الترجمة علمية — يجد فيها العون من يريد القيام بمقارنات فى الموضوع .

غير أننا حذفنا فى الترجمة بضع صفحات من أول القصة فى النص الفارسى ، يناجى فيها الشاعر الله ، ويستدل عليه من طريق

(١) كليات جامى طبعة لكهنو ص ٩٧ ، وكذا : Browne : *Lit. Hist. of*: H. Massé : *Anthologie Persane*, pp. 181-182, *Persia*, III, p. 541 .

التأمل فى مخلوقاته ، ثم يمدح الرسول ويذكر قصة إسرائه ومعراجه. وإنما حذفناها لأن موضوعها لا يمت إلى القصة بسبب ، وخواطر المؤلف فى هذه الصفحات مطروقة ، ثم إنها تبعد بالقارىء العربى عن جوهر القصة .

وشىء آخر نود أن ننبه إليه ، هو أننا اختصرنا بعض عناوين الفصول فى الأصل ، وذلك حين تطول إلى بضعة أسطر ، وتبدو مصوغة فى تكلف قد يخفى على القارىء معه معنى العنوان . ولكنا كثيراً ما حافظنا على ترجمتها كما هى إذا بدت موجزة واضحة . وفيما عدا هذا قد التزمنا جانب الوفاء للنص فى نقل القصة إلى العربية نقلا دقيقاً .

هذا ؛ وقد رجعنا إلى المخطوطات التى بين أيدينا فى مكتبة جامعة القاهرة المصرية ، وكان أوضح هذه المخطوطات وأوفاها مخطوطة رقم ٢٣٥ فى مكتبة الجامعة ، ومخطوطتان رقم ٢١ و ١٢٥ فى مكتبة دار الكتب . ولا يكاد يوجد فى هذه المخطوطات خلاف فى النص يؤثر على المعنى فى الترجمة . ولذا لم ننبه إلى الخلاف بينها فى تعليقنا ، إلا أننا حين نجد فى مخطوط منها زيادة — وقلما نجد — نحرص على نقلها فى ترجمتنا لكى تكون أقرب إلى الكمال .

وقد راعينا غاية الإيجاز فى التعليق على النص ، مقتصرين فى المراجع لهذه التعليقات على من تدعو إليه الضرورة .

محمد غنيمى هلال

(١)

فى معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين

عندما تنفس صبح الأزل عن العشق ، نفث العشق نار الشوق فى القلم ، فأجرى على لوح العدم صوراً جمة ذات تهاويل بديعة . فكانت الأفلاك وليدة العشق الذى خرت صريعة لسلطانه أرجاء الأرض . فلولا العشق لم يوجد أثر لمخلوق خير أو شرير ، ولا وجود لشىء لم يكن مصدره العشق . فهذا السقف العالى الأزرق الذى يتوالى دورانه ليلا ونهاراً هو نيلوفر بستان العشق (١) ، وكرة منحنى صولجان العشق . فالمغنطيسية التى هى طبع الحجر قد أنشبت مخلبها فى الحديد صريع العشق الذى تجلى له من الحجر ؛ فانظر إلى الحجر فى هذا المقام كيف استخفه الشوق إلى الحديد (٢) ؛وخـــذ

---

(١) لفهم هذه الإشارات الصوفية راجع المقدمة ص ٥ — ٨ وللمزيد من الفهم راجع كتابى : الحياة العاطفة الفصل الأول والثانى من الباب التالث . وهذا الإدارك لجمال والحب مطابق لإدراك أفلاطون راجع :

Platon : *Le Banquet*, trad. Meunier, Paris 1920, p. 40 et s.

(٢) هذا تعليل آخر للحب ، وأنه تجاذب بين الشبيه وشبيهه من المخلوقات ، حيوانات كانت أم جمادات ، ولكن العشق يبلغ أقصى حالات وعيه فى الإنسان . والمغنطيس والحديد فى مثال الشاعر كلاهما معشوق وكلاهما عاشق ، ولكن عنصر الحديد أقوى إذ هو الطالب لعشيقه . وهناك اختلاف يسير بين ترجمتنا وبين ترجمة Browne لهذه الأبيات يرجع إلى خلاف فى المخطوطة ، وقد آثرنا هذا المعنى طبقاً لمخطوطة ٣٢٥ بمكتبة الجامعة ، إذ المعنى منطبق على ما أورده ابن حزم فى طوق الحمامة طبعة القاهرة ١٩٥٠ ص ٨ وهذا المعنى مشروع هناك بالتفصيل . ثم إن هذا مأخوذ أيضاً عن أفلاطون راجع :

Massignon : *La Passion d'al-Hallaj*, وكذا Platon, *op. cit.*, p. 36.
p. 188, وقد شرحت هذا فى كتابى السابق الذكر —

من هذا قياس المصابين بالعشق أنهم فى جذبه العشق راضون . فعلى ما بالعشق من آلام هو راحة الصدور الزكية . وبدون سلطان العشق كيف يتخلص المرء من محن الفلك المديل ؟ ؟

وما من آدمى يخلو من معنى العشق علا قدره أو دنا ، ولكن الفرق ما بين حبيب قد يبعد فى القدر بعد القشور عن اللب . فالمعشوق من ذهب ، والعاشق من فضة ، وبدون فضة كيف يستقيم أمر الذهب ؟ والمعشوق كرمة ، والعاشق حديقة ، فصدر العاشق بها موسوم .

فيا حبذا من غسل ضميره من كل الأوشاب بحب جميلة مرحة ، وربط قلبه بمليحة ذات دلال ، خبيرة بمجالس الأنس ، أذيالها طاهرة من الأغيار ، لا كأذيال الورد الممزقة بالأشواك . وخير منه ذلك الذى يرتبط بمرشد (١) خبير بالسلوك ، يخجل الورد بوضاءة الوجه ، ويحسده الياسمين لبياض شيبه . جماله مرآة الأرواح ، وكلامه مفتاح الفتوح . وإذا دعاك داعى العشق من هذين المقامين ، أوصلك محملة إلى الحقيقة . هذه هى وردة الصحراء الوسيعة ، وزهرة بحر المجاز . ومن لا نصيب له من العشق فى حديقة الدنيا هذه ، فهو غافل عن حريم القربى ، ولم يستنشق نسيم الإنسانية .

يحكى أن واعظاً فصيحاً ، باسطاً ظل علمه على مجلس وعظ ،

(١) يقصد شيخ الطريقة ، وهو معشوق الجمال ، قارنة أفلاطون :
Platon, *op. cit.*, pp. 58-60, 62-63.

كان يسوق طرائف من دفتر العشق ، ويحكى من قصص العشاق . فمر بمجلسه رجل ضل حماره ، وأخبره عن ضالته . فصاح الشيخ قائلا : من من الحاضرين اليوم لم يتقد قلبه بنار العشق ، ولم يذق قط محنته ، ولم يكتو بنار الحسان ؟ فوقف رجل ساذج من مكانه ، لم يسفر قلبه عن دخان الآهات . وقال : يا وحيد الزمان ، أنا ذلك الإنسان الذى لم يكن له قط نصيب من العشق ، فنادى الواعظ الرجل الذى ضل حماره قائلا : ها هو ذا حمارك ، فأحضر مقودك ، فهو والحمار سيان ، إذ أنه لم يعان تباريح العشق ، ولا فرق بينهما غير طول الأذنين (١) .

فالعشق رأس مال القربى ، بل آدمية الإنسان من العشق . فمن لم يعشق فليس بإنسان ، وليس بأهل لمجالس القربى .

أى جامى ! كن رهيناً بإسار العشق . واقطع نفسك بوصل العشق

(١) فى الموشى (ليدن ص ٤٨) أن مجنون بنى عامر قال :

إذا أنت لم تعشق فتصبح هائماً ولم تك معشوقاً ، فأنت حمار

(٢)

سبب نظم الكتاب
وباعث ترتيب هذا الخطاب

أقرب القصص للقبول ، وألصق الألحان بالطباع ، هى قصص العشق وألحانه ، فى كل ما يعرف الفصحاء ، وفى جميع ما قرأ البلغاء . لذا شرعت فى رفع الستار عن هذا السر ، وفى التغنى بهذه الطرفة ؛ فألهمنى طبعى الموهوب ما ألهمنى من عذب القول فى حب يوسف وزليخا (١) ، فانبجس من قلمى من حلو الكلام مانظمت به قصة كانت فى العالم مثار الفتنة ، ولكنها مثار السرور فى خواطر العشاق ؛ وكانت منبع لطف ، ولكن لم يرتو منه عطشى . وفى مكان آخر كان طائر قلبى يريد أن يتغنى بلحن جديد ، فجرى الاقتراع بفأل ميمون ، حين وقعت به على حال المجنون ، على الرغم من أنه قد عالج الموضوع قبلى أستاذان ، لهما صرح عال فى دولة الفصاحة ، وقد بسطا لسانهما فى إيراد الظرف ، ووفيا الكلام حقه : أحدهما من كنجا (٢) ، وقد كشف فى قصته عن كنز الجواهر : والآخر من الهند (٣) ، وقد سال عذب حـــديثه الفياض . وقد دق الأول طبل الدعوى وجلا الثانى عروس المعانى .

---

(١) انظر المقدمة ص ٣ (٢) المقدمة ص ٣

(٣) هو خسرو الدهلوى . المقدمة ص ٣—٤ .

وزين الأول ببديع نظمه الألواح ، وجلاها الثانى بيده الصناع بالألوان . وبلغ الأول بعلمه أوجَ الإعجاز ، ونفذ الثانى بسحره إلى الألباب .

وقد اقتفيت أثرهما ، ممتطياً راحلة خاطرى العداءة كالريح . وقد راجت بضاعتهما فى كل مكان ، وجاد بهما خاطرهما الكريم. وحثثت راحلتى — على ما أنا عليه من عوز بالإضافة لهما — فلحقت غبارهما . وإذا عددت بعدهما فى الشوط ، فكفانى ما جلل وجهى من غبار اللحاق بهما ، فهو إكسير وجودى وحلية عطلى .

لا ، لا ، إنى غريق فى بحر القلزم ، فكيف بالتراب أتيمم ؟ وإنما أغترف من منبع همتى ما أغسل عن وجهى هذا الغبار . وذو الجود المطلق هو فياض كل إلهام . وكل طلب من سواه عيب وامتهان . وإذا استطعت الحصول على جوهرة من معدنها ، فمن الضعف أن تلجأ فى الحصول عليها إلى جوهرى . الدجلة ملك يمينى حقاً ، فلا يليق بى أن أطلب ماء من سقاء ؛ ولاتخاذ كفى جاما والارتواء بها من وشل مائى ، خير من الارتواء بكأس من ذهب من حياض سقاة آخرين . وحين تفيض اللجة فلا إمساك خشية الإنفاق . ومأتى الجدب خلو الذهن من الخاطر . وإذا أريد إمساك ماء المورد سدت عينه بحجر من الأحجار ؛ وقد طهرت عين إلهامى من السداد ، ليعم فيضها ، وينساب فى كل جهة ماؤها ، حتى أروى وأروى سواى . سأروى بلحن الغيب ، وأجعل فضل شرابى صدقة .

(٣)

ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان
ودعاء بعض من حلوا فى مركز نقطة الحال (١)

يا ساقى الروح فداك روحى ، أترع الكأس من خمر الصبوح (٢) من تلك الخمر المباحة لذوى العشق أهل القلوب الواعية ، وأت بها مشرقة فقد حل الصباح ، لنعقد مجلسنا على مشهد من خيوط الفجر ، ونسوق فى مجمع الخلان نبذة من طرائف اللطفاء ، أولئك الذين كنا لهم رفقاء ، وكان بعضنا شفيقاً على بعض ، فحثثنا معاً خطا الطلب . وتصفحنا صحائف الأدب . كنا متكاتفين فى الغيبة والحضور دون أن نكون معاً لا تمتد يدنا إلى طعام . آلا فليكن مقامهم فى عليين ، وليكن الكوثر من رشحات كئوسهم . بقلبنا من فرقتهم حرقة كحرقة الشقائق بارحت حديقتها . ذهبوا وتركونا وولوا ولم يبالوا .

فناولنا — أيها الساقى — كأساً مبيدة للأسى ، وروِّنا من الجام

---

(١) أى ذكر من ماتوا ، وبلغوا بموتهم أعظم غاية للوحد وهى القرب من الله حتى الفناء فيه : راجع لهذه الاصطلاحات الصوفية: Massignon : *Lexique Technique de la Mystique Musulmane*, pp. 39, 255, 275.

(٢) الخمر عند الصوفية رمز للوجد Extase وقد تأثروا فى هذا بغيرهم ، فمثلا : Philon يتحدث عن الخمر بهذا المعنى فى كتابه : De Vita contemplativa ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، وعلى هذا النحو يتحدث الجامى عن الخمر فيما أوردنا له من شعر فى مقدمة هذا الكتاب ص ٦—٧ .

باعثة الطرب ، من تلك الكأس التى تشيع فى النفس السرور ، وتبعث ذكرى السابقين من نازلى القبور ، ممن ثبتت أقدامهم فى طريق التجريد (١) ، وصفت أقداحهم فى مجلس التوحيد (١) ، شيوخ مسالك الطريقة ، وأسد ممالك الحقيقة ، المطهرون عن حب النفس ، قد وجدوا طريقهم (٢) إلى تملك الوجود ، وختمـوا طبائعهم بميسم الزهد . كانوا مصابيح هدى لأهل الظلمات ، وكان من الناس من يقبس منهم الأنوار فى دجنة الحياة ؛ يغمرونهم بالنور ، حيث استغنوا عن المصابيح والشموع ، واستضاءوا بنور (٣) الجمع آثار أقدامهم فى أى الطرق سلكوا هداية للناس . فرأسى فداهم ، ولتكن روحى تراب طريق وفاهم .

أيها الساقى ! إن قلبى قد انقبض دونى ، لم يدع من أمرى

(١) التجريد : هو تخليص النفس من جميع الأغيار ، ومن التفكير فى الذات بغية القربى الكاملة من الله ، وأما التوحيد فيقسمه الجامى إلى توحيد إيمانى وعلمى . وهما عامان لا يختص بهما المتصوفة ، ثم توحيد حالى وهو أن يلازم التفكير فى ذات الموحد حتى لا يرى إلا الواحد . ولا بد أن يصاحب هذا التفكير التوحيد العلمى لا التقليدى ، ويمتزج به حتى يروى الموحد بشراب التوحيد الموصوف فى آية : ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون . راجع الجامى : نفحات الأنس ورقه ١٧ وكذا :
Massignon : *op. cit.*, pp. 74, 246, 283.

(٢) هذه العبارات تذكرنا ببعض عبارات لأفلاطون: Platon : *op. cit.*, p. 48

(٣) الجمع : الفناء فى الله: Massignon : *op. cit.*, p. 75 ويعرفه الجامى بأنه استغراق الموحد فى مشاهدة جمال الواحد فلا يرى غير ذات الواحد وصفاته . وتتلاشى ذاته كأنها قطرة فى تلاطم بحر التوحيد . راجع نفحات الأنس للجامى ، المخطوطة الفارسية السابقة الذكر ، ورقة ١٦ .

مستقيما ولا معوجاً . فاسقنا خمرة تخلصنا بها لحظة من حب الذات والكبرياء . ورد شفاء الأمل مبتسمة من جرع كأس النقشبنديين(١) ونجنا بتلك الطريقة من أهوال حب النفس والإعجاب بالذات . وإن كانت بغداد من قديم عامرة بالجنيديين(٢)، فقد غدت سمرقند الآن بغداد فهى بهم خطيرة الشأن . وإذا سميت الجنيديين ، فثن بالعبيديين فى قافيتك . وحين يفيض الطبع بفصيح القول ، فلن تجد أجمل من هذه القافية . ونظم موضوعه الرسوم الصوفية نظم بديع فى الزمان ، حقيق بالخلود ، وجدير به ألا يكون خالياً من هذه القوافى.

أيها الساقى ! ناولنا من تلك الخمرة المشرقة كالشمس فى جام (٣) جمشيد الكاشف للعالم ، من تلك الخمرة التى جعلت من نور الإشراق الذى يكشف جوانب التاريخ قديمه وحديثه . فأين

---

(١) نسبة لنقشبند : وهو محمد بن بها الدين البخارى (١٣١٧ — ١٣٨٩ م) عاش فى ضواحى بخارى وتنقل فى مدن كثيرة . وهو مؤسس الطريقة النقشبندية ، راجع : جامى : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ، ورقة ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) نسبة لجنيد ، وهو أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخراز ، صوفى ببغداد ، أصل أسرته من نهاوند ، درس الصوفية على أبو ثور تلميذ الشافعى ، حج ثلاثين مرة على قدميه ، وكان يسمى سيد الطائفة : المرجع السابق ورقة ٤٧ .

(٣) جمشيد من ملوك إيران القدماء ، يعتقد أنه عاش حوالى ٣٠٠٠ ق.م ، ومن الأساطير المعزوة إليه أنه كان له جام ينظر فيه فيرى فيه الكائنات فى الأقاليم كلها ، ويطلع به على حوادث الكون أجمع : انظر الشاهنامة ، تحقيق وتعليق الدكتور عزام ، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ م (١٩٣٢ م) حـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، وكذا Jackson : *Early Persian Poetry*, pp. 96-99.

بهرام وأين قبره ، وعضده كالأسد (١) قوة ؟ وأين كاوس (٢) وقصره الأشم الذى كان يطاول السماء ؟ وجنكيز (٣) الذى كان ذئب هذه الصحراء ، فتخلص الوادى منه ، وتثعلب فى مخلب الأقدار المتذئبة ؛ وفقد روحه فى حربه ؟ أين تيمور شاه (٤) ، شبيه السد الحديدى ، فى أمان من الفساد ، فاتح الثغرات ، قد صار فى كف العجز ليناً كالشمع ، ثم أسلم الروح محروماً من الملك والمال ؟ وشاه رخ (٥) الذى عاش سعيداً مجدوداً ، وبعد صيت

---

(١) وهو بهرام الخامس بن يزجرد الأول (٤٢٠ — ٤٣٨ م) وقد شهر بقوته وبراعته فى الصيد ، أنظر الطبرى طبعة de Goe, I, 558 وكذا مختصر كتاب البلدان لابن الفقية طبعة ليدن ١٣٠٦ ص ٢٥٥ .

(٢) يسمى بالعربية كيقاوس وهو الملك الثانى من ملوك الفرس الكيانيين وهو ابن كيقاذ فى الشاهنامه ، وفى كتب أخرى أنه حفيده أو ابن أخيه ، ولقبه نمرد ، ويقال إنه حاول أن يطلع على صرح السماء : راجع الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢٦ وص ١٠٢ — ١٩٩ .

(٣) جنكيزخان المغولى ، ومؤسس الأمبراطورية المغولية المترامية الأطراف ، ولد عام ١١٥٥ م ومات وهو يحاصر إحدى بلاد الصين عام ١٢٢٧ : راجع مثلا : Brockelmann : *Hist. des Peuples et des Etats Islamiques*, pp. 209-211.

(٤) المقصود به هنا تيمورلنك : راجع مقدمة هذا الكتاب ص ١ ، ويعتقد بعض المؤرخين أنه من نسل جنكيز خان ، راجع دائرة المعارف الإسلامية . وقد ولد تيمور سنة ١٣٣٦ م وتوفى سنة ١٤٠٥ .

(٥) راجع مقدمتنا لهذه القصة ص ١—٢ وفى النص تلاعب بالألفاظ فى كلمة شاه رخ ، إذ هى أيضاً اصطلاح فى لعبة الشطرنج . ولم أستطع ترجمة جميع المعانى الفارسية إلى العربية بأكثر مما فعلت .

حكمه ، اضحى على بساط رقعة الآفات لعبة ، فبينما هو ملك إذ قيل مات .

أيها الساقى ! دع التعلل لحظة ، واسقنى كأساً من خمرة المجوس تلك الخمرة التى ينبعث طيبها من القلب ريحان دعاء للملك العادل ، ملك يأبى الظلم ، شعاره العدل والكرم ، وما احتياجه للدعاء ، وعدله ملاذ العرش والتاج ؟

بعد أن شد الفاروق عمر الرحال من هذا العالم ، بقى به صيته العادل . وأما حين حزم الحجاج متاعه من هذه الدنيا فقد نجا العالم من ظلمات ظلمه . فطابت بالعدل سيرة ذاك ، واستراح فى روض الرضا ؛ وعاش هذا بظلمه موضع الذم ، على ما ينتظره فى العالم الآخر من أنواع النكال . ألا طاب عيش من ينتصح ، وبغيره يعتبر ، فيضحك من عيب الملوم ، ويقتفى أثر من أحسن عملا ! !

فناول — أيها الساقى — تلك الخمر القديمة على السنين ، وصبها ياقوتاً مذاباً ، فتلك الخمر حين يحتسيها المحبون ، يصبحون ولاهم لهم غير الوفاء والحب . وهى مبعث الارتياح للخائفين النافرين ، وصلة المتقاطعين . ومن يتوافق وصاحبه يثمر نخل أمله الثمر اليانع فالحبيب مفتاح كنز الأمل ، وأنشودة العشق الخالد . ومن المقصود فى الوجود غير الحبيب ؟ وأى جنى من كل أنواع الصلات غير جنى الحبيب ؟ ومنذ أول العهد بالوجود حتى آخره لا يطير الطائر

بأسرع من الصديق ؛ ولا يفتأ الصديق يغرد فى بستان الصداقة على أغصان الوفاء ، فيرسل من ألحانه اللطيفة ما يهدهد به القلوب المهيضة ؛ وليس من عمل يفضل هذا العمل . ألا فداءاً لمثل هـــذا الصديق كل الأصدقاء .

أيها الساقى ! هذه أنفاس الفجر كالمسك الخالص ، وقدأخذت تهب أنسام الصباح ، وتهب من الخمارة رائحة الشراب ، فاصح وأجذب إليك دناً من تلك الخمر التى تحرق بنورها (١) فراشة العقل ، حينما تتقد بها شموع الروح . وعندما يحترق العقل ينمى العشق . ويموت عصفور العقل ، إلترفرف العنقاء بأجنحتها . فتحرر من وسائل العقل ، وكن طليقاً من عقاله ، حتى تربح فى تجارة العشق وتطمئن فى ظلاله . فالعشق أينما كان طهر وزهد ، والعقـــل حيثما كان مكر وحيلة .

أى جامى ! بجنـــون الاشتغال بالعشق ، خالص نفسك من التصنع ؛ وإذا لم تبلغ شرف تلك الرتبة ، ولم تمارس أصول جنون العشق ، فاجلس واتل القصة ، وانثر السحر من حديث ذلك الإنسان الذى جن من العشق .

---

(١) الصوفية يؤمنون بأن المرء يصل إلى الحقيقة عن طريق القلب لا العقل ؛ راجع مثلا الفصل الأول من الباب الثالث من كتابى : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، الباب الثالث ، الفصل الأول .

(٤)
الحلقة الأولى فى قصة عشق ليلى والمجنون

كاتب تاريخ العشاق ، ذو الأسلوب العذب والكلام المطرز عندما بدأ فى حديث سيد العشاق ، هكذا سطر على لوح البيان قائلا :

كان فى بنى عامر رجل رفيع القدر ، سعيد الطالع ، بدر يتألق فى أوج الشرف ، مرموق من العرب لطيب فعاله ، مرموق من العجم لرقة شمائله ، تجمعت له أسباب المال والثراء ، ووفر من الدور والمروج . خيامه المضروبة تضفى على الجبل والسهل منظر مخيم ضخم أقيم على بساط الغبراء (١) ، تتاخم طلائعه المعمور من أرض اليمن . ضاقت الجبال والسهول فى وجه الغزلان من كثرة قطعانه . وقطعان إبله جبل أشم فوق الجبل ، شامخة المنظر جميلة المظهر ، مرعاها الأرض جمعاء . خيله تغدو وتروح فى كل الأرجاء كأنها قطعان لاحصر لها من حمر الوحش . بابه مفتوح للضيفان يدعوهم إلى مائدة كرمه . فى السهل والجبل ، ومن الليل حتى الصباح ، يوقد النار ليجلب الضيوف . يسر السائلون بطلاقة وجهه ويصير خرابهم بجوده عامراً . وقد جرى ذكره فى كل قبيلة ، بما

(١) كانت المبالغة فى الوصف طابع العصر ، ويقصد الجامى بتلك المبالغات أن يجعل قصة المجنون أمراً بين الواقع والخيال ، ليتسع المجال له لإبداء آرائه والتعبير عن عواطفه على لسان المجنون .

تفيض به كفه من أياد جميلة ، تنقبض عما تجود به كفه يد حاتم . ويقبل لديه سادات والعرب الأرض تبجيلا ، ويسعى ملوك العجم إلى صداقته على ما لهم من مكانة وموفور دولة ، وله من جاهه آلاف من مظاهر الجمال والسعادة ، وخير منها أنه كان له عشرة (١) أولاد ، كل منهم غصن فى شجرة الحياة ، وقصر أشم فى مدينة الأمل . ولكن كان له ابن من بينهم هو أصغرهم ، وكان قلبه متعلقاً به أكثر منهم . نعم فى اليد عشرة أصابع ، تتعاون كلها فيما لليد من قوة ، ولكن من بينها — فى حالتى فرح أو مأتم — الإصبع الصغرى هى الجديرة بحلية الخاتم . نعم كان هو فى برج الأمل ميمون النقيبة ، قمراً مضيئاً وشمساً مشرقة . يمنه يفوق حد القياس ، واسمه قيس . وعندما خطا نحو الرابعة عشرة من سنه ، بدأ يغشى بدر وجهه كلف العذار . قد طاب خط ياقوت شفاهه ، ونسج من المسك شعار قمر وجهه . من جبينه يشع نور القمر المتألق ، وهو شمس مشرقة على الأرض ، حواجبه محراب الغانيات ، وقبلة دعاء المتقين ، وقده نخلة عجب تسبى القلوب ، يتساقط منها الرطب على مكلومى الفؤاد . كأن حول فمه خيوطاً من الفضة ؛ وقد دق خصره كالشعرة ، وكرة ذقنه خالصة لم تشبها خضرة الشعر . ويتمنى الغيد ذوات الخدود الوردية والقدود الممشوقة كشجرة السرو أن يكن صولجاناً فى هوى تلك الكرة . وهو مفطور على حسن الخلق ، مطبوع على الأدب ؛ طب بصناعة القول ، شغوف بالشعر ، ماهر

(١) انظر الأغانى طبعة دار الكتب جـ ٢ ص ٢٨ .

فى تدبيجه . فإذا ضم ياقوت شفتيه ، فإنما تتلمس أذنه طريقاً إلى سر . وإذا تفتحت شفتاه كالبرعمة الوردية الصغيرة ، فانما ليقول لطائف لاتحصى عن روية وإمعان . وطالما سطر بنانه خطوطاً كذوائب الحور ، بدائع من القول على ألواح من الكافور ، وكل ما يخطه يغرى من يجيدون الكتابة بتمزيق ما كتبوا . وقد اعتاد أن يتجول فى السهول والجبال ، مع طائفة من الشبان ، تنفح ثيابهم عطر مسك الغزلان . فحينا كان يلعب معهم على سفوح الجبل ، يختال مع الحجل ، وحيناً كان يجلس فى شعاب الوادى يوقع على الأوتار ألحان الطرب ، وآونة يتوجه إلى أرض ذات عيون ليغسل عن نبع القلب ما علق به من غبار . وآناً يحزم أمتعته متوجهاً شطر المروج ، ليحط عن قلبه هموم الدهر ، حاملا عصا التسيار ما عن له إذ كان قلبه فارغاً من شجن الأيام ، فلم تحترق — بعد — كبده بنار العشق ، ولم تجر فى أجفانه دموع الشوق . ولم يتمزق ثياب صبره ، ولم يعان بعد للحب أنات . فى الليل كان يأخذه نوم الخلى ، فيستلقى مستغرقاً على سرير العافية ، ويفتح له الصبح أبواب الأمل فيولى وجهه حيثما يتراءى له . فإذا جذبت أمنية عنان قلبه تيسرت له كما يشاء ، وهو قرة عين والده لمكانته ، ومبعث السرور فى قلب والديه بجماله ، ولم يساورهما قط قلق التفكير فيما يبيت له القدر .

عجب حال ابن آدم ! يعيش مطمئناً إلى هذه الدار موطن الأحزان ، غافلا عما كتب على جبينه ، وعما وضع فى طينته من بذور ، وعن غصنه الذى ينمى على الماء والتراب : أتحلو فى الفم ثمرته أم تمر ؟

(٥)
غرام قيس (١) قبل تعرفه بليلى

من عجنت طينته بالعشق ، وخطت على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو أمضى عمره فى غسله منها ومحوه . وسيتغنى كل لحظة بخليل ، وسيعزف بقيثارته على إثر عشيق ، ويجوس كل مكان ، عارضاً روحه ثمناً لما يريد اقتناءه ، حتى يقع هو فى النهاية أسيراً . وقد كان قيس خارج قياس العقل ، واسمه يحمل على الاعتقاد بأنه مجنون (٢) . فقبل أن يقع أسير ليلى ، كان قلبه ميالا إلى كل حسناء ، وكانت له راحلة أسفار ، يضرب بها فى كل الطرق والديار ؛ شعرها فى لون الشفق (٣) حمرة ، معقود الحلقات كشعر زنجى . وكان مثاله — فى أشراق وجهه فوق تلك الراحلة الحمراء — مثال هلال مطل من الشفق . شبيه الفلك لاتطمئن به من الرحيل دار . السهل والجبل أمام دوراته سواء . فكان ينساب فى الأودية ماء ، ويتسنم قلل الجبال إعصاراً ،

---

(١) يأخذ المؤلف برواية الأغانى أن قيساً أحب قبل ليلى : أنظر الأغانى ، طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١٢ — ١٣ ، ويمهد بذلك التحليل النفسى لما سيبلغ الهيام بقيس . والجامى فنان بارع فى اختياره للحوادث التى تتقدم بها القصة ، وتضىء الجوانب النفسية لشخصياته ، وهو يفوق فى هذا الميدان نظامى .

(٢) يريد المؤلف أن يشتق بطريق التكلف من اسم قيس معنى أنه خارج القياس ، أى مجنون .

(٣) أى أنها من حمر النعم .

يمتطى راحلته كل يوم منقباً فى كل الديار ، قاصداً كل قبيلة ، باحثاً عن كل غادة جميلة .

وذات يوم كان يطوف على هذا المنوال ، إذا به يمر بقبيلة من القبائل . وبينما يقلب الطرف فيما حوله ، رأى جمعاً من الحسان ، مجتمعات فى حفل كحلقة من النجوم ، وفى وسطهن قمر تبوأ مقعده ، قمر يبزّ سناه ضوء الشمس ، إذ يغزو بنوره القلوب . فدنا منهن محيياً ، وسأل عن اسم ذلك القمر وحسبه ، فقيل له إن اسم تلك الحسناء كريمة ، وهى حسيبة فى أصلها نسيبة . وبعد أن استجاز منها فى الجلوس ، أناخ بساحتها جمله وعقله ، ثم جلس يتأمل فى محياها ، فأثر ذلك فى فؤاده ، وظل يبادلها الابتسامات وعذب القول ، ويحادثها فى دلال ، وكان الكلام يسيل من شفتيها لؤلؤاً ينساب من عقيق رطب . وثنت هى عليه بطيب الخطاب فسقت به من كأس شفاهها الخمر ؛ ففقد قيس على قولها عنان صوابه ، وصار ثملا بدون شراب . وارتويا كلاهما من نفس الكأس . وما إن تناولا منه بضع جرع حتى غابا عن أنفسهما . وبقيا على حالها تلك بعض الوقت ، حتى بدا من بعيد شاب(١) مقبل فى قد كالسروة(٢)

(١) هو منازل ، كما تروى الأغانى ، وقد ولى قيس عنها وهو ينشد :

أعقر من جرا كريمة ناقتى ووصلى مفروش لوصل منازل
إذا جاء قعقعن الحلى ، ولم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل
متى ما انتضلنا بالسهام نضلته وإن نرم رشقاً عندها فهو ناضلى

الأغانى ج ٣ ، ص ١٣

(٢) جمعه سرو ، وهو شجر قويم الساق حسن الهيئة ، وكثيراً ما تشبه به قوائم النساء فى الأدب الفارسى .

فى روضة الحياة ، عليه حلة الصبا ، ممتطياً راحلة عداءة ، يتألق وجهه تألق النجم الثاقب . وهشّشن له مقبلات عليه ، مرحبات بقدومه . ووسوست الخلاخل فى ساقهن كأنها الجلاجل فى أكف المطربين ، وحين رأى قيس هذا منهن ، نهض مضطرب الفؤاد وجيعه ، وولى هؤلاء الحسان ظهره ، وأخذ بزمام ناقته فى قبضته . فلما رأين إسراعه بالانصراف ، صحن وجرين فى أثره قائلات : « لاتتعجل هكذا ياقيس فى الانصراف ؛ وعد إلينا عاتباً ، لاتدعنا نحرم جمال طلعتك ؛ واجلس لنروى بالنظر إلى وجهك الجميل . فإنه — وإن لم تتح لنا متعة الحديث معك — قد ربطتنا بك صلة أزلية (١) . فلن تستطيع أن تسحب يدك من عهد الوفاء ، ولا أن تقطع حبل ذلك الولاء » . وعلى الرغم من أنهن جددن فى أثره ، محتالات على رجوعه بمثات الطرائف ، فقد صارت نارهن رماداً (٢) . ولم يكن لأقوالهن من طائل ، ولوى قيس عنهن عنانه ، ممتطياً راحلته ، وأخذ يحدو :

أيها القلب دع عنك أمر كل صديق لاوفاء له ، وعش خلياً ، فذلك الإنسان الشبيه بوردة الفجار ذات اللونين ، أى رائحة للوفاء ترجو منه ! وماذا أفعل بهؤلاء اللاتى حين وصلت إليهن بقين كالجبال ، طاويات أقدامهن فى أذيالهن ، على حين إذ تراءى لهن

(١) الحب صلة أزلية بين المحب والمحبوب فى توليد الحب ، انظر كتابى : الحياة العاطفية ، الباب الثالث .

(٢) وفى الأصل صارت نارهن دخاناً .

منى إقبال ، أدبرن عنى مترنمات بوسوسة حليهن ، فلو أصبحت غباراً فحاشا أن يطير بى الهواء لتلك الديار ؛ ولو غدوت سحاباً ينثر جوهر مائه ؛ فحاشا أن تنزل منى قطرة على ذلك المكان ، وخير أن تلوذ بالصمت عما جرى ، وأن تنسى كل من ضمهن ذاك الجمع .

(٦)

وقوع قيس عن اختيار فى حب (١) ليلى كالصيد الذاهل

عندما عاد قيس موجع الفؤاد آسياً ، هارباً من شموع الحسان فى تلك القبيلة ، كان كل ليلة يبحث عن مصباح يضئ به أمسياته ، مستخبراً عن الغيد ذوات الخدود كأوراق الورد . وكل امرئ مر به — أيا كانت قبيلته — اطلع منه على حاجته الملحة إلى حب ، إذ كان يقول له : أى خبر لديك عن الفاتنات قص على كل مالديك من أمرهن . فمر يوماً على جمع بدياره ، ورأوا منه هذا الشغف ؛ فقالوا له : إن فى قبيلة كذا غيداء ذات عيون حوراء ، اسمها ليلى وكثير أولئك الأولى وقعوا فى حبها . لطيفة الخد ، تفوق فى جمالها الوصف . فاذهب بنفسك لترى ما هى ، ولاتعتمد على أذنك أيها الخبير : وما راء كمن سمعا قيس هذا الخبر ، فنهض لساعته ، وتزيا أحسن لباس ، وردد الآهات مما يعتلج بصدره من أشواق . وامتطى ناقته يقطع الطريق نحو الحبيب . يحدوه الأمل إلى ليلى ، حتى أظله حبها . ولما رآه أهلها استقبلوه فى مروءة وشهامة ، ووجهوا إليه عبارات الثناء ، وأحلوه فى صدر مجلسهم ؛ ولكنه كان يجيل نظره فى كل جهة ، فلا يعثر على أثر لمقصده ، حتى جرى فى قلبه دم اليأس ، فإذا هو تجاه حبيبته ، وقد نم لسمعه عنها

(١) الأغانى ، طبعة دار الكتب المصرية ، جـ ٢ ص ١٠٣ .

وسوسة حليها ، ورنين خلخالها ، فرأى قيس قداً كالسروة (١) ، فى حالة الرشاقة والدلال . أو كأنها حجلة (٢) ، أو تدرج (٣) يخطر فى وجه يفوق الوصف ، ليس به من أصباغ ، ولكنه وردى اللون . لها جبهة — حين تجلوها — لوح من الفضة ؛ لا ، بل قرن البدر التمام ، حاجباها ينفحان العنبر ، أهدابها مصوغة من المسك ، ولكنها سهام تنفذ إلى القلب . وعينان تحسبها بهما ظبياً . تتعلق بها أنظار من يراهما فلا يبغى عنها حولا . وشفتان كالمرجان ، ولكنهما ليستا من الحجر . لهما لطف الخمر ولون الياقوت . فمها الضيق يعطر الشهد ، كأنه فى حديقة الخد نحلة عسل وقعت على أوراق الورد من خدها وقوع الصناع ، فلسعتها بحمتها ثم عادت بالشهد . وينفرج الفم عن عقد من الجواهر ، لؤلؤه الأسنان ، كأنها براعم بيض بليلة بأنداء الصباح . وذقنها الفضى فى جمال التفاح ، فضته عجب فسحر العقول . وبوجهها خال من المسك كأنه حبة صنعت من اللطف . ودون الوجه عنق كأنه كأس فضة . وقبضة يدها ذات أصابع فضية مستديرة . وكل شعرة من غدائرها أحبولة تصيد القلوب .

وما إن أقبلت ليلى بهذه الشمائل حتى ولى قلب قيس من مكانه . وطاب منظر كليهما للآخر ، واشتعلت بساحة صدريهما نار الحب .

---

(١) شجرة يشبه بها القوام فى الأدب الفارسى .

(٢) طائر . (٣) الديك البرى .

فصوبت ليلى أقواس ذوائبها ، وطال باع قيس فى هوسه ذرعاً . ورفعت ليلى النقاب عن خدبها ، فأسلم قيس صبره وعقله إلى الريح وأطلقت ليلى سهم الحب مسموماً ، فأرسل قيس على الفور صيحة الهلاك . وافترت شفاه ليلى مبتسمة عن الشهد ، فانهالت من عيون قيس درر الدمع . ليلى ندية الجبين بماء الشباب ، وقد طهر قيس بماء شبابها صفحات عقله ودينه . فكانت ليلى على رأس الحسن والدلال ، وأخذت تلعب برأس قيس دلائل الهيام . وموجز القول أنهما تمتعا كلاهما بما لذ وطاب على مائدة الحب . وما أشبههما معاً ببرعمة ورد ذات رأسين ، جمعتهما ألفة مشدودة الأواصر . وبعد أن قطفا جنى النظرات ، أخذا يستمتعان بعذب الحديث ما عن لهما ، لايقصدان إلى قص حقيقة ، لا ولا إلى شكوى من هم قديم أو حديث . بل كانت الغاية من الحديث نفس الحديث . فقد كانا طليقين من كل أسى ، غافلين عما يزخر به هذا العالم من صنوف الهم ، إلا هماً واحداً : هو التفكير فى أنه عندما ينتهى يوم الوصال ويفجؤهما الليل ، كيف يتأى كل منهما عمن سلبه روحه ، ومن لهما بتحمل البعاد ؟ وقد أفصح كل منهما ، دون أن ينطق ، عما يدور فى خلد الآخر . وجاشت نفس كل منهما بهذه الخواطر :

« أتنتحب أسى مفكراً فى مساء هذا اليوم ، ألا فليخلد هذا النهار يارب دون ليل ، فاحم يارب هذا النهار من ظلمات الدجى ، وليبق مشرقاً حتى يوم الحشر ، ولتصر الليالى نهاراً دائماً » .

هكذا فكرا ، ولكن متى غير الفلك من دورته ؟ فما لبثت الشمس أن غربت ، بعد أن كانت قد نشرت فى المشرق علمها الذهبى . فانفصل قيس عن ليلى ، وقد قاسيا ما قاسيا من هذا الفراق ، فامتطى قيس راحلته إلى المسكن ، وبقيت ليلى خائرة القوى فى أرض الوطن .

(٧)

ليـل المحب (١)

حين رمى المساء من طرف القبة الزرقاء كرة الشمس الذهبية بسهمه ، غابت فى ظلمات بئر الغرب ، فغشى الكون على الأثر ظلام شامل ، واختفى طاووس الشمس من حديقة العالم العتيقة ، وأخلى المكان لظلمات كأنها جيش من الغربان ، نشرت أجنحتها على قبل السماء ، وانتشر من بيضها على تلك القبة ما اتقدت به آلاف مشاعل النور ، فكأنه بيض مضىء من كافور . وكان قيس نائياً عن ليلى ، قد حط رحله فى منازل قومه ، فكان مقيما بجسمه فيها ، وروحه مع ليلى هدف لسهام الآلام . به عجز السليم ، وقلبه نهب الخواطر ، يردد اسم ليلى ودموعه تهمى ، مهيلا على رأسه عثير الهموم . يردد اسم ليلى وآهاته تشق طريقها إلى السماء . ومهما علل نفسه بالأمانى ، فقد ضل الحيلة فى طلب النوم . ولم يستقم له أمر على حيلة ، فظل يرقد ، ويجلس ، وينهض . وما إن تمس جنبه سريره حتى يهرب النوم من جفونه البليلة ، حتى لكأن فى كل خيط من خيوط فراشه مئات من الأشواك تنفذ فى جنبه . فإذا جلس رأسه على ركبته ، مستسلما بضع لحظات ، تراءت له كل صور المحنة . وإذا نهض يدير وجوه الرأى ، أخذ يقفز من مكانه أسى

---

(١) الأغانى ، طبعة دار الكتب ، جـ ٢ ص ٤٤ — ٤٥ ، وتزيين الأسواق للأنطاكى ص ٥٥ — ٥٥ .

مرسلا الصيحات . فى صدره هم أثقل من الجبل ، يتلوى به فى رقصة المكلوم . ولما أعيته الحيل فى الخلاص من الليل ، أرسل الشكاة من طوله قائلا : ياليل الهم ما أقسى ما بك من بلاء ، أيها الليل ! بل أيها التنين الأسود ؛ تنتشر مهولا على الأفق من بعيد ، فتطبق فكيك على الطيب والخبيث . أما وقد انتزعتنى أملى من شفاه الحبيب ، فقد وقعت منك بين فكى تنين . فأين الصبح ليشفينى برقياه من أهوال الليل ؟

هكذا كان شأن قيس من حرقة الفرقة ، منذ المساء حتى مطلع الفجر . وكذلك كان شأن ليلى فى منزلها مكلومة الفؤاد والهة ، تتذكر طيب صحبة قيس ، وترسل مر الشكوى من ألم الفراق . وما كان يعانيه قيس فى بؤسه من ألم كانت تقاسيه ليلى فى بعدها منه . فلم يغمض لها جفن على ذكره ، تطلق الدمع من عيونها قائلة : قيس كالطائر المحلق يخف إلى أى مكان يريد ، أما أنا فكفراش منزلى لا أبرح عنه خطوة ، وليس لى أن أذهب للقائه . ويالقلبى من الأسى إذا لم يعد ! ! فالرجال — أينما كانوا — مجدودون أما النساء فمهيضات الجناح ، فليس من شأن المرأة أن تتردد على بيت الحبيب ، وليست سيدة أمرها . والعشق الذى تطول به أعناق الرجال ، هو محمود من الرجال ، ولكنه من النساء عيب وخطل ، ولو كان فى قلبه جزء من مائة مما أعانى ؛ فالأمل فى وصاله قليل ، ولكن لم ينقطع وإلا فمرحباً بالبلاء الذى حل ، ولايبرح هذا الخاطر الطريف ذاكرتى .

وما زالت تردد تلك الأنشودة حتى مطلع الفجر ، وقلبها نهب لألسنة لهيب الحب .

وموجز القول فى أمرهما أنهما عاشقان وفيان ، كلاهما مبتلى بالفراق ، يقطعان بأرواحهما طريق العشق طوال الليل ، يعتلج الهم بقلبهما من التفكير : ماذا يلد الليل ؟ وماذا يكون إذا أسفر الصبح ؟

(٨)
عَقَبـــة

حينما أسفر الصبح عن أنفاس كأنفاس عيسى ، ونشر علم غلالته الصفراء ، وحملت أنفاسه مسكا خالصاً بثته فى الأشجار الخضر والزهور المتفتحة ، وبسط رايته المزركشة ، فنشر فى الأرض جواهر الأزهار من صدفية وزرقاء ؛ حينذاك تخلص قيس من فم تنين الليل ، وأمسك عن إرسال الآهات والزفرات ، وصاح للرحيل بناقته الأليفة الأسفار ، وسلك سبيله دون تفكير واع ، مرتلا فى طريقه أناشيد الشوق حتى ساحة خيمة المحبوب ، فكان باب خيمتها له هادياً من ضلال الطريق ، وحارساً لزمام ناقته من بعيد . وقبل أن يبصر أثر الخيمة أخذ يناجيها بهذه الكلمات : « ياقبة النور ومطلع الشمس ! فى ظلك شمس مخدرة . ليلى نور عينى أنت لها دونى حجاب . إن دموعى رطبة بالدمع كأردافك حين يبللها المطر ، فترحمى لبكائى ونحيبى ، واحسرى حجابك عن طلعة حبيبى . أنا منك أيتها الخيمة كأحد أوتادك ، لايحملنى على الانصراف عنك أن يصيب رأسى حجر . وأنا كأحد أطنابك ، مهما حاولوا لى وطيى فلن أبرح مكانى منك ، وكأحد عمدك دائم المقام لا أريم . قلبى ينوء بحمله بدون الحبيب ، فحطى عنه هذا العبء ، ويا ستار بابها لماذا تحاول جاهداً محاربتى ؟ ولماذا تستر عنى خدود حبيبتى ؟ وإذا كان جورك علىّ يمزق منى الجيب جفاء ، فإن

يدى متعلقة بأذيال الوفاء لك . لقد مضيت ليلة آمس محترق الفؤاد باكياً ، فيا ويلتى لو مر يومى مثل البارحة . أنا — كما تدرى — محترق الكبد عطشاً . وليلى ماء حياتى ؛ فأتح لى أن تجود ليلى على شفتى بقطرة تطفىء نار ظمئى . هأنذا من حبها فى نار ، وهى فى نشوة الطرب رضية الفؤاد ، هنيئة القلب » .

وعلى الرغم من أن قيساً لم يرفع صوته بهذا القول ، فقد سمعت ليلى نجواه تلك من خيمتها ، فشبت فى صدرها ناره ، واتجهت إلى الباب حيث وجهة زمامه ، فرأت قيساً فوق ناقته كأنه صبح أشرق لوجهها ؛ ونثرت جواهر القول من ياقوت شفاهها ، وجادت بشهد الحديث من خلية فمها ، وقالت : « أيها المتغنى غراماً بمحياى ، وفى قلبك لى حرقه الشوق ، قد احتل الألم قلبك ، واتخذ من صدرك منزلا ؛ أو تساورك الظنون أن طائر هذا الألم قد عشش بقلبك وحدك ؟ ألا فليبق بستان عيشك ضاحك الجنبات ؛ إن بقلبى أضعاف ما تعانى من ويلات ، ولكنى لست مثلك فى أن يباح لى حديث ، أو أن أنقل نحوك قدم المسير . فما تستطيع أن تبوح به من أسرار لا أملك أنا سوى دفنه فى سرائرى ، فللعاشق أن يدق طبول عشقه ، وأن يمزق من آلامه الثياب ، فى حين على محبوبته أن تبقى مؤتزرة بلباس الحياء . وللعاشق أن يجلو بشكواه عن أسى قلبه ، وعلى من هام بها أن تحفظ السر حبيساً فى الفؤاد . وله أن يطلق العنان بعيداً لصيحات آلامه ، وعليها أن تظل على الصمت صبورة . وله أن يبكى جهرة ، وعليها أن تكتم آلامها المبرحة . وله

أن ينطلق فى طريق الطلب ، فى حين تظل قعيدة بيتها وقد تصل آهات ألمه إلى العيوق ولاتلق لدى الحبيب جواباً ، وتظل هى منطوية تتعلل بأمل الوصال ؛ ولكن من يوقع على قيثارة العشق — عاشقاً كان أو معشوقاً — أن يرسل من توقيعه نفس الألحان ، إذ كلاهما يشكو بلحن واحد من الفراق ، والعيش على ذكرى الحبيب ودعائه .

وحين سمع قيس هذه الأنشودة استخفه طرب العاشقين ووله المحبين . ومزق ثيابه على ذوق تلك العبارات ، وسقط على الأرض يريد أن يظل دون قدمها كظلها ، وأخذ يفضى إليها بسر ما مضى ، ويشرح تباريح الليل الذى قضى . ولكن أصدقاءه جروا إليه من كل صوب ، مرحبين أيما ترحاب ، فآبت تلك الدرة الفريدة إلى خدرها ، وأمسك قيس لهذا عن مناجاة روحه ، وعاد محروماً من غايته ، جريح القلب مكلوم الفؤاد ، وآب فريسة الهموم والألم . وأخذ يردد فى نفسه هذه الشكوى :

« ألا أيها الأعوان والخلان ! اتركونى وإياها لحظة ، حتى أروى برؤية جمالها ، وأتمتع بلذة وصالها . وأية حال أسوأ من مكلوم الفؤاد ، أمضى ليله فى أسى الفرقة والانتظار ، يفيض ناظراه بدم قلبه ، حتى إذا أسفر الصبح رده الوصال طروباً ، ولكنه لم يجد مجالا للنجوى وشرح حاله لدى الحبيب ! بل أقبل عليه من بعيد قوم حالوا بينه وبين أعز مقصد لديه ، وعقدوا

لسانه عن الكلام ، وشدوا وثاق روحه دون الإبانة عن الآلام . فلا رأى أحد أمثال هؤلاء ! ولا أدرك منهم إلا أذيال الحسة يجرونها مدبرين » .

وأمضى قيس يومه على هذه الحال ، فى عجب من الهموم والأهوال ، وانتهى به الليل على هذا المنوال . وفى الصباح شد رحاله إلى منزل الحبيب ، فحث الخطا من جديد فى طريق ليلى . وأبصر بخيمتها خالية من الأغيار ، ليس بساحتها من حط الرحال . فقبل عتبة المكان ، وظل واقفاً وقفة الغلمان . ودعته ليلى من خيمتها وأجلسته مجلس الاحترام . وتمتعا بساعة وصال ، وفضّا المختوم من أسرار العشق . كلاهما معشوق وعاشق ، كالسكر واللبن كلاهما لصاحبه موافق . فكم أمالت ليلى برأسها فى صنوف من الدلال ، وبقى نظر قيس معلقاً بتلك الطاهرة الأذيال . فهذا قيس قد خط عذاره ، ولا تتأمله ليلى إلا وتنأى بها الخواطر عن مذهب العقل . وقد تحل ليلى عقدة من غدائرها فيسلم قيس دينه وقلبه . وقد يفتر ثغر قيس عن سحر التعبير ، فتجيبه ليلى بشهد القول ، تصوب ليلى إليه نظرات المحب الواله سهاماً ، فيحترق لها صدر قيس ويفيض قلبه سقاماً .

ومجمل القول أنهما صديقان توثقت بينهما أواصر الحب . لتلك الصدر فى مجلس الدلال ، ولهذا صدق العزم فى الصمود لما يلاقى المحبون من آلام . وقد أمضيا عمرهما — كما تعلم — فى العشق وشئونه ليلى لاتبالى بنصب الوجد ، وقيس لايخشى قرحة الملام . وليلى كنز راحته وسروره ، بمنأى عن ربح الدهر وخساره .

(٩)

الناقـــة وفصيلها (١)

العشق — أول العهد به — سرور وطرب ، أنشودته عازبة عن ألحان الأسى ، لامجال فيه لألم المغرم ، ولاشكوى فيه لجراح اللوم ، فهو كنز الراحة والرضا ، ينأى بخواطر صاحبه عن خير الدهر وضره ، كالخمر فى بدئها ليست إلا سروراً ولذة ، لاتثير اضطراباً ، وإنما تنقص الهم وتزيد المتعة ، وتمحو من القلب غم النهار والليل . فلا يستعصى على دوائها ألم ، ولاتثير إذ ذاك غول الخمار فى الرأس من سقم . وكان قيس طروباً من خمر العشق ، خالى البال من نوب الدهر ، لاهم له مطلع كل يوم إلا التفكير فى شأنه ، فكان يشد رحاله ، ويعقد الأحرام إلى حرم حبيبته . وعندما يحدو به الإقبال إلى تلك القبيلة . يخيل إليك لسرعة سيره أنه محمول على آلاف الأجنحة فى الهواء . يهش فؤاده لروح الوصال . ويسير سير الريح بدون عناء . فهو فى ذهابه سهم منطلق . لو صادفه فى

---

(١) قد تأثر المؤلف فى هذا الفصل من قصته بهذه الأبيات لعروة بن حزام :

هوى ناقتى خلفى ، وقدامى الهوى ... وإنى وإياهـــا لمختلفان
هواى أمامى ، ليس خلفى معرج ... وشوقى قلوصى فى الغدو يمانى
هواى عراقى ، وتثنى زمامها ... لبرق إذا لاح النجـــوم يمانى
متى تجمعى شوقى وشوقك تظلعى ... ومالك بالعبء الثقيل يدان

انظر ذيل الأمالى والنوادر ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٢٦ ، ص ٥٩.

طريقه من الأشواك والحصى ما يشبه مباضع الجراح ، وجدها ألطف من بساط العشب . وحين يرى أمامه التلال يتلو بعضها بعضاً كأنها من القيظ نار مؤججة ، تبدو له وكأنها قبضة من رمل دافىء .

وإذا مزقت كف قدميه قطعاً سهام الأشواك وسيوف الحجارة ، بدا له فى كل مزقة منها برهان على صدق عزيمته . فإذا ما عاد من لدن قبلة روحه ، فطريقه طويل كطريق الكعبة ، كل خطوة فى حساب خاطره المصاب ألف فرسخ يعود وعيناه تقطران الدمع . يجر خطوه ثقيلا كأنه ماء يصعد . فإذا وضع قدمه فى منزله قف شعره مما بقلبه من لواعج الأسى . وكلما التفت فى طريقه إلى الأمام مرة ، التفت إلى الخلف مائة مرة ، لعل آيباً يحمل من خلته بعض الطيب ، ويفضى إليه بخبر عن ذلك القمر الحبيب . فهو فى طريقه إليها كسيل ينحدر من قلة ، وفى إيابه كأنه الجبل مقلا . وهو فى ذهابه كالريح ، وفى أوبته كالماء الراكد .

وفى ذات يوم كان جسمه واهناً من الحمى ، فلم تسعفه قدمه بالذهاب ، فاستعان بمطية هى ناقة ذات جنين ، لاقرار لها بدونه ، فلو حيل بينها وبينه وهنت قواها عن السير . ففصل قيس الناقة من رضيعها ، وجد بها فى طريق من لدنها قلبه . وحين قطع بضعة أميال من الطريق ، استغرق فى تفكيره فى ليلى ، فأحست الناقة بضعف القيادة ، وثنت عنانها آيبة إلى رضيعها . ولما أدرك قيس أنها تقطع

الطريق إلى ولدها ، وعرف ما عرف من أمرها ، وأنها ذاهبة به إلى غير وجهته ، ردها إلى مقصده ، حادياً بأنغام الشوق . وبعد مسافة أخرى من الطريق وجدت الراحلة نفسها نائية عن ولدها ، فرجعت فى نفسها وله الحنين . وغاب قيس عن وعيه مرة أخرى ، وطارت به عنه سورة العشق ، وشعرت الناقة أن قيسا عنها لاه ، فرجعت فى طريقها من جديد . فلما أفاق قيس أعادها إلى الطريق مرة أخرى . وضاق قيس بأمرها ذرعاً ، إذ تكررت الواقعة أربع مرات . وأدرك قيساً حزن عميق على أثر التر داد بينه وبين الناقة ، فأبرز من صدره هذا السر الدفين قائلا :

إن ذلك الكنز الذى أحث الخطى قدماً إليه هو أمامى ، وذاك الفصيل مثار غم الناقة ومبعث راحتها قد تركته وراءها . فإذا سارت بى نحو مقصدى ، فهى دون مقصدها فريسة التباريح ، وإذا تبعتُها لغايتها ، شرق بغصصه ذلك القلب الجريح . فصحبتنا على هذا المنوال من المحال ، ورضانا كلينا خيال . فخير ، إذن ، أن أحل عقدة القلب وأتركها ، ليتبع كلانا الطريق الذى يحلو له .

هكذا قال ، وحل الرحل عن الناقة ، ففك رويداً رويداً وثاق قلبها . فعادت لعطنها ، وسلك هو وحده إلى ديار الحبيب . وبينما هو منطلق فى طريقه تغنى منشداً :

« تعلق بمن يهواك ، ودع جانباً أمر من ينأى عنك . ودم على طريق الوفاء ، وأغلق دونك باب الجفاء . ومن امتنع عن صحبتك

فى طريق ، فامح من طويتك كل أثر له . وإذا دفعك الحب إلى سلوك الطريق ، فحسبك خيال ليلى من رفيق . فاذكر ليلى وول وجهك شطرها ، وانشد الراحة فى حماها . فليس محموداً من عالمك سواها . وغيرها على قلبك غمة . فاقطع عما عداها حبل الوصال . وأنا بجانبك عن ذميم الخلال » .

وصاغ من هذا القول أنشودة تغنى بها ، راقصاً فى مسيره على حسب عادته كل يوم حتى منزل من هام بها . وهناك رأى بعينيه ما رأى ، وسمع من الأسرار ما سمع . وحين أقبل الليل عاد من ذاك المقام ، طيب الخاطر بما حظى من الوصال . عاد كئيباً وقد ذهب طروباً . ألا فليكن هذا حال العاشقين ! !

(١٠)

برهان المحبـــة (١)

من خط عنوان صحيفة هذه الآلام ، سطر قائلا هذا الكلام :

أرادت ليلى أن تسبر غور حب قيس ، وأن تقف على مايفعل الأسى بقلبه إن مالت إلى غيره .

وذات يوم اجتمع حسان الحى من غيد وشبان ، من كل فاتنة حين تضحك لفتى ترده عبداً دون بيع أو شراء ، وكل شاب لو ابتسم لفتاة أتت إليه خادماً طيعاً . وبينما هم على هذه الحال ، إذ طلع عليهم قيس المفضال . وعلى وجهه من غبار الطريق ، شجى الفؤاد من فراق الصديق . فقبل الأرض وحيا ، وخص بالتحية ليلى ، لكنها لم تلق بالا إليه ، ولم تشغل فى هذا الجمع به ، بل أرسلت ذوائبها دلالا ، وقطبت حاجبيها متغاضية . وأخذت تبسم لمن عداه ، وتخص بشهد حديثها سواه ، تدير عنه وجهها إلى من فى الجمع ، رقيقة الحواشى مع الحضور ، خشنة معه . فإذا وقع

(١) الخواطر التى ينظمها الشاعر فى هذا الفصل تدور حول رواية الأغانى (طبعة دار الكتب جـ ٢ ص ١٤ ، ٣١ ، ٤٦) أن ليلى أرادت أن تمتحن قيساً فى حبه ، فأسرت كلاماً إلى غيره بمشهد منه ، معرضة عنه ، فامتقع وجهه ، واشتد عليه ذلك ، فأنشدت :

كلانا مظهر للنـــاس بغضا ... وكل عنـــد صاحبه مكين

تبلغنا العيون بمـــا أردنا ... وفى القلبين ثم هوى دفين

نظر قيس على وجنتيها ، ثنت فى صدود عنه عطفيها . وإذا جرى لسانه بكلام ألقت بسمعها إلى غيره . ولما رأى قيس من ليلى هذا الإعراض تبدلت حاله ، وحلت زهرة غصن أمله الأملود ، فصارت ورود وجنتيه صفراً ، وصب من ناظريه الياقوت الرطب من الدمع ، فسال جواهر فوق صفحة الذهب من محياه . ورفع النقاب عن وجه بؤسه ، مردداً ألحان شكوى تنفذ إلى أعماق القلوب ، قائلا : أين من أمرى رونقه القديم وجناه ؟ وأين حرمتى لديك ومكانتى ياليلا ؟ فما أطيب العهد الذى كانت ليلى ترانى فيه بعين المحب ، هاجرة من أجلى صحبة الأغيار . كانت معى وكانت جليستى ، وكانت لاتضن على بعذ بحديثها . وكان من دأبى فيما مضى أن أسألها العفو عن المذنبين ، فمن لى — ولاذنب لى — بمن يطلب منها لى الغفران ؟ وحتى لو لم أجد شفيعاً إليها ، فحسبى دماء الدموع من شفيع .

فلما رأت ليلى ما عليه من هيام ، وسمعت ألحان أغنيته النافذة إلى القلب ، أقبلت عليه ورفعت له عن وجهها النقاب . وتبسطت معه فى الحديث ، وضحكت إليه ، وتلطفت له وقالت : ياملاك العشاق ، ويافريسة الآلام ! كلانا للآخر صديق حميم ، من بلاء العشق فى انتخاب وأنين . ونحن فرد واحد فى الحب والوداد . فلنا كلينا نفس الشأن فى فيض الخواطر وفيض صفاء القلوب . فإذا كنت قد غبست فى وجهك مقطبة الجبين ، فلاتظن أن ذلك

عن حفيظة لك أسرها ، فتلك العقد فى غضون محياى إنما كانت لكى تعقد عنا ألسنة الناس . فعشقك الذى هو خبر كنز للروح ، باق كالكنز خبيء عن العيون .

فلما سمع هذه البشرى قيس غاب على قولها عن وعيه ، ووقع على الأرض كالظل مغشياً عليه ، فمالت ليلى على ظله هيفاء ممشوقة القوام كاحدى شجر السرو . وطالت به الإغماءة قبل أن يتحرك ، حتى ظن أنه قد رقد رقدة الموت . ورشوا على وجهه من ماء عيونهم ، عل هذا الماء يذود عن عينيه النوم . ثم انفرط عقد الجمع وأسرع ، إلى الإنصراف ذوو الوسامة من الحضور ، فتيانا وفتيات وجروا مسرعين يقعون فى عدوهم وينهضون وخشية أن يتهموا بقتله ولوا هاربين . ولم يبق من الجمع غير قيس وليلى . فبقى نائماً وعلى رأسه ليلى ، كأنهما القمر والثريا . وظل كالمحتضر من حرقة الهوى ، واهن القوى عن تحمل العيش مع محن الشوق ، حتى فتح جفنيه حين ولى النهار ، فوقع ناظراه على جمال ليلى ، وكانت تبكى من ناظريها دماً يسيل مدراراً ، وسألته قائلة : يافريداً فى المحبين ، وياحديث مجمع العاشقين ! من أين لك هذه الإغماءة ؟ ومن ذا سقاك هذه الخمرة التى غبت بها عن الأحياء ؟ فأجاب : من كفك تناولتها ، وقد سقيتنيها على عمد . فقد صددت عنى بوجهك أولا ، وأمسكت عن الكلام معى فماً مقولا . على أنك كنت تصافحين الآخرين ، وتقبلين عليهم بمحياك : وكلما أقبلت

عليك أشحت عنى ، حتى رددتنى أحقر الأدلاء . وأخيراً عدت بلطفك إلى ، وأريتنى الجم من وجوه الدلال . وعهدى بك تمتعينى من خمر وصالك بالدرد والصافى ، ولم تكونى لتضنى على بجرعة ، وقد صغت من بيانك سلافا يطيح بالعقول ، فثملت بها كل الثمل أيتها الفاتنة ، فإذا سقطت دون وعى فما لى حيلة ، فلست إلا آدمياً وما أنا بحجر صلد .

ولما سمعت ليلى منه قصته ، قالت فى عناية وتدلل : يامراد روحى وقوة جسمى الواهى ! إن الألم الذى تعانى ، واواعج القلب التى تقاسى ، لهى دون ما فى فؤادى من تباريح تعجز الوصف

فعاد قيس على ذوق هذه الكلمات مسروراً ، وانقلب إلى قبيلته جذلا مقرور العين .

(١١)

عهد الوفاء (١)

رأس الفاتنات الغيد فى كل الآفاق ، الفريدة فى الحسن كأقواس حاجبيها ، إذا برزت فهى دنيا من الدلال ، وإذا احتجبت فهى خلف ستار الأسرار ، ريحان حديقة الأمانى ، وأوراق ورد بيع الحياة ، ملازمة مصلاها ، شأن الزاهدين . وهى مثار العرب وفتنة العجم ، لها من حفيف الوشاح ووسوسة الخلخال ، موسيقى وجد وطرب ، ومن قلادة عنقها وحلية أذنها ، شرك العقل وخدعة الفؤاد . تلك صورة ليلى الفاتنة . ولما رأت فى قيس الوفاء وعرفان الجميل فاض عن القياس عشقها له ، ولم يخالجها فى تفانيه فى حبها أدنى شك ، ولم تكن بحاجة فى هذا إلى دليل .

وعندما عاد إليها قيس فى يوم آخر ، كانت قد امتلأت جوانب روحها شوقاً إليه ، وقفز قلبها من مكانه ببسمة الرضا له ، وفدته بالروح لقاء وفائه ، ونأت معه عن الجفوة والإعراض ، وتحدثت عن عقد عهد الوفاء . ولكى ترضيه ما استطاعت ، قالت له هذا العهد الوثيق : قسما بذات الله سبحانه ، مدير الأفلاك فى مداراتها ،

---

(١) فى الأغانى حديث ذلك العهد الذى أعطته ليلى قيساً ، إذ قالت له بعد أن خبرت حبه لها : « أعطى الله عهداً لا أجالس بعد يومى هذا رجلا سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره على ذلك » : الأغانى طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٦ .

ومضيء هذا السقف الرفيع بنور القمر ومصابيح النجوم ، وكل ما تبدىً منه من طرائف المعضلات كان غاية من اجتهدوا فى حلها فعجزوا دون الغاية ؛ قسما بذوى الأبصار النيرة التى تكشف بأشعة نظراتها عن مخبآت الحقيقة فى لوح الوجود ، لتصل بأصحابها إلى كنه كمال الله ؛ قسما بصدور العارفين القادرين على معرفة الأشياء ، الواقفين على كنوز الخليقة ، ورموز الحقيقة ، من لايستعصى عليهم حل المعضلات ؛ قسما بكل غريب مهجور ، نأت به الدار عن الحبيب ، لا أمل له فى ليل همومه ، ولاشفاه تسوق له خبراً طيباً ، قد عانى ضربات سيف الهجران ، وتجرع كأس الهموم ، قسما بكل حبيب فاتن الحسن ، شبيه القمر جمالا والحور فتنة ؛ لأربطن قلبي لقيس بحب كحبي لنفسى ، وأقطعن صلتى بسواه ولأبذلن الروح دون عرضه لئلا يمس بسوء . قسما بكل ما يستصوب الحلف به من عاقل ، أن يظل حبى لك — ما اتسع به المجال — مستعصياً على كل نسيان ، وأن يظل ذكرك أنيس روحى ، ماسمح لى القدر بالعيش ؛ وإن ضحيت بالهموم من أجلك فى هذا العالم ، وظللت محرومة من نعيم الدارين ، وإن آتنى منه آلاف الأعباء ، فلن أصل بغيرك حبلى . ولو منحنى الحد الخيرة فلتكن أنت حظى من العالم . ولن أجلس أو أقف مع أى خبء لايستقيم لك معه أمر . فلا صاحبنى شيء بدونك ، حتى نفسى : ولا كان لى عيش بدونك . وإلى أن ألقى الوفاة سأمحو من لوح وجودى مشاغل الكونين . وبهذا العهد الذى أرتبط به معك قد

قطعت كل عهد مع من عداك . فلا يكن مظلما بحر الوفاء ، وكفانى ما فيه ذخيرة لقيامتى .

وبعد أن أحكمت ليلى وثاق العهد ، جاست به طريقاً مظلم الأرجاء ، وفصلت ما بينها وبين القريب والبعيد ، وتركت كل حمل ذاك العبء ، وولت وجهها عن الخلق جميعاً مقبلة على ذلك الحبيب . وحلت جيدها بقلادة الصديق ، وسحبت أذيالها عن الأغيار .

وعندما وصل قيس من طريقه غدوة ، عقل ناقته ببابها ، وقص عليها عناء الليل ، وبسط حلاوة الوصال نهاراً وشكاية البعاد ليلا وبقى آمنا منفرداً بها حتى المساء . ولما رأى قيس مدى جهدها فى الوصال ، وبرها بالعهد ، زاد وسواس حبه ؛ وعاقبة الوسواس الجنون . فصار مجنوناً خليع العذار ، مشتهراً باللقب فى كل مكان ، وبه معروفاً حتى نهاية أجله . واستبدله فى كتاب الدهر من اسمه قيس . فإذا خطر فى محفل نادوه بالمجنون . وكان يطيب خاطراً بهذا اللقب وكان لحنه على اسمه حلواً لا تبلى جدته .

وفى باب الطرائف والملح أى إنسان أفضل ممن أسام سرح العشق ؟ وأى اسم خير من اسم العاشق ؟ نعم ؛ اهجر — أى جامى ! — كل عمل لا طائل تحته ، لتحظى باسم العاشق .

(١٢)

قبيلة قيس تكشف المكنون من حبـه

من جميع أمور هذا العالم ليس هناك ما هو أفضل من أمر العاشق ؛ فقد باع متاع العقل ، وصار طروباً لسماع الألحان ، لايقر له قرار . فحاله حال مجنون : حيناً يقبع فى غار الهم ، وحيناً يتسم قلة الحيل . وهو أمين خزائن الإفلاس ، وهو رهين أسى خواطر الوسواس . يقنع فى القفر بظل الطلح ، هائم فى هذا العالم وادى الأذلاء . وهو رفيق المترنمين بألحان الأسى ، صديق الأحرار الزاهدين : سمير الظباء فى الصحراء ، ونجى البلابل فى هيامها . قد أنهك الهوى قواه ، وبليت فى طريق الحب نعلاه . قد حطم على العقل زجاج وكره الهش ، واطرح ظهر ياحب شراك العقل . رفيق قطعان حمر الوحش وأسراب الظباء ، وكأنه واحد من قبائل الجن .

وتلك حال المجنون أسير ليلى ، برحت به جذبة العشق من ليلى. واطرح وراءه قواعد العقل ، لايجد من راحة على سريره بياتاً ، ولايراه أحد لانهاراً ولا ليلا ، مزق حبل كل وصال ، وطوى كشحاً عن الناس . فإذا لمح من بعيد صديقاً هرب منه ونأى . وإذا تقدم إليه أحد أقاربه نحاه عنه بعيداً . وحين رآه القوم على هذه

الحال ، أطلقوا ألسنتهم فيه بالطعن قائلين : ماذا نفره منا ، وأى ملال أصابه من قومه ؟ لقد سل سيفاً وقطع به رحمتا دون رحمة .

وذهبوا إليه ، وضربوا حوله حلقة كهالة القمر ، وبحثوا عن دليل على حاله ، وجسوا نبضه . وتجاه صمته ربطوا عن الكلام لسانهم . فلم يحل عقدة عن السر ، ولم يضرب نغمة على وتر .

وكان له صديق فى تلك القبيلة ، له عليه أياد جميلة . حلو الشمائل ، فصيح اللسان ، ضارب على أوتار العشق بأطيب الألحان فقالوا له : على الرغم مما بذلنا فى معرفة حال قيس ، قد ظل كاليراعة لاتسلك الأنفاس فى عقدها . وفى زفراته آلام دفينة . فانفث فيه من روح وفائك ، علك تجد صدى لمسعاك .

فتعقب ذلك الصديق أثره بضعة أيام بغية الوقوف على حاله ، وأخيراً قال له : أخى ! يكاد ينفطر لما أنت فيه من غم قلبى ، وتكاد لما تعانى من هم تحترق روحى ، ويلتهم لهيب الأسى مخ عظامى . فلم قطعت دونى حبل الوفاء ؟ ولم الهرب من صحبتى ؟ وقد كنا فيما مضى أخلص الأصدقاء ، أليفين لانفترق كالألف واللام ؛ فاشرح ، منصفاً ، ما فعلت بهذه الصداقة ؟ وكيف أضعت قاعدة الوفاء ؟ واجلس لحظة نتحدث معاً عن هذا السر ، ونستعيد ما مضى من حال . فإذا لم يبح الصديق بالسر ، فقد تجردت طويته من طيب الصداقة . وفى خلوات الأصدقاء المخلصين يبين مهندس الصداقة عن سر بنائها .

فلما سمع قيس منه ذلك اللحن أخذ يتوجع توجع العاشقين ، وقال : أي صديقي الحميم ! وموضع سرى ! إن أمرى صعب المركب ، وأنا منه افى خطر الهلاك . فليس هو مجرد شجى فادح الثقل ، بل إنه لأثقل مائة مرة من الجبل . وإذا لم يزح عن كاهلى هذا العبء ، فأنا ، لاشك ، قاضٍ نحبي .

فسأله : أي حمل هذا ؟ وأي حبيب أثقل به فؤادك ؟ فأجاب : « ليلى » ؛ وسقط مغشياً عليه على نطق اسم تلك الحسناء ، فتعطمت عن الرؤية عيناه ، وعن السمع أذناه ، وعن الحديث شفتاه ، ونفض يده من الكونين وقتاً طويلا ، بقي فيه بين الحي والميت .

ولما وقف ذلك الصديق على حاله ، ورأى ما وصل إليه من كمال العشق والوفاء ، على أي أمر أمره وأي حمل حمله ! كما اكتشف اسم عشيقته ، وعرف من هي . وقد تأثر من أجله أبلغ تأثر ، ولكنه أفضى للآخرين بسره ، ومقصوده أن المطببن يتيسر لهم — إذا وقفوا على سر الداء — تشخيص الدواء .

(١٣)
نصيحة والد قيس له(١)

حين علم والده المسكين بخبره ، لوى عنانه نحوه فى سرعة الريح ، واحتضنه إليه وقلبه يغلى بحبه الأبوى ، وقال له : ياروح والدك ! على أية حال أنت ؟ ولم ألقيت بنفسك فى الوبال ؟ خبرت أن قد سلبت عذراء من إحدى القبائل قلبك . وأنا معك على وفاق فى أنك فى طريق طالما سلكه غيرك ، إذ العشق إحساس نبيل . ولكن ليس كل إنسان أهلا لأن ينال حبنا . ولايليق أن يجتذب قلوبنا كل منظر جميل ، بل يجب أن تكون المحبوبة من طينة طيبة ؛ ولاينبغى أن يكون العشق لمن لم يطب أصله . وليلى — وإن تراءت لعينك عزيزة القدر — ليست بالنسبة لك إلا أقل الجوارى شأناً . ولايصح فى مذهب العقول أن يشغف المرء بكل جارية : فأنت شبيه « الخضر » من علية القوم ، وهى فى النسب من خضراء الدمن . والعالم كله دون أقدام « الخضر » ، وأين من مكانته خضر الدمن ؟ فبالله إلا

---

(١) معظم خواطر المؤلف فى هذا الفصل لها أصل فيما روى من أخبار قيس ، فقد كان أهل ليلى دون أهله ، وكان بين الحيين عداوة ، وطالما وجه النصح إلى قيس بالسلو عنها ، كما يروى فى شعره :

لقد لامنى فى حب ليلى أقاربى   أخى وابن عمى وابن خالى وخاليا
يقولون ليلى أهل بيت عداوة   بنفسى ليـلى من عـدو وماليا

الأغانى طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٣٨ .

رددت عنها قلبك ، وقطعت منها حبل أملك . وهي كالحسك الجاف ، وأنت وردة ، وقدك شجرة سَرْوٍ نضرة . وهي غراب وأنت تدرج مدل بجمالك . وأين من الحسك الورد والسرو ! وأين من الغراب التدرج ! ولاينبغي أن تجعل نصيبك من حديقة النساء إحدى الشقائق تكوى بنارها قلبك ، فالحديقة مليئة بالورود والرياحين ، فمتّعْ قلبك بالريحان ، واقطف من الورد . وخذ من الورود المئات ، واجمعها فى يدك طاقة فحتام يبقى قلبك إذن معلقاً بوردة واحدة ؟

ومن المقرر المعلوم كذلك أن حى ليلى معنا فى نزاع دائم ، ولايلتقى بنا إلا للنزال ، فنحن معاً كالماء والنار . كل منا يلوى عنانه عن الآخر . ولنا فى ميدان الوغى جولات خضب كل منا فيها بدم الآخر سيوفه . فخبرنى : أى خير يرجى فى صداقة من يتحدى بالعداوة ؟

فقال المجنون لوالده بعد سماعه هذه النصائح : أيها الناصح الشفيق ! لقد نقش على صفحة قلبى الفطن كل ما قلت من لطيف الحكم ، ومن در النصائح المثقوب ، ولن أتوجه إليك فى ذلك بعتاب ، ولكن عندى لكل ما قلت جواب :

قلت : إنك مفتون بالغرام ، وقد شحب لونك من جذبة العشق . نعم ، فأنا لا أعيش إلا للحب ، وهو شغلى فى هذا العالم . وحاشا أن أكبح جوادى عن هذا الطريق ، وإذا لم أحى للعشق فلا حييت ! ومن لايمارس طريق العشق فهو فى مذهبى لايساوى

حبة شعير : وفى العشق خلاص قلب المرء من دوران الدهر (١) المديل .

وقلت : لايليق الهيام بحسناء لم يطب أصلها ، والحسان طينتهن جميعاً من الماء والتراب ، إذا صفا القلب منهن فقد طاب (٢) الأصل فمصدرهن جميعاً الحسن الأزلى(٣) ، ووصلهن هوالعيش الخالص . وهن مرآة ذى الجلال (٤) ، وعنوان صحيفة الجمال . وإذا لم يشرق ذلك النور الإلهى فى طينة الجسم ، فلا يغترن مخلوق بمظهر الحسن الذى لاطعم له ولاسلطان على القلب . لا ، ولاينقص الحسن إذا ذاك الجسم ولايسمو بالروح .

وقلت : ليلى سامية الحسن ولكنها دوننا فى النسب . وما يفعل العاشق بالنسب ؟ والعشق لايستعر من شيء . وكل من وقع صريع العشق فهو ابن القلب ، وليد العشق ، قد قطع نسبته بالماء والطين ، وصار مرعاه روضة الروح والقلب ؛ ولن يعرف لنفسه أباً ولا أماً ، وقد تحرر من العيوب بل ومن الفضائل أيضاً .

وقلت : اثن عنانك عن هواها ، وافرغ خواطرك من وفائها .

---

(١) يفكر المؤلف فى الحب الصوفى ، راجع المقدمة ص ٥ — ٦ ، وكذا الفصل الأول من هذه الترجمة .

(٢) أى لا بد مع الحسن فى المظهر من جمال المخبر ، إذ الجمال من أوصاف الروح ، وهذا رأى أفلاطون راجع كتابى : الحياة العاطفية ، الفصل الثانى من الباب الثالث .

(٣) راجع المقدمة ص ٥ .

(٤) المقدمة ص ٥ —٦ ، وللاستزادة راجع كتابى السابق الذكر .

وليس من شأنى ترك هموم العشق ، وليس لى فى الأمر من اختيار فقد كتبت على صفحة روحى بضعة الحروف التى تكون الوفاء . فهبى جرحت بأظفارى الروح ، فأنى لى بمحو كلمة الوفاء ؟ ومن ومن الخطأ محاولة محوما خط على قلوبنا من حروف هى الصواب .

وقلت : لاينبغى أن يقتصر المرء من نصيبه فى حديقة الدهر على وردة وكفى . وليلى التى نسميها طيبى ، حسبى من هذا البستان . فهى روحى وأنا لها جسم . وهى وجودى وهى حسبى . فإذا نأى كلانا عن الآخر فلا أمل لنا فى هذا العالم . يطيب سروراً خاطر كل منا بحبيبه ، فلا كان لنا فى هذا الوجود سرور سوى ذاك السرور !

وقلت : إن لنا مع هذه القبيلة آلافاً من صنوف المكر والحيلة. وما شأنى أنا وإحن الآخرين ، وكل صدرى جراح من طغيان الحب ؟ فإذا أرسلت ليلى من أجلى زفرة حب ، فكيف أشعر بالبغض لقبيلتها ؟ وإنى لضائق الذرع بكل ما فى العالم ، وفى حرب مع من عداها ، وإذا لحقها من صلحى مع نفسى ضيق ، فسأشن بنفسى على نفسى الحرب .

وحين رأى الوالد المسكين قيساً على هذا الحال ، وسمع منه عبارات عشقه ، علم أن أمره شديد ، وأن ركبه فى طريق الفناء ، وأمسك بلسانه عن سوق النصائح . وتركه فاصما عنه عرى وصاله . وفوض — من فرط رفقه به — أمره لعناية الله .

(١٤)

نصيحة العامريين لوالد قيس بتزويجه بأخرى (١)

عندما شق قيس عصا الطاعة (٢) ، ولم يعد على نصيحة والده إلى المنزل ، مثل أعيان القبيلة أمام ذلك الشيخ ، وقالوا عن حسن رأى وتدبير : أيها العامرى وأنت للكون عمار ، وملكك بك معمور وأنت فيه سعيد الطالع ؛ ولدك نور أبصارنا ، وهو راحة قلبك المجهود . وهو قرة عيوننا ، وأرضنا به بستان مونق . نحن بمثابة الحبة السوداء فى نار حبه ، فحتى متى نرضى أن يبقى فى تلك النار . وما دامت طينته من الحب والوفاء ، فذلك مقدر عليه . وإذا أريد القيام بشرط الولاء ، لمن يقع فى مثل ذلك البلاء ، فطريق الخلاص إما فى سفر ، وإما بحب غادة أخرى . وإنه لصغير السن فلا يصلح للسفر ، وماله به يدان . فخير أن نقرنه فى عقد نكاح بغادة أخرى قد شهرت فى العالم بجمالها الفتان ؛ وأن نكل إلى همتها أمر صلاحه . فربما تسلى بها وفرغ من هيامه بليلى . فيشمر فى خدمتها عن ساعد جده ، ويقصر لسانه عن قصة ليلى .

فراق فى خاطر الأب الشيخ ما أبدى هؤلاء العقلاء من لطيف

---

(١) قارن هذا الفصل بما فى الأغانى طبعة دار الكتاب المصرية ج ٢ ص ٤٢ — ٤٤ ، ٨٢ .

(٢) فى الأصل حينما مزق الجيب والذيل .

التدبير ؛ فدعا قيساً ، وأتوا به وأجلسوه فى حضرته . وقال له . يامن بلك أنا سعيد الحد ، وأنت لعينى إنسانها . فبفضلك ترى عيناى ، وبلك يشتد ساعدى ، منك يستمد طبعى السرور ، وينشرح صدرى ؛ والعالم من فراقك مختلط المعالم . فعد إلى مسكنك كالطائر إلى عشه . وإذا لم تجد فى المنزل القرار ، بحثت لك عن قرينة حسناء تشاركك الدار ؛ حتى تطيب بدلالها صحبتك ، وتثنى عنانك عن الضلال . فحين تضع فى المنزل قدمك فتستقبل هى قدمك ، كما تقبل لمقدمك عتبة الدار . وإذا خرجت متهادياً فى خطوك ، مرغت رأسها على قدميك وعلى أذيالك . ولعمك الذى خلت صفحة عيشه من سواد الهموم غادة هيفاء فى الحجاب ، تخجل القمر جمالا ، نقية اللون كالدر المكنون . فمها كحقة الجوهر ، ضيق يفوق الوصف . عذب حديثها أخ الشهد ، وينفح مرقد قدها الأهيف بروح العبهر . تشع النور على العالم . وإذا بدت قامتها قامت قيامة الناس ، وقد طبقت سمعتها الآفاق ، وثروتها كثروتك تعد بالآف ، يخرج من حساب العقل مالها ، وأكثر من مالها جمالها . وهى فى الحسب ندك ، وفى الأصل والنسب كفؤك ، فلن يعلق بأذيالك من الاقتران بها عار ، ولن يرمى الطاعنون بسببها منزلك بأحجار سبابهم ، وياللخسارة أن لم يجد بعد مثل هاتين الجوهرتين النقيتين سعادة الوصال والصحبة . وأريد أن تكون لك قرينة ، وستكون طيبة الخاطر على حبك وبغضك . وستزف إليك درة نيرة غير

مثقوبة . فدوما معاً صديقين كالقلب والرو ، مثل اللوزة . قشرة واحدة ولب ذو شقين . وكونا صاحبين رفيقين ، فى أمان من كيد الحسود وطعنات الواشين .

وعندما سمع قيس هذا الحديث انفجرت شفتاه عن شهد القول ، وفاض من فمه جواهر الكلم ، كما فاضت عيونه بجواهر الدمع . وقال لوالده وهو يبكى : ياأصل وجودى ، ومن تراب أقدامه لرأسى تاج ، ومن طينتى من صنيعه ، ورحى الصافية من فضل تنشئته ، أنا فى هذا الدير كعيسى بن مريم ، فى طريق التجريد (١) طلق المسير . أنا مثل الشمس منفرد من هذا وذاك ، مقطوع الصلة بالنساء والرجال . لى قلب نافر من الدنيا . وخير لمصاب بالبلاء مثلى أن يبقى مجردا من الزواج ما عاش تحت قبة السماء . وما أنا إلا مجنون (٢) مثالى الغاية ، ومالمجنون مثلى والزواج ؟ وقد ألقيت عن

---

(١) يتكلم المجنون هنا وفى الفصل السابق بلسان الصوفية . وللتجريد عندهم معان كثيرة على حسب المقام ، فمنها تجريد النفس عن الميل إلى شهوات الدنيا ودعوات الهوى ، ومنها التجريد عن الفتور فى السير والالتفاف إلى الغير ، ومنها تجريد النفس عن رؤية تأثير الكائنات ونسب الأفعال إلى المخلوقات ومنها التجريد بمعنى العزوبة وهو المراد .

راجع : الكمشخانوى جامع الأصول ص ٢١٤ — وكتابى : الحياة العاطفية ، ص ١٩١ — ١٩٢ هذه المعانى الصوفية .

(٢) يقصد بالجنون هنا التسامى بالروح فى سبيل القربى عن طريق الوجد والدهش يمان بمعانيها الصوفية . مرجع الكمشخانوى السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

كاهلى الخاص بى ، فلماذا أشغل بعبء الآخرين ؟ ولا أهل لرفقتى سوى نفسى ، فكفانى بوحدتى رفيقاً .

فلما وعى الأب المسكين طرفة جوابه ، غاب عن وعيه . ثم قال له : إنما أقصد من جعلك رب أسرة إلى نجاتك ، فتخلص بذلك من ليلى وعشقها . فوثق صلتك بحبيب آخر ، يرحل من قلبك طارق عشق ليلى . فكما أن الحذاء الواحد لايسع غير قدم واحدة ، فليس فى القلب مكان لقلبين وليس فى البستان مأوى لخصمين ، فإذا أقبل الصقر رحل الغراب .

فأجاب قيس : أبى ! وماحيلتى فى الأمر ؟ وماذا يفعل من فقد القلب بدلال الحب ؟ هيهات أن أقطع صلتى بليلى ! . هيهات أن يميل القلب حب ليلى ! فهى نقش على فص خاتم قلبى ، وهى بذرة منبتها فؤادى . وليلى الروح وأنا لها جسم ، وليلى طائر وأنا للطائر العش . ومادامت الروح فى البدن ، فأنا لليلى وليلى لى .

ولقد طوفت فى العالم ، ورأيت كل ساكنيه . وكل شىء قابل للفناء ، وإذا نظرت إليه بعين الاعتبار وجدت له بديلا ، إلا ليلى حين لا أملكها ، فليس لها من بديل . فلو اخترت بديلا لمن لا بديل له ، فلن أجنى من وراد ذلك غير خلل فى الدين والقلب .

فلما رأى والد قيس أن ابنه لن يتخلص بحال من ربقة حبه ، أخذ يدعو له عن طيب خاطر ، راضياً بما ساق له القدر من بلاء .

(١٥)

الوشـــاية (٢)

متى استقامت أوتار عود العشق وأطلقت أنغامها بدون مضرب الفتنة والوشاية ؟ وكيف تطلق ألحان قيثارة دون أن تنالها غمزات يد اللاعب ؟

فقد ألم فضولى متتبع للعيوب بقصة قيس وابنة عمه التى جرت فى مجلس الأحباب والمحارم ، ووقف فيها على بؤس قيس وسوء حاله ، فأسرع إلى ليلى يحمل إليها الخبر قائلا :

قد بردت حرارة عشقك فى قلب قيس ، واتجه هواه إلى سواك ، وسوف يطرب بوصالها . وليس فى شرعة الإنصاف الوفاء لغير ذوى الولاء ؛ وما جزاء الجفاء غير الجفاء . وقد تحول عنك نظره وانطفأت من قلبه تلك الجذوة . وحدث الأمر الجلل ، ونفق الحمار فى الطريق وسقط الحمل . وقد أتى إليه والده وأخذ بيده ، وعقد نكاحه على ابنة عمه . فأصرفى أنت كذلك عنه أنظارك ، واختارى حبيبا تعقدين به روابط هواك ، ليتحمل من صميم فؤاده عنك الآلام ، ويقوم لك بما قصر عنه سواه (١) .

---

(١) تكثر فى أشعار المجنون فى الأدب العربى شكايته من الوشاة ، راجع مثلا شرح ديوان المجنون لمحمود كامل فريد ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) هنا فى المخطوطات التى راجعناها تقديم وتأخير فى الأبيات ولكنها تختلف فيما بينها زيادة ونقصاً .

فلما سمعت ليلى هذه القصة ، ملأ عليها الهم جوانب نفسها ، وخارت قواها فلم تحرك يدا ولا رجلا ، وشربت الثمالة من دن الحمر . وقالت : أيها الحبيب الغادر ، ماذا أتيت ! وما فعلت بقلب العاشق المبتلى ؟ — واستمرت تخاطب قيسا خطاب الغائب : لقد غررت بى فى الصفقة فجريت وراء قمحك ولم تبعنى غير الشعير وما هكذا يفعل الأصدقاء ، وليس هذا شأن المحبين . تعلقت بمن هى أجمل منى ، واستراح خاطرك إلى سواى . فقد أحسنت ، إذن وأحسنت ! وبارك لك الله ! . ولتبق النار التى أشعلتها بصدرى عالية اللهيب ، ولتضيء تلك النار مجالس أنسك . أريتنى فى البدء قمحاً حتى قوى عقد أملى ، ثم نكثت العهد غير حافل بليلى وما بها . لقد وضعت لى أولا من وفائك أحبولة ، ثم ما لبثت — حين استرحت إلى — أن أدبر عنى ريح إقبالك. جرى ريحك بها تشتهى فلن يبالى الريح بما أضرم فى قلبى من نار .

وظلت ليلى هكذا محترقة الفؤاد ، حتى أسفر الليل البهيم عن الصباح ، وأخذ قيس طريقه إليها كعادته كل يوم ، فقالت ليلى لحرسها فى غضب العاتب : شددوا الحراسة ، وأرهبوه بالسيف والسنان ، ولاتخلو له الطريق إلى الحريم ، حتى يمضى لسبيله ، ويذهب فى أعقاب صديقته . فلا يليق بمثله أن يلج لنا حرما ، وليس هو بأهل للقائنا . فهو فى الليل مع الأخريات وفى النهار معنا ، ولم يكن معنا نقى السريرة .

ولما رأى المجنون هذا الجفاء ، اخذ يصيح هنا وهناك . وابتعد باكياً منتحباً ، ولوى مكروباً عنان راحلته دون حرم منزلها ، قائلا : واحسرتا ! وما أعظم آلامى ! وما أنا إلا تراب فى طريق الخوف والرجاء . قد أضحى حبيبى صديقاً لحسادى . وما أنا إلا فريسة هم لا أستحقه .

ولما لم يجد من الصياح جدوى ، سجد لله مردداً فى سجوده : حاشا يارب أن يقع إنسان فى بلاء مثل بلائى ، أسيراً فى أحبولة الشقاء ، محروماً من حبيبه ، مردداً أسى الحسرة فى نفسه . حق لى الآن أن يسيل دمعى دماً ، إذ يصبح هذا القمر أنيس الآخرين — وفى كل لحظة كنت أغذى أملى وأنا أغذ إليها السير ، ولم يدر فى خلدى أنى ارتكبت ذنباً . ولم يكن لى من رفيق فى الطريق إليها غير دموعى وآهاتى ، مقدما بين يدى الأعذار لما لم ارتكب من جرم . ومن يكن جرمه مثل جرمى فكفى ذلك الجرم دليلا على براءته ؛ وحاشا لو امتلأ الفلك سحبا ، وأمطرت فوق رأسى سيوفاً ، أن أقطع من حبيبى حبل الوصال ، أو أن أطرق باب حبيب آخر . وحين أصير إلى باطن الأرض ، وأخلص من دنايا الجسم ، ستبقى روحى مصابة دون الأرواح ، تبثه نغمات الشوق ، وسأمزق عن قالب جسمى الكفن ، طالباً النجدة والغوث ، وسأسلك طريق الوفاء لها حتى الحشر ، وأموت كل لحظة على غبار أقدامها .

هكذا كان يتغنى المجنون ، بتلك الأغنية اللطيفة كالدر المكنون ،

فمن بعيد سمعه صديق له عهد بالعشق وحرقاته ، فعاد وأخبر بما رأى ليلى وأخذت تقطر عيناها دموع الدم ، وتوثق عهد العشق من جديد وندمت على فعلتها تلك . وتغنت كذلك بهذه الأنشودة الآخذة بالقلوب : من يلق بسمعه إلى الحاسدين فقد نسى عهد الوفاء . فالحاسد ينتزع من النفس الحبيبة هيامها بأحبابها الخلص . فيارب لاكان الحاسد إلا مثقل العبء وكاسد التجارة . وبعداً للحاسد من بيننا ، ولتعمه عنا كوارث الدهر ، وليقطع منه عرق الوتين ، لأنه قطع نظرى عن مشاهدة وجهك . قدقلت لنفسى : سأحاول الصبر على نأيك ، وأتجرع كأس سم الفراق . ولكن أى مجال للصبر حين يبرح الشوق ؟ وصبرى بدونك كالسحاب الأسحم يصب الدموع فى آهات برقه المتوالية . فانهض ماثلا إلى ، فإنى على قلق بدونك ، خجولة من فعلتى ؛ حتى أقدم إليك الروح عن عفة وطهر ، وأقبل يدك طالبة الصفح .

عندما نظمت ليلى فى سلك القول هذه اللآلىء النيرة ، وتفتح قلبها عن برعمة الألم ، غطت القلم فى دم القلب السائل من العين ، وخطت به فوق رقعة من الورق ، وطوتها وأعطتها رسولا ، ليسلمها إلى رأس العاشقين . وعندما قرأ المجنون الخطاب ، مشى إليها على رأسه كقلمها ، وعقد الإحرام لحرم خيمتها ، ومثل على قدمه من جديد كأنه عمود خيمتها . وكان فى الطريق خفوق القلب من هم الوساوس ، وقطع كذلك طريقه حتى وصل .

(١٦)
بذر الحج

عندما انقض باز الفجر على عش غراب الليل (١) ، وصوب سهامه إليه ، طار ذلك الغراب عن عشه . وحين انجلى غراب الليل اسرع قيس يقطع بمقراض قدميه حاشية الطريق . وما إن قطع منه قليلا حتى برزت فجأة لعينيه نخلة خضراء نضرة كنخيل سيناء (٢) ، ففتح عليها باصرتيه ، فطار عنها غراب متألق النظرات كأنه دخان مصباح ، وتلتمع عيناه كأنهما نجمان فى ليل بهيم ، أو كأنهما شرارتان فى فحمة . عليه خلعة عباسية المظهر ، مجد فى السير كأنه ساع فى إثر الليل . وأخذ الغراب يصيح صيحات موزونة عميقة ، وذلك لدى العرب فأل ميمون ؛ فطرب لأصواته قلب المجنون . فرقص شوقاً إلى طلبته ، قائلا فى نفسه : فألى اليوم طيب ، وسأنال فيه نصيبى من الوصال . وعلى لله أن أحج ماشياً ، بل ليس بكثير أن أزيد مائة حجة ، إذا سمحت لى عن طيب خاطر بمحضرها تلك الفاتنة شبيهة القمر . ولما قطع طريقه ، وصل إلى الحى ، ووضع قدمه فى حرم الحبيب ، فسمحت له بالدخول ، وأجلسته فى مقعد القبول . وفضا مختوم رسالات الخواطر ، ونشرا مطوىّ السرائر

---

(١) من المألوف فى الفارسية تشبيه الليل بالغراب ، وفى الأصل الغربان .

(٢) يستلهم المؤلف هذا التشبيه من قصة موسى فى مناجاته الله فى طور سيناء .

فآناً تكلما عن جور الفراق ، وآنا عن كروب الاشتياق . وصارا على الصحبة وفيين ، وفى مباهج العشق متجاوبين . ليلى مستوية على سرير الملك ، والمجنون يردد الصيحات طالباً الإنصاف . ليلى ورأسها فى الأفلاك شرفاً ، والمجنون يمرغ فى الأرض خد التوسل . ليلى تنثر من فمها الشهد ، والمجنون يفيض من دموعه الدر . ليلى تسترسل نظراتها دلالا على دلال ، والمجنون تجيش فى طويته الأسرار هياما . فأين من ليلى نور الصباح وضاء ! وأين من دموع قيس هميان السحاب دافقاً ! واين من جمالها القمر يضيء الكون ! وأين من حرقة قيس النار الملتهبة ! فأعظم بمنطقها مصباح القلوب ! والمجنون محترق بنار ذلك المصباح الذى يذيب القلوب ؛ فما أشبه ليلى بوردة على رأس جبل ، وفى صدر المجنون من الهم مثل الجبل ، ليلى فى ذوائبها كالمسك الخالص ، والمجنون تهمى عيناه . ليلى وردة مغسولة بماء الورد ، والمجنون أمامها كالعشب الجاف فى خلال السراب . ليلى فى سرور بنفسها معجبة ، والمجنون صريع على بساط الآلام . وأمضى العاشقان معاً يوماً رضيين بعد هجر ، وأفضيا بكل مالديهما من سر ، وثقبا كل ما عندهما من لطائف درر الحديث . ولم يبق لديهما من ألم إلا باحا به ، ولم يتركا برعمة إلا وقد تفتحت فى بستان صحبتهما . وأراد المجنون وداع تلك الفاتنة ، فنهض قائلا :

يا كعبة القاصد المشتاق ، وقبلة الحسان من كل الآفاق . حريم

حيُّك حديقة الحرم ، والمقيمون به كزوار الحر . جدائل شعرك عقد ذوى التيجان ، ونفح عطرك وله المشتاقين ، وخلخالك الذهبى تاج الرءوس ، وسلسال شفاهك يغار منه الكوثر . وكل شعرة من غدائرك كالليل البهيم مثار وله ألف مجنون مثلى . وحين يفتر ثغرك مبتسما فأى سوق لبائع الشهد ! قد عقدت الإحرام لبابك فجراً وأنا رضى الطبع جذلان ، فقلت : إذا تيسر لى اليوم السجود على تراب ذلك الباب ، فعلى لله حجة وطواف . والآن وقد نلت مقصودى ، وتمتعت من وجهك بما أشتهى ، فأذنى لى - أن أشد الرحال إلى البيت الحرام . فإذا امتد بى الأجل أبت ، وسأذهب وأعود راجلا . وإن تمزق جيب العمر فلا حيلة فيما يشاء الله .

وكأنما قفت غدائر ليلى على رأسها حين سمعت قوله . وقالت : يامن منهجك طريق الصدق ، إنما حجك إلى وحجى إليك . ولأن يضىء محيانا نور التلاق ، خير من أن يحترق قلبانا بنار الفراق . وكيف لى بالصبر يوماً على فراقك ؟ ! وستطيب نفسك بقضاء المناسك ، فى حين أظل أرسل الزافرات فى مقام الحداد . فأجابها : فى عناية الله ، وأسأله أن يلهمك وإياى الصبر على محنة الفراق ، لنتلاقى من جديد .

هكذا قال ، وصب من ناظريه سيلا من الدم ، وودعها هامى العينين .

(١٧)

الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلى

شرط العهد الوفاء ، وبذل الجهد فيه ولاء . وسفر يقوم به ذو محتد رفيع طرفة من طرف الوفاء بالوعد ، ذلك أن الجهد هو الذى يخرج المرء من عهدة العهد . وقد أخذ المجنون طريقه إلى الكعبة ، باذلا فى الوفاء جهده . خرج من منزل الحبيبة مضطرباً مبلبل الخاطر . وأخذ يقطع البادية حاث الخطى . وورمت قدماه على حرارة الرمال ووهج الأحجار ، فمشى يظلع . وتشققت عقبا قدميه من عناد السير ، حتى صارت شقوقها كفروج أصابع قبضة اليد . وصارت كفا قدميه حيث مشى كنعلين بها آلاف مسامير من الأشواك . وتراءى على ساقيه آلاف الرسوم من آثار الحجارة . وكان يضطره الألم إلى أن ينتحى ناحية من وسط الطريق . وكم خط على صفحة الرمال بهذه الرسوم آثار عنائه . فآناً كانت تبدو قدمه بجانبه من شدة ما أصابها ككير حداد . وأحياناً يسير الهوينى فى طريقه كناقة معقولة . ريثةٌ من عطشه السراب ، وهو كليل من ورم قدميه . خبزه خمير من القمر والشمس (١) ، وماؤه رشح الكبد . ونومه لمام كما يسقط إعياء المنهكون ، فاقد الإحساس فى

---

(١) أى لم يطعم شيئاً .

ظل شجر الطلح . وكانت الأشواك فى قدميه تجذب ألماً عروق الجسم كأنها خطاطيف . وكان رفيقه — فى كل مرحلة — الثعابين والنمال وصحبه فى طريقه الظباء وحمر الوحش ، وخلانه فى سفره الجن والحيوان ، كأنه ملك وهؤلاء رعيته . وفى كل معرس له كان يخط كلمة على الكثبان بيده . ثم يصب فوقها فيضاً من دم جفونه حتى تصير فى لون الزنجرف (١) . وكان قصاد الكعبة يطلقون بعد الميقات أحياناً أصواتهم بالتلبية ، فكان يتحاشى هو من ترديد التلبية . وإنما كان يردد بدلها اسم ليلى . وعندما أبصر من بعيد سواد الكعبة ، وامتلأ سواد عينيه نوراً ، تذكر جمال ليلى ، فأطلق من حرقة الشوق صيحة ، ثم بدأ بالطواف حول البيت . ولم يجد السبيل إلى وصال قمر الحبيب ، فكان يطلق شعلة الآهات من فراق وجه الحبيب . ودق على باب البيت حلقة الشوق ، وفى رقبة روحه من حلقة حبه طوق . وهو فى حلقة غمه مجهود يبحث عن مخرج ؛ وبينما يصب دم القلب دموعاً من ناظريه ، تعلق بأستار الكعبة قائلا : ياربة الخدر ، يامزهوة الحجاب ، وياحلالة عقد حلقات الأسرار . مكانك بين أندية العرب ، وبك كسدت سوق كل العجم . تحت كل حجر فى باديتك سقطت رؤوس آلاف الأبطال . معدنك دواء فى المسكن ؛ ونظرة منك قاصمة إلى الأبد قلب الواله والرمل من حرم منزلك كحل يرد النور إلى عين الزمان . من

---

(١) الزنجرف : صبغة قرمزية .

سجيتى الهذيان ، ومن شيمتك الستر ؛ فكونى لى ملاذاً حتى لا يهتك لى حجاب ، وكونى لى شهيداً على أنى تبت ؛ وقد تبت من كل ذنب ، وأنبت عما كان منى من سيء الفعال ، وقد مضيت حياتى بباب المعشوق الأزلى (١) ، الذى يتجلى لنواظر من جن جنونهم من العشق ؛ وكنت وفياً لما عاهدته عليه . وأنا نادم من كل ما وقع لى من نقض لهذا العهد . يامن يولى وجوههم إليك العجم والعرب ، وأرواحهم جميعاً سكرى من الشوق إليك ، اصرف وجهى عن كل شيء ، واغسل صحائفى من كل كلام ، إلا من هوى وجه ليلى ، ومن نداءات الشوق إليها . فليلى ملاذ أمل روحى ، وكنز عيشى الخالد . منها تستمد عينى نورها ، ومنها يجد قلبى المضنى روح القرار . هى ملكة ولاية الجمال ، وروح جسم العشق ، غاية كل محب . ومادامت ملكة لى فأنا عبد ، ومادامت هى الروح فأنا بها حى . وليلى مصباح الحياة ، وباكورة يانع الثمار فى بستان الأمل . فكل من لم يحى بها فهو ميت ، وكل من لم يعره منها حرارة الشوق فهو بارد القلب . ولو أن العالم كله على رأى واحد ، وخرج عن قاعدة الوفاء لها ، فحاشا أن أعيرهم أذناً ، وحاشا أن أنساها لحظة .

وعندما قالوا : إن المجنون خرج قاصداً الحج ، عارى الرأس ،

(١) يمثل المجنون فى خوطره الصوفى الذى تختلط أفكاره فى الجمال الإنسانى يوجده بالجمال الأزلى ، فليلى فى ذهنه طريق للقربى ، راجع المقدمة ؛ وانظر كذا الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحياه العاطفية .

حافى القدمين ، نمى الخبر إلى أبيه ، فأسرع كالريح فى أثره ، فكان قرينه فى الطواف واختبأ يصغى إلى دعائه . ولما سمع شكواه ودعاءه ، وأصغى إلى عهد حبه ووفائه ، غسل يده من الطمع فى نجاته ، واجتهد فى إرضائه فى كل الأمور ، وحمله فى إيابه فى محمل للطف وهودج العناية ، وقفل عائداً به إلى حى ليلاه .

(١٨)

منع ليلى من ملاقاة المجنون

وقع مغنى الحجاز على قيثارته هذا اللحن الطيب النغمات فقال :

لما عاد المجنون من الكعبة أكثر شوقا مما كان ، حط رحله بديار ليلى ، ووجد حبل الوصال متيناً بينهما ، وكثيراً ما تردد ذهاباً وجيئة ، واتخذ التردد عليها مهنة له ، وظل دائم البحث عن وصالها فحين كانت الشمس تبرز بقرنها ، كان يجرى حثيثاً فى جادة الطلب ، مجدداً عهد الوفاء ، سالكا الطريق إلى بيت الحبيبة ، تدار بينهما الكأس المترعة بخمر الطرب طوال النهار حتى الليل . وعندما ينشر الليل علم ظلمته الأسود ، ينسحب من هناك إلى وادى الهموم . وكان مقامه ليلا فى كوخ الأسى ، حيث كانت الدعة عليه حراما ؛ إذ بالرغم من غيبة الحبيبة عن ناظريه ، كان يناجيها ، يقول لها ويستمع منها . ودام أمره على هذا النحو ردحا من الزمن ، يسلم الروح فى اليوم مائة مرة .

وانتشرت الواقعة فى الأفواه ، وعلم بها أهل ليلى ، ولاكت آل[illegible] النسوة من المرائين هذه القصة ، وبثوا فيما بينهم حديثها ، ثم نقلوها إلى أم ليلى وأبيها . وذات ليلة أجلس الوالدان ابنتهما فى ركن خلوة ، وتحدثا إليها فى حدب وحب حديثاً كله درر ، قائلين : يا إنسان العين وراحة القلب ، ليزل عنك أسى جراح القلب ،

ومهما بدا القدر مسدلا الستار على الأسرار ، فما أقساه فى تمزيق الستار . وقد يبدأ فى نسج السذل ، فلا يلبث أن يمزقه إرباً . وفى كل مساء يلتحف الليل ببردته كالمسك ، وإذا الفجر يضحك من تمزيقها . ولاتلبث الزهرة المستورة بنقاب برعمها أن تفتح عنها نقابها أنسام الصباح . وتستتر الحبة تحت التراب ، ولاتبقى طويلا حتى يتمزق عنها ذلك الستر . وما يتحدث الناس به عن قيس وعنك إنما قصدهم به تلك السوء . فمن ذلك ما يلوكون من قصة منتشرة بينهم ، لايريدون من ورائها غير تدنيس عرضك . قد سمع صبا السحر من البلبل غناءه هائما بالوردة فى نقابها ، فمر بأنفاسه عليها فمزق سترها ، ثم أسلمها إلى الهجر . وقد صار حديثك — منذ انتشر — سمر الأوباش . فاقطعى دونه ألسنتهم ، ومزقى أوراق ظنونهم . وحين يهى أس الحائط من الرطوبة فقد يتقوس إذا دامت حاله ، وإذا لم يعرض أمره على معمارى صار أعلاه أسفله . فأطفئى النار على عتبة البيت قبل أن تصل بقاياها إلى السقف ؛ إذ حين تصل الشعلة إلى السقف لن يخمد أوراها مهما أعملت الحيلة . فانتزعى قلبك من قيس عامر ، واقطعى أملك من صحبته . فليس من رأى قيس أن ينصرف عن بابك ، فأنت الكعبة وقيس جبل أبى قبيس فلا تلق إليه بالاكتراح عن كاهلك هذا العبء . ولاتحملى لقب صديق حقلك منه غبار العار . ولاتحمدى عاقبة حمل هذا العبء ، وانفضى أذيال هذا الغبار ، وابقى محجوبة بستر العفاف ، ولاتسمحى له

بدخول البيت مرة اخرى . فذات الخدر والنقاب برعمه ورد لم تتفتح بعد ، طيبة المقام فى طرف الحديقة ، غير ممتهنة بالعرض فى والميادين ؛ وأما حين تكشف عن وجهها النقاب ، فهى كوردة تفتحت ، فصارت غرض البلابل فى تغريدها بنعرة الشوق والعشق، ثم تقطف من منبتها وتوضع فى طاقة محاطة بأعواد العشب ، ويدار بها على المحال والميادين العامة ، فيذهب رواؤها وتذبل نضرتها . ومهما طهرت أذيالك ، ولم ينلها سوء من طعنات حسادك ، فلماذا تصيرين غرضا للظنون ، ومضغة فى الأفواه ؟ ومن خلصت رأسه من الأوجاع فقد برأ من الانحراف مزاجه . وللتخلص من آلام الرأس الذى يجلبه عليك عصبة القوم ، خير من لف الرأس بعصابة اتقاء صداع الرأس .

أعارت ليلى أذنها لها ، وصدرها من نار حب قيس يغلى غليانا . فهى مع قيس على حرب ، ونفسها بدون قيس ضائقة الذرع وهما ينالان منه بكلامهما ، وهى تدعو له بروحها بينهما . وهما مع قيس كالماء والنار ، وهى معه كاللبن والشهد . وهما منصرفان إلى النصيحة بظاهر القول ، وهى فى طوية فؤادها فريسة الحب .

وعندما أخذ قيس طريقه لزيارة من هامت بها روحه ، على عادته كل يوم ، التقى فى الطريق بشيخة عجوز (١) كأنها حمار

(١) فى الأغانى ج ٢ ص ٤٥ أنه التقى بجارية عسراء فتطير منها ، وفى النص الفارسى لا يعرف أكان من لقيه قيس رجلا أم جارية ، وقد حملنا المعنى الفارسى على أصل النص العربى .

مسن ، مقوس الظهر . وما أشد شبه وجهها لصلابته وخشونته بسلحفاة . وقد عرى رأسها من الشعر ، لكثرة ما انتابه من حوادث الدهر ، حتى غدا كاليقطينة ، ليست عليه عصابة جميلة . وجسمها عار من المئزر . لها شفتان عابستان ، وفمها خال من الأسنان . ولها عين كالفحم وليس لها سواها ، فلاريب فى أنها بعورها الدجال . ووقع فى قلب قيس فأل سيىء من هذه الصورة القبيحة ذات الشكل المخيف ، وقال فى نفسه : كيف يرجى ريح الخير لمن وقع نظره أول ما وقع على هذه الصورة ؟

وبينما المسكين مبلبل الخاطر ، إذ به مع رفيقته شبيهه القمر على شرعة الحب . فأخبرته الخبر ، وشرحت له مسلك والديها المشين . وقالت له : انظر إلى ما يعترض طريقى من عقبات ، وأية طعنة تعرض لها فؤادى المصاب . فبقلبي من هيامه بك جراح ، وفراقك طعنة فى تلك الجراح . ويحترق قلبي على فراقك ليلة واحدة ، كما يحترق شمع المحفل ، فقل لى بربك كيف تكون الحال لو امتد به الفراق شهراً أو سنة ؟ ! . وفى مقدمك لزيارتى مائة بلاء ، وإذا لم يلحق بى أذى منها فأنا على وجل من أن ينالك بأذى امرؤ سوء .

وسمع المجنون قولها فمزق ثيابه جزعا ، وغلت روحه من شدة وقع ما جرى . وأخذ يردد هذا اللحن : أى قلبي ! ارض بعد ذلك نفسك على الصبر ؛ وانأ عن كل شيء سوى الصبر ، ولاعليك إذا ردك الحبيب ، فلن يحين اليوم الذى يألف فيه قلبي سواه .

فالهجر عن رغبة من الحبيب هو الوصال ، بل هو من وصال أطيب ومن يبرح به الشوق للقاء الحبيب بدون رضا منه ، فليس صادقا فى دعوى العشق ، وليس بأهل لأن يحمل لقب العاشق . فالعاشق من تجرد عن نفسه ، وأقفل أمامها باب الشهوات ، وهو الذى يسلك وادى اليأس ، قد خلا من الغم ، وفرغ من السرور . فهو خلى من الأمل ، وفى أمن من الخوف . قد ركن بنفسه إلى التسليم . لايعروه أسى لما يقاسى من محن ، وهو بكل ما يحدث جد مسرور .

(١٩)

عقاب (١) والد ليلى لها حين علم بلقائها المجنون

لما حرم المجنون زيارة النهار نزولا على حكم آسرة قلبه ، كان فريسة الهموم طول النهار حتى الليل . وكم بلغت روحه التراقى . فإذا جن المساء اتخذ من الليل لباسا ليذهب فى طريق الطلب ، وجعل ديار الحبيب له مبيتاً ، وقر قراره هناك طوال الليل . وكلما وجد مجالا للحديث تحدث — كما تسمح الحال — عن تباريح فراق النهار وكم كان يحكى عما يلتهب به صدره من الشوق ، وعلى الرغم مما كان يعانى من غصص الهجر ، كان طيب الخاطر بما يبذل من جهد .

وذات ليلة كان هذان الحبيبان الطاهرا الذيل ، الطيبا السمعة فى عالم العشق ، يتجاذبان مختلين أطراف الحديث ، فمر بهما حدث من أهل الحى ، من ذوى القلوب الميتة ، وممن يسيئون الظن بدلال العشق ، فرأى هذين البائسين الجريحى الفؤاد فى خلوتهما ، فأخذه الحسد على طيب صحبتهما ، وأساء بهما الظنون . وحقاً لا يأتى الخبيث بالطيب ، وكل حاملة تلد من جنسها . وينضح الإناء بما فيه إن خلا وإن خمراً .

---

(١) قد أخذ المؤلف معنى هذا الفصل من قول قيس .

أمضروبة ليلى على أن أزورها ومتخذ ذنباً لها أن ترانيا ؟

(شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٧٨ ، وتزيين الأسواق ص ٦٣) .

وموجز القول أن ما رآى من قطرة دمع على خد ليلى بالغ فيه فجعله سيلا هامياً . ومر فى اليوم التالى بوالدها على انفراد ، فأخذ يقص عليه من خياله ، وأشعل نار الغضب فى هشيم حصيده . وسرعان ما أكلت النار هذا الحصد ، فأقبل على ليلى بنار غضبه ، وألقى على سر أمسياتها مع قيس ضوء الإبانة . وبسط إليها كف التأديب ، وصفع وردة خدها صفعة آلمتها ، فصار الخد فى لون السنيلوفر الذى عانى قسوة السيل ؛ وصار أزرق ذلك الخد ، بعد أن كان فى لون الشقائق . ونالها بضربة عصا لينة على قامتها ، فتراءى بها ما يشبه الورد على قامة كشجرة الورد ، وكانت ليلى تردد فى كل لحظة التوبة ، وهى تعنى التوبة من كل شيء إلا من عشق قيس . وكانت فى كل لحظة تصبح منتحبة ، لا من الضرب بل من ألم الفراق . وكانت جفونها تريق دماء ولكن من جوى البعاد .

ثم حلف والدها بجلال الله الذى تخر من هيبته الأفلاك سجداً ، وتشرق لوامع كماله فى بدائع جماله ، من يطلع المقربين إلى حضرته على أسرار صفات ذاته : أنى سأحمل شكاتى أمام الخليفة من تطاول قيس ، ومما يجره على من ضيق دائم ، إذ يلج أطراف حريمى صباحاً حيناً ومساء حيناً ، ويضع مئات الأشراك من الحيل والكيد ليصيد غزالى المليح . فإذا أنصفنى الخليفة فيها ، وإلا فلن أصبر على على الضيم ، وسأتصدى له فى الطريق الذى يسلكه فأنازله ،

فأحكم حوله حلقة بالسيف والرمح ، فاما ابتعد عن الطريق وإما خاطر بأجله .

وعلم المجنون بالحديث فى نفس اليوم ، فاحترق فؤاده ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وبرحت به آلام الهجر وغصصه فامتنع عن البحث والطلب ، ومحا من لوح قلبه حروف الأمل فاعتزل ، وكف عن حث خطاه للذهاب إليها سراً أو علانية . ولم يفعل هذا خوفاً على نفسه ، بل حذار أن ينال حبيبته من جور والدها سوء .

(٢٠)

الجارة الأرمل (١)

كانت لليلى الفاتنة جارة ليست من قبيلتها ، مكلومة الفؤاد من كرب الاغتراب ، مهمومة الفكر لمحنتها بالترمل ، فقد خلفها زوجها وحيدة مع يتيمين بقيا لها منه . فكانوا معاً غرباء مهجورين ، يقاسون آلام الجوع والعرى . وعندما حرم المجنون كنز الوصال ، صار من الأرمل كالبوم يأوى إلى بومة ، واتخذ من منزلها الحزين مأوى يقوم فيه بخدمتها . وكان يرى هذين اليتيمين فيمسح بيد الشفقة على رأسيهما . وكان يضع سراً فى أيديهما كل ما يقع فى حوزته من فضة وذهب . وحين ضاع من يده ظل الحبيبة ، استعاض عنها بجارتها ، شأن الظمآن المكروب فى البادية حين يمس بشفتيه الرمال الندية ، طالباً فى طراوتها عوضاً عن الماء حين يعز الماء وتشتد به الحمى ولهب القيظ .

وكان من دأبه ترك كل قيل وقال ، سوى السؤال عن آسرة فؤاده وحبيبة روحه . فكان يقول : كيف هى ؟ وما حالها ؟

---

(١) خبر تردد قيس على جارة ليلى الأرمل مذكور فى تزيين الأسواق للأنطاكى ص ٥٧ — وفيه أن والد ليلى فطن للحيلة فنع الأرمل من استقبال قيس ، فأنشد قيس فى ذلك :

أجارتنا إنا غريبان ههنا … وكل غريب للغريب نسيب
تزجرينى عنك خفية كاشح … إذا قال شراً أو أخيف لبيب

ومن ذا الذى يتمتع بجمالها ؟ ومع من عقدت الوصال ؟ ومع من تمارس آيات الدلال ؟ أولها آخر مثلى أم لا ؟ ولازالت أنظارها إلىّ أم لا ؟ ومن ذا الذى وقع قلبه فى أحابيل غدائرها ؟ ومن الذى يستقبل محراب جفونها ؟ وفى فم من تصب الشهب من شفاهها الياقوتية التى تخلط بسماتها بالعتاب ؟ وبأذن من تعلق نظيم اللؤلؤ من قولها ؟ إنى لمحترق شوقاً إليها حتى أحظى برؤية محياها . وإنى لصريع لوعة النأى ، فحتام أبقى خدن الفراق ؟ ويحظى غيرى بمجالستها ودلالها ، وبحسبى أنا أن أجلس بمنزلك كى أرى من بعيد ربعها وطللها .

وما إن فرغ من قوله حتى خر على الأرض ، تهمى بدم الدموع عيناه هياناً استنفد به كل ما فيهما من قدرة على البكاء ؛ وخارت قواه ، فخرّ مغشياً عليه ، لايشعر بشىء فى هذا العالم . فكانت الأرمل ترشّ على وجهه الماء ، وتغسل عن ناظريه كحْلَ الإغماءة . وعندما كانت تصحو عيناه من الغَفْوَة ، كان يشرع فى الانصراف . ولم يكن له هم غير هذا النوع من الطلب ، إذ كان محروماً من رؤية حبيبة روحه . ولكن القدر بحمته القاسية — وذاك دأبه دائماً — كان يهيء له طعنة أخـــرى ، ليثنى زمامه عن المراد . فقد سعى الوشاة بليلى إلى أبيها ، وتكلموا فى أمر ذهابه ومجيئه ، ونسجوا حول ذلك الأقاصيص ؛ ثم انصرفوا . فأخذ والد ليلى يغلى غيظاً ، ويصيح من فعلة الأرمل المنكرة ؛ وقال لها :

أيتها الخسيسة الحقيرة ! ما هذه الدناءة ؟ وما هذا العمل الذميم فى حقى ؟ ! لماذا تفسحين الطريق فى دارك لمن تتهرَّبى ، وسَبَبَ لى العار ، ورمى جام شرفى بالأحجار ؟ وإذا طرق بابك مرة أخرى فآويته استرضاء له ، فاعلمى عن يقين أن هذا لن يبقى سراً .

وعلى سماع لومه ارتعدتْ المسكينة خوفاً كيراعة فى الماء . وحين رأت المجنون فى المرة التالية مقبلا من بعيد مولَّه القلب صاحت به : أيها الابن السعيد الجد ! أنت لاترضى بأذى لمسكينة مثلى ، فلا تلج لى منزلا ، ولاتضع قدمك من بعد فى ساحتى . ليلى صديق لك ، وهى على حبك مقيمة ، ولكنَّ أباها يسرُّ لك الضغينة. وهو أمير قبيلة ، وأنا مسكينة ؛ فأين أنا من صولته ؟ ولا أخشى على حياتى فحسب ، ولكن أخاف بخاصة عليك . فاحرصْ كذلك على ألا يلحقنى ضرر ، وقد أخبرتك بالصدق ، فحذار أن تريق دمك .

واضطرب المجنون لسماع هذا الحديث ، وهمس باكياً بهذا القول : ما هذا العمل أيها الأم الشفيق ؟ إن قلبى جم التأثر لإشفاقك على ؛ فكلانا غريب هذه الديار ، وليس أحدنا بغريب عن الآخر . وماذا علينا إذا أسْدى كل منا للآخر يداً ؟ وأىُّ ملام فيما تقطر به قلوبنا من دم الأسى ؟ ! كل غريب عانى آلام الاغتراب فغريبٌ عنه أذى الغرباء ، إذ هم فى كتاب الأنساب أقارب ، بعضهم من بعض ، وقد أثبتوا على صفحاته نسبهم ، فلا ينال من نسبهم بعد ذلك أن يمزقوا صفحات ذلك الكتاب . كنت فى منزلك أولى وجهى

شطر ليلى قانعاً ، والآن وقد صُرفت وجهك عنى ، فإنى أدعو لك دعاء منبعثاً من الروح والقلب . وهأنذا غريق فى مستنقع الورطة ، أحزم راحلتى عن دارك . وقد أقبلت مسروراً ، وهأنذا أعود مهموماً . وهكذا أمضى لشأنى ، ولكن لى عندك رجاء : إذا وقع نظرك على ليلى أن تذكريها باغترابى ومحنة حرمانى ، وأن تُرددى بلسانى لها الدعاء ، وتتمنى لها باسمى البقاء . وإن تحسْبْ يوماً لى بغيتى فقد حلت عقدتى ، وإلا فسأقضى من الفراق ، لأتعلق بأذيالها فى الدار الآخرة يوم التلاق .

قال هذه الطرفة وأخذ فى السير ، مولياً وجهه بدون رفيق شطر الصحراء .

(٢١)

شكوى والد ليلى إلى الخليفة (١)

قد منع والدُ ليلى الجليل الشأن ، الخطير فى كل الأمور ، المجنون الواله القلب من زيارة تلك الحسناء الفاتنة القسمات . وبوقوع حادثة الأرمل حقَّ عليه العمل بالقسم الذى كان قد عقده من قبل ، وبمقتضاه نهض ليضع رحله بباب الخليفة ، وشرح — على ما هو معهود — قصته كما هى ، قائلا : فى قبيلة بنى عامر شاب عنيد الطبع ، نظّام لقصائد الغزل ، متيم خدّاع ، يمزق ستار السمعة بنفاقه . وهو براء من مراسم الآداب ، قد أعطى نفسه لقب المجنون خليع العذار ، صناع فى توقيع ألحان الحب . وعندى درة يتيمة كأنها إحدى الحور ، محجوبة عن أنظار حوادث الزمان ، طيبة النفس فى ستر خدرها ، مسدل نقابها على فاتن قسماتها . لم يروجهها أحد سوى المرآة ، ولم يمس شعرها غير المشط . وما إن تكلم فى أمر عشقها هذا الشاب الطائش الرأى ، المفضوح أمره والممزق ستره ، حتى تلقّف العالم صدى حديثه . فليس من مجتمع يخلو من التغنى بهذه القصة . وإن اسمها المستسر كالروح فى الجسم ، وهو فى صدرى بمنزلة الروح ، بعد أن تغنى به غزلا ، امتلأت به

---

(١) فى الأغانى أن أهل ليلى شكوا قيساً إلى الخليفة فأهدر دمه لهم (جـ ٢ ص ٢٦) وقد أفاد الجامى من هذا الخبر فى نظم هذا الفصل .

الأفواه فى أرجاء الأرض . وقد أبلى هذا الشاب بذهابه ومجيئه عتبة بيتى ، يدخل الدار دون أن يطرق الباب ، فإذا كسرت رجله سعى على رأسه . فإن أحكمت رتاج الباب أقبل من السطح . وإذا طاردته صباحاً طرق زائراً ليلا . وقد ضاقت به نفس الحار ذرعاً لألم ما عانى منه . ومن يسعفنى غيرك ؟ فأنشدك الله أن تنقذنى ، وتتعطف برعايتى ، فتكتب كلمات فى رسالة إلى أمير تلك الولاية ؛ ليتصرف بما يقضى به كرمه ، ويحررنى من ربقة هذا الأمر .

وعلم الخليفة تفصيل حاله . وأعطى الأمر على وفق ما طلب . وقرأ أمير الولاية أمر الخليفة ، فتوجه فى ركبه إلى قيس وقومه ، ونشر بساط العدالة ، ودعا رؤساء عامر . وجلس قيس مع أبيه ، وأحاط بها أعيان القبيلة فى شكل حلقة . وأخرج الأمير منشور الخليفة وهذا مضمونه : على قيس المجنون ، الذى يفتخر بعشق ليلى ويشبب بها ، ألا يتجاوز حدود الإنصاف ، وليشتغل من الآن فصاعدا بحال نفسه . وليلزم ديار قومه ، ولا يتغن بالغزل فى ليلى ، ولا يسوقن راحلته فى طلبها . وليقصر خطوه عن السعى وراءها ، وليربط لسانه عن القيل والقال فى عرضها ، وعليه ألا يعرس فى حرم دارها ، وألا يشترك فى مجتمع مع بنى حيها ، وألا ينشد أغنية على لسانها ، وألا ينسج القصص حول أطلالها ، وألا يبيت على عتبة بيته يقص على المحاميع قصتها ، وألا يضوع المحافل باحراق عود وجودها ، وألا يتغنى بها غناء الثمل ؛ وإذا وقع منه ما يخالف ذلك ،

فهو مستحق للهلاك . ومن يقتله عمداً ، ويرم قارورة جسمه بالأحجار فليس عليه من دية ولا قصاص ، ولا يحكم عليه بعقاب عام أو خاص.

ولما رأى القوم الواقعة ، وعلموا مضمون منشور الخليفة ، تطاولوا على قيس ، وصوبوا إليه — مفتحة عيونهم — نظرات الإشفاق ، وقالوا : قد سبرت غور الأمر بعد أن سمعت منشور الخليفة ، فليس بعدُ من مجال للكلام ، وليس من قول أسمى من هذه الأقوال ، فإن لم تستقم على هذه النصائح قدمك ، فدمك مثل مالك مباح . فارع جانب والديك ، وعد عن ذميم خلتك . فلو أن ليلى ووالدها قتلاك لطل دمك . ومالنا والصراع ؟ وما لنا والبحث عن النزاع والأحقاد ؟

وسمع المجنون هذه النصائح ، فصاح صيحة العاشقين ، وهمت جفونه بهاطل من دم القلب ، انتشر على صفحة وجهه الممتقع ، ووقع على أرض الذلة والهوان ، وغاص فى هوة المهانة والحقار ، يتلوى تلوِّيَ السليم ، ويرعش كطائر يحتضر . قد طار عقله من رأسه ، وذهبت روحه من جسمه ، وغاب عن نفسه كالمصروع . وحوله من الخلق حلقة محكمة ، قائمين عليه فى مأتمه . ووقف الحاكم مكروباً وقفة القاتل . وأخذت صبغة سلطانه لوناً آخر ، ووهن دستور حكومته ، وامحى أثر منشور الخليفة . إذ سبيل سلطانه على ذوى العقول . وليس من تكليف على غير العقلاء ، وما المجنون بأهل للتشريع . وطال بقيس المقام على حاله ، صريعاً على الثرى ،

وجهه إلى الأرض . ولما أفاق من إغمائه ، جرى فى هوسه إلى أنشودة ، وردّد بمضرب العشق على أوثار قيثارته هذه الألحان ، قائلا : نحن الكرام المسافرون فى طريق العشق ، ونحن غرض لغارات جيوش العشق . وليس لنا أمر سوى العشق ، فما بنا خوف من الخليفة . وإن يد الخليفة لتقصر عنا ، إذوصلنا إلى مكانة قيّد فيها العشق أقدامنا ، واستعصم حمامنا بعش يستعصى على باز الخليفة . نحن طير عشنا فى سدرة المنتهى ، ويسمو بنا موطننا عن الأرض ، ويطيب لنا فيه المقام . وأية قوة نحفل بها لتلك الشراك التى ينسجها العنكبوت !! أو حين تغزو روحى ، وتحتل مكانها من قلبى ، يقولون لى: سر فى طريق الخليفة ! واترك من أجله تلك العروس المجلوة ! هيهات ! أى مكان لهذا الخيال ! فهجرى إياها محال ، وإنى لأمحى فيها كما يمحى الظل فى النور ، وبعيد عن التصور أن أكون بعيداً من نفسى .

(٢٢)
والد المجنـــون يخطب ليلى له (١)

ماشطةُ هذه القصة ، المدلة بنفسها ، هكذا جَلّتْ عروسها قائلة :

خَرَّ قيس طريحاً تحت أقدام جيش الهموم ، صامداً فى مَسيل البلاء كالجبل ، مضطربا تدور به الرأس فى كل متجه ، كأنه دوامة إعصار فى الصحراء تدور بها الريح . وظل نائيا عن حى ليلى وقلبه ملىء بالشوق إليها . وضاقت به نفسه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وصار على شفا الهلاك من النأى ، لايقر له فى مكان قرار ، بل كان دائم التنقل فى كل لحظة من مكان إلى مكان . يقطع الأودية المحرقة الرمال ،تطأ قدماه نارها وشررها ، يرمى بظله على الرمال كأنه سحاب ، وينشد القرار على حد السيف . وإذا جاز أن يحيا على الغم بائس ، فكيف له بالعيش على لظى الجمر وحد السيف ؟! وأينما لمح سواداً جرى إليه جرى الدمع إلى سواد عينيه ، مستخبراً منه عن ليلى ، مردداً اسمها وقلبه نهب الوجد . فإذا حدثه عنها بضع كلمات تكحل بتراب أقدامه ، وإلا سحب عنه أذياله ، وقطع معه سلك حديثه .

---

(١) لأجل خطبة ليلى لقيس ورفض والدها تزويجه إياها ، راجع الأغانى ، طبعة دار الكتب المصرية ، جـ٢ ص ١٥ ، ٢١ .

وما إن استمرت حاله على هذا النهج ردحا من الزمن ، حتى قطع كل صلة له بالعقل ، واشتد به الشوق وشن الحرب على صبره وصار منكس العلم كالقلم ، فأعمل الحيلة ، وسلك شعاب الفكر . ثم سار شطر قبيلته ، باحثاً من بين رجالها عن رجل شبيه بالروح المشرقة الجوانب بمصباح العقل . وقال له : لى لديك أمل أرجو أن تسعى فى تحقيقه : أن تحمل منى إلى أبى السلام ، وأن تبلغه منى هذه الرسالة :

يا من بفضل رعايته نموت كنخلة ناضرة توج رأسها الثمر . فطينة زهرتى من صنيع يدك ، ومضمون مافى قلبى من خط بنانك . وما لى من شمائل إنما مردها إلى فضائلك ، وهى كل مالى من فضائل فأنت حلية بستان عيشى ، وأنت النور لسراج حياتى . وقد رأيت منك من البشائر ما تلا بعضها بعضاً . ولى فيك الآن رجاء : هو أن تأتينى البشرى بتحقيق أمل آخر : ليلى مراد الروح وسعادتى الدائمة وقد صانوها فى خدرها عزيزة ، كأنما أرادوا أن يقوها الحسد من نظراتى . وهأنذا على شفا الهلاك من فراقها ، فقلبى اليوم مكلوم وصدرى محترق ، إذ بسوى بابها لايطيب لى مقام . وويل لى ثم ويل لى إن لم يتيسر لى ذلك المقام . وموجز القول : مل أن تستجيب لمطلبى ، وأن تنظر لما أنا فيه من آلام ، وأن تطبنى مما أعانى من سقام انصح والدها ألا يسر لى الضغينة ، فالعالم لايعدل مثل هذا العناء . وليضع فى عنقى طوق صنيعه . وليرفع رأسى بأن أكون له عبداً ،

وأصير له صهراً ، بل أقل خدمه شأناً . وقد قلت لى إن نسبك عال وينال من قدرك مصاهرته . وقد احترقت وجدا ؛ فما جدوى النسب ؟ وماذا وراء النسب غير محن الليل والنهار ؟ مل أن يبدو خبيثى طيباً فى ناظريك ، وأن يعمر قلبك بحبى ، إذ لم يبد لى منك حتى الآن سوى الجـــدة علىّ ، كأن ليس لى لديك من حب أبوى . فاصغ للنصيحة القائلة : ارحم ترحم ؛ فتمنى منك العطف الذى تشمل به ذوى رحمك . كن رحيما فالمروءة فى الرحمة ؛ وهذه روحى تكاد تزهق من ظلمك . وليست غايتى من هذا سوى النجاة بنفسى ، فأى مكان لهوى النفس فى المقام الذى أنا فيه ؟ وإنما هذا ديدن طينتى الطاهرة ، وطبعى البرىء من الأدران . وقد احترقت روحى بحب ليلى ، فجنى حصادى منها حرقة الروح . ولم أجد هذه العاطفة لدى سواها ، ولذا لن أحول نظرى عنها . وأى بكاء تجود به عينا مثلى ، الفريد الطبع المبلبل الخاطر ! هذا ؛ ولم أضع أولا ولا آخرا قدما فى جادة الطلب من أجل امرأة ، وحسبى أن أنظر لها أحيانا عن بعد ، وستتبوأ هى صدر عرش اللطف والدلال ، كريمة مرفوعة الرأس ، وأما أنا فمقامى حيث تضع نعليها ، وسأكون دون قدميها مهينا ذليلا .

نهض هذا الصديق الكامل الخلق ، النزيه الشمائل باكيا من محضر قيس ؛ وأخبر أشراف القبيلة بما تم من أمر والده . فاتفقوا فيما بينهم ، وحلفوا على ما اتفقوا عليه ، وتوجهوا بعد ذلك إلى أبيه

ونشروا — على وجل — كتاب كروبه . ونقلوا كلمات قيس إلى أبيه ، وعرضوا عليه درر قوله . وعلم الأب إلى أية حال وصل الأمر بابنه ، فوضع يده على جبينه وبكى ، إذ انتهى سكين الأسى من قيس إلى العظم ، وبلغت المحنة بقلبه المدى . وقال الأب : كيف لى أن أطيب خاطرا بما يعانى من آلام ؟ ! وخيرٌ أن أشمر عن ساعد الجد ، ناشداً الشفاء لما به من داء ، باذلا من الجهد كل ما يستطاع ، واضعاً فى كفه زمام المقصود ، سأجعله ثملا من جام المراد .

وأعدت الرحال للذهاب ، ونهض معه من القبيلة جمع من الصحاب . وسلكوا جميعاً الطريق ، تهمى عيونهم من الدمع سيولا : الشيوخ فى تضرع الشفعاء ، والعقلاء فى تواضع المطيعين ، حتى وصلوا إلى الوادى حيث ضربت خيمة ليلى ، فأتى والدها على ماله من مكانة معروفة ، ومد بساط الضيافة ، وجرى الخدم من كل الأطراف يجرون أبسطة الموائد . وقد أخذوا يتجاذبون على الطعام أطراف الحديث الطريف ، يحكون من القصص ما طابت به خواطرهم . وقد طرق كل منهم باب حديث طريف ، كاشفاً القناع عما فى ضميره ، وقاد من كل جانب جنيبة ، موارياً فى قوله عن القصد . وقالوا : من دأب هذه الدنيا أن اليد الواحدة لا نأتى منها عالى الصدى حتى تساعدها اليد الأخرى ، وخبرنى كيف يكون الميزان ميزاناً ما لم تستقيم ذراعاه ؟ والجميل مقبور مادام فرداً ،

ومرآته أن يصير ذا زوج . وألق بنظرة على البساتين ، فمها كانت الوردة جميلة فهى وحيدة معزولة ، فإذا انتظمت فى سلك الخضرة ، صارت لعينيك أطيب منظراً .

ثم تسابقت ألسنتهم فى الثناء على رب البيت : أنت من أقتلع جذور البخل ، وهذا الحي حى بسخائك . وفى خدرك قمر مجدود ، إذ عين رعايتك عليه مبسوطة ، وهى نقية الجوهر كلؤلؤة لم تسلك ، عذراء كبر عمة لما تتفتح . وهى بدر ؛ ومن الأسى أن يتنقب وجه البدر بسحاب . فتعطف على ظلمة الليل ، واكشف السحاب عن وجه ذلك البدر . إنها فريدة ، وسنهديها آخر إذا أردت أن تزوجها وقيس ذو فضل ، وهو مشتاق لأن يشرف إذ يصير من غلمانك . وهو فى أصله ونسبه وحيد الدهر ، وفى فضله وأدبه مضرب الأمثال. فلا تحرمه هذا المراد ، وقد قدمناه لك صهراً وابناً ، فلتقبله بحضرتك غلاما ، فتبدل علقم ريقة شهداً . فهى من الحور وهو من الملائكة ، فجوهرهما قدسى الخلقة . وغير محمود أن يظل ملك مهجوراً من الحور كأنه شيطان . وهما جوهرتان كلاهما للآخر كفء وهما نجمان يجذب كليهما لأخيه الشوق . ومكان الجوهرتين علبة واحدة ، ومقام النجمين برج واحد . وقد قلنا ما يقتضيه الوفاء والعطف ، على أنك — بعدُ — تعلمه .

(٢٣)

رفض والد ليلى خطبة قيس

كان والد ليلى غريباً عن منهج الإنسانية وتقاليدها ، قد ضل طريق المروءة ، كأنما ركب فى جسمه عوضا من قلبه حجر ، بل بينه وبين القلب آلاف الفراسخ . وهو مطمور المقام فى بئر الغفلة ، سريع الخطى فى ركوب طريق الضلالة ، غريق ظلمات دخيلته ، فى لجة السواد من قدمه حتى ذؤابة رأسه ، ناء عن شرعه الإنصاف ، موقوف على جهل جبلته ، فارغ البال من معانى العشق والدلال ، مستريح الخاطر من التباريح التى تصهر الروح ، لم يعان للمحبة لوعة ، ولم يذق للمحن جرعة . فهو مشتت شمل المحبين ، وموهن عزم العاشقين . أى أن الراعى لأمر ليلى قد اضطرب به أمر ليلى . وعلى الرغم من أنه والدها نسبا ، فقد خرج من نطاق أبوته مسلكا . فليس بين جنبيه لها رحمة الأبوة ، وقد جلب عليها مئات المحن والغم . وعندما سمع رغبة قبيلة قيس ، لوى عن مرادهم عنانه ، وقطب حاجبيه ، وعقد مئات العقد غضباً على جبينه . وكيف يكون حال امرىء حين يقطب الجبين ، إذا كان هو لو ابتسم جرح ببسمته القلوب !! لقد قال :

يا له من خيال غير صائب ، واهن كبيت العنكبوت ، لو طلب منى أولا هذا الأمر ، لكان عين الصواب والعقل . أما اليوم فقد

امتلأ حيز الزمان بصدى هذه الأنشودة ، ولم تبق أذن فى العالم لم تصغ لرجع هذه الألحان ، وغدت القصة حديث الأطفال ، ويرددها القوم فى عقر دارهم ، ويحتسى الداعرون فى مجالسهم على أنغام ألحانها كئوس الخمر . ويحذر الناصحون الداعون لكريم الخلق من أمثال حالتنا ، وأى عار آلم من هذا العار ؟! إن هذا لأسوأ ما يتصور حدوثه ، حاشا أن أقبل مثل هذا الرأى ، أو أن أنسج حيلة من نظم الشعر !! وها هى ذى النار تفيض بالأنوار على الجبل الشامخ فى ليلة حالكة ، فكيف يستطاع إخفاؤها فى الهشيم ؟ وكيف يستيغ ذوو الألباب مثل هذا الهوس ؟ وأنى للزجاجة التى تكسرت قطعاً على حجر أن تستعيد سيرتها بمحض الرغبة ؟ وكيف تعود سليمة على ما كانت عليه ؟ فاليكم عنى ، وأقفلوا باب هذا الحديث . فقد تدنست أذيالى بهذا العار ، وثقل به كاهلى ، فلا تجلبوا علىّ عاراً آخر بل دعونى وشأنى . ولماذا آتى عملا مشيناً ؟ وكيف أحمل — عبثا — هذا العبء ؟ وكيف أعهد بعينى إلى لئيم وضع قذى الأشواك فى عينى ؟ وكيف أقبل أن أسلم قلبى إلى من يصوب سهامه إلى قلبى ؟ والذى شأنه تصويب السهام يستطيع تسديد الضربات وحمل أعلام التشهير . وإنى لأشتكى الآن من ضربة واحدة ، فلا أستطيع أن أسلمه ظهرى ليئوده بحمله . والسالك يمضى لغايته خفيف العبء . وليس هناك من عبء أثقل من العار . فلا تفدحونى ظالمين بهذا الحمل ولا تقصموا هذا الظهر المقوس .

وظل العامريون جالسين ، وامتلأت آذانهم بهذا الرفض ؛ ثم فضوا أخيراً خاتم الصمت ، وأخذوا من جديد فى تنميق الكلام . وقالوا : ختام الحديث عن العار ؟ وإلام هذا الافتخار الذى لامكان له ؟ فقيس ذو خلق كريم لم يتجاوز نطاقه ، ولم يتعد حدود الفضيلة. وحذار أن تعد الحب الذى أصيب به من عيوبه ! وليس من مجال للقيل والقال فى عشقه ، إذ العشق دليل على طهارة طينته ؛ فأنى لقلب لم تتطهر سريرته من الشهوات أن يحترق بنار العشق ؟ وليس من عار فى نقاء السريرة ، ولامنه غبار على محيا الفخار . وقد قلتَ : إن ليلى بما يحاك حولها من قصص قد جللت بالعار بين بنى عصرها وأى مجال للعار وقد أضحت من عشقها طيبة السمعة ذائعة الصيت ؟ وإنما دليل عفتها وجمالها وَجْدُه بها وحاله معها . فلوكانت المعشوقة غير جميلة لم يقع المعشوق فى طريقها ذليلا . وإذا كان الجميل ولم يكن طاهر الجيب ، كان فى وصاله مظنة عيب ، فسرعان ما تنطفىء نار حبه ويموت عشقه من قلب الهائم به . وهذا هو مجال الافتخار فأخبرنا عن العشق ماذا فيه من عار ؟ فمهما قال قيس فى ليلى فهو شاهد على جمالها . ومهما كثر عدد الدلالين فلن يتجاوزوا مجال القول . ودلال الجمال ذو قلب ، فلاعيب فى دخيلته ولاعار عليه . وإنما يظل فى المقام المعوج ذلك المعوج المسلك الخبيث الطبع ، المريض الدخيلة .

وحينما سمع والد ليلى هذه العبارات الصائبة ، كان كالجاهل

الذى تؤلمه الحقيقة ، وانسد عليه طريق الجواب ، فأطلق للسانه العنان بالحلف ، وقال : قسما بالله الذى لايخلو منه مكان ، ليس له مكان والعالم به معمور الجوانب . وليس العالم منه خالياً ، إذ هو ملء الأرواح . وكل ذرة — وإن لم تكن فارغة منه — ليس لها به علم ؛ قسما بالمرسلين من الأنبياء ، وهم الصف الأول من ثابتى الأقدام ، من مارسوا الحكمة ولقنوها ، وهم النافذة البصيرة ، مؤسسو بناء المعارف ، ومحطمو قوى أهل السوء ، ومن ينهض بهم كسيرو الجناح ، وتتحطم بهم شوكة أهل السوء ؛ وأقسم كذلك بأبناء الكعبة مسكناً ، الذين يطلقون من جعبة الكعبة سهام نظراتهم فإذا لكل سهم ألف فريسة خرجت فى مصيدها عما ألف من التدبير إذ هم جميعاً من صيد الحرم ، وتقصر مع ذلك دونهم ألسنة الأفكار لئن طلبتم بجهودكم شعرة واحدة من ليلى لقيس ، وأعطيتمونى ثمناً لها العالمين ، فلن تعودوا فى هذا الأمر بغير الخيبة والفشل . ولشعرة منها خير من ألف مجنون . فليدم له جنونه ببعده منها . وبحسب المجنون الذى يطلب منى الإنصاف ، طالباً ليلى مراداً له ، أن يسلم الروح ، وأن يبلغ غايته بموته من فراقها . فلا تعيدوا على هذا الكلام : ولاتنشدوا تحقيق أملكم فى هذا الشأن .

وحين سمعوا منه هذا الجواب ، بسطوا ألسنتهم بما لاطائل تحته من العتاب ، ورجعوا إلى منزلهم بائسين ، وأرسلوا إلى قيس صديقه الوفى ، وأفضوا إليه بكل ما جرى ، وأسروا إليه بما تفتح من ورد

أقوالهم ، ففقد كل أمل فى الوصال ، وفقد قلبه والراحة والقرار ، وأسال دماء الدموع ، ورقد فى وحل دموعه ، مردداً هذا القول من صدر مليء بالحسرات :

ليلى الروح وأنا لها جسم ، فيارب بروحها المشرقة إلا قضيت على من قضى علينا بالفراق ؛ ألا فليكمن له الموت فى كل نفس من أنفاسه ، ولاتزدهر له حياة ؛ وهذا الإنسان الذى فطر قلبى ، وردنى نائياً عن ديار حبيبى ، لتنفطر — مثل قلبى — روحه ، وليضل به السبيل فى كل البلاد . وهذا الأمرد المتنمر الطبع الذى قذفنى من بعيد بحجر الفراق ، لتزق عقبا قدميه على الأحجار ، وليلتهم رأسه نمر . فقد رمى على قلبى مايشبه الخاتم ، فضاقت به علىّ أرجاء العالم الفسيح ، وهو الذى تركنى من الدهر فى مضيق هذا الدور ، فأصبحت كحجر فى فص خاتم الجور ، ألا فلتنزع أظافره من الأصابع ، ولتقصر يده عن حك ظهره الأجرب (١) .

---

(١) قارن هذه المعانى بما روى للمجنون من شعر يدعو به على والد ليلى ، ومنه :

ألا أيها الشيخ الذى ما بنـا يرضى شقيت ولا هنيت من عيشك الخفضا
شقيت كما أشقيتنى وتركتنى أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا
كأن فؤادى فى مخالب طائر إذا ذكرت ليلى يشد بها قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم على ، فما تزداد طولا ولا عرضاً

انظر شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٢٩ — ١٣٠ والأغانى ج ٢ ص ٢٩ — ٩٣ .

(٢٤)

نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلى

جامع لطائف هذه الصحائف ، قد أستخرج هذه النافجة من معدنها من فراء الظبية ، فقال :

ظل المجنون نائياً عن ليلى ، غريق الأنظار فى دم الدموع ، وتبدلت حاله من اليأس من مطالعة جمالها سيرة أخرى . فشد رحله بعيداً من الحى ، ونفض عن أردانه غبار موطنه . وصار مثل غزال الصحراء ، وحجل الوادى ، يضرب فى صخر جبل اليأس ، صبوراً على كل أذى ، نفوراً من كل من يرى من الناس. ولم يكد يبقى له فوق بساط الغبراء غير الأنس بظباء الصحراء . وفى الليالى حين يذوق طيف السكرى ، كان يلتحف ستار الظلام ، ويجعل من عجيزة حمر الوحش وسادته ، ومن جلود الغزلان الجافة سريره ، وكان ينهض كل صباح من نومه فيملأ الأرض دموعاً ، ويروى من دموعه التى تفيض من كئوس عينيه فى لون الورد ، وندماؤه فى مجلس شرابه الغزلان .

وذات يوم كان عارى الجسم كالقلم نحافة ، قد اتخذ من الرمال صفحة يخط عليها بإصبعه : ليلى ، ليلى . . وفى ذاكرته ذؤابتاها كلامين فى لون المسك ، وهو ينظر بعينية لا سيما حين يكتب اسمها ، وينثر فى عزلته من دم قلبه دموعاً سائلة من جفونه

تشبه النقط ، ينثرها على الرمل ليكمل بهـا كتابة الاسم (١) . وبعد أن يكتب اسمها على الرمال ، ويخلطه برشح دم كبده المقروحة ، يمحوه بمسيل من أهدابه ، ويجن جنونه ممـا يعتلج بقلبه من آلام . ثم يأخذ من جديد فى كتابة هـذا الاسم الجميل ، ويطيب خاطراً بنصيبه من ذلك . هـكذا كان يحيا ، وهـكذا كان يقضى أيامه .

وفجأة انجلى غبار الطريق عن جميع أقبلوا ينشدون الراحة على مقربة منه ، واستووا على مرتفع ممتطين صهوات ركائبهم ؛ مهنتهم الصيد فى الجبال والوديان ، من بينهم من اسمه نوفل (٢) ، كالشمس وحيد دهره ، يده فى الجود كالبحر ، حـلال العقد ببنان كرمه ؛ كالشمس فى النهـار ينثر الذهب نهاراً ، وكالفلك يفيض بالجواهر صبحاً . وهو فى النظم عالى النجم كالثريا ، وفى السجع لطيف الطبع مهيا . خبير بمجالس الأنس مع اللواتى ريق شفاههن خمر ، لطيف المحضر مع ذوى القلوب المـكروبة ضيقاً . فى ميدان الوغى ليث ، وفى حسم أمور الملك سيف ، مرفوع الرأس بتاج الملك ، سخى بكنز نواله .

---

(١) يتخيل الشاعر أن قيساً حين كان يكتب اسم ليلى كان يرسم فى الوقت نفسه ذوائب شعرها الملتوية كأنها اللامات ، ثم يضع نقط الاسم من دم دموعه ؛ وفى الأغانى أن المجنون كثيراً ما كان يرى يخط يده على الرمال : الأغانى جـ ٢ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) قارن ما يحكيه الشاعر عن توسط نوفل فى أمر قيس بما ورد فى الأغانى ، طبعة دار الكتب جـ ٢ ص ١٧ — ١٨ .

وهبط نوفل من فوق جواد كريم ، كما تنفصل عن الغصن الشجرة ؛ واستوى قائماً أمام المجنون ، وفتح معه أبواب الحديث . وقرأ الاسم الذى كان لمجنون يكتبه ويتلوه ، فكشف عن مكنون سره ، وعلم أنه اسم عشيقته ذات الدلال . وعندما رأى ماهو عليه من حداد وأسى ، وأبصر دموعه وآهاته ، أدركته الرحمة بحاله ، فبكى إشفاقاً وقال : أيها الجالس على عرش مملكة الصحراء ، وأيها الكاتب وصفحاته رمال الصحراء : كم تسرف فى استنبات بذور الخيال ! وكم تتبع طريق الهوس حين تخط الاسم على الرمال . فارجع عن وسوسة هذا الخيال ، واربأ بنفسك عن تعذيبها وراء محال . إذا لا ينجح على الخيال أمر ، وما عن طريقه يأتيك معانقاً الحبيب . ولن يسعى إليك طيعاً أملك ، بتلك الكلمة التى تخطها بإصبعك ؛ وهذه الرمال التى تصبغها بالدم لن تستخرج منها جوهرة ، بل حجراً . فالبث معى قليلا ، واصحبنى لتكون رفيق وجليسى فى منزلى . ودع عنك ماأنت عليه من عرى ، وألبس حلة رجل كريم . ولم يطب لك — بعد — طعام ولا نوم ، فنم وأطعم مثل الآخرين ، ليعود لك ماؤك ورونقك ، وتستقيم قناتك بعد تقوس ، فتصير أهلا لوصال ذلك البدر ، ولائقاً بصحبة طلبة الفؤاد . وكأنك الآن أخ الجن ، لا طعام ولا نوم ، فكيف أجعل منك قريناً لإحدى الحور ؟ !

يميناً بمن هو دائماً قسم العقلاء ، إذا أستمعت لقولى فأنا عند كلمتى لك . وسأبذل فى الأمر جهدى ماستطعت ، حتى

يطيب ريقك بذلك الشهد ، فأجعل من ساعديك حمائل لهذه الحسناء .

وإذا صعب أمر كان المسعى إليه إما بالبكاء توسلا ، وإما بالذهب ، وإما بالقوة (١) . ولا يليق التوسل بالبكاء من ذوى الكرامة ، فهو غير جميل بمثلك . ومهما أنفق من ذهب فسابذله حتى أسعدك حالا . وإذا لم يستقم الأمر بالذهب فلا عليك ، إذ هذا مجال قوى السواعد . وسأحل العقدة التى تقف فى طريقك بطرف السنان ، فإذا كلت رءوس السنان بترتها بحد السيف .

وسمع المجنون من كلام نوفل حديث السحر ، فرقى به من خيالات الجنون ، وآب إلى طريق الرشد ، وحمد مسلك العقل . وأضحى مع الآخرين رفيق نوفل فى الطريق ، حتى وصل مخيمه ، فغسل جسمه ، وحلق شعره ، وارتدى حلة ، وتعطر . فكان شبيها بنبت السوسن ينفح الطيب ، وقد نفض عنه الغبار . ولما وضع عمامته كما يفعل العرب ، تبدى كغصن متوج بزهرة السوسن . وكان نوفل يرتجل معه الشعر ، يحثان الخطى فى سرور . وكلما وجد نوفل تعلة ، ردد ألحانه بأغنية جديدة ؛ ثملا بالضرب

---

(١) فى الأصل جناس فى الألفاظ لا يمكن ترجمته بين الكلمات الفارسية الثلاث : زار (انتخاب) وزر (ذهب) وزور (قوة) وإليك بيت الشعر الفارسى :

كارى . كه زساختن بود دور سازند بزارى أوزر وزور

فى عرض الصحراء . وقد بالغ فى إرضاء قيس ، فكان حيناً يساجله الغزل والنسيب ، وحيناً يتحدث معه عن الحبيب . وما إن مر بعض الوقت على هذا النسق ، حتى صار المجنون أكثر رونقاً من سالف عهده ، فعاد لقده رواؤه ، وصار نضراً كورق الورد المونق . وكان فى لحيته القصيرة ومنطقه الفصيح ينثر عذب القول فى مجالس نوفل . تتألق وجنتاه فى اختيال الطاووس ، تغار منهما شقائق الربيع . وقد بدأ المجنون فى لطف ملك . قد أضاء جسمه شعاع الروح . وصار قيس — المجنون بعد أن فارق الاضطراب رأسه — متزناً رصيناً . وموجز القول أنه أصبح فى حالة هو بها أهل لليلى . وصار كما تشتهى ليلى ، بحيث تعزف عن الخمر بخمر حبه . وأبصر نوفل هذا التطور ، وقاده بحكمته إلى الطريق ، حتى وصل إلى حى ليلى ، وأرسل إلى والدها قولا فيه طلاوة ، فأقبل الوالد للقائه بصحبته أعيان قبيلته ، فاحتفى به نوفل كل الاحتفاء ، وأنزله من نفسه أكرم منزلة . وسنحت له الفرصة للكلام حين جلسوا على الموائد ، ومد الخوان . فأفاضوا فى مئات القصص بين قديم وحديث . ثم تخلص من ذلك إلى الغرض فقال : إن قيساً الطيب الصحبة منا بمنزلة الابن ؛ وهو خير من عنهم تتحدث ، وفيه كل الفضائل التى عنها تبحث . وأريد أن توليه شرفاً يسمو به درجة أخرى بين ذوى الفضل . فاشمله بنظرك ، واغمره بعطفك ، ومد له بسبب إلى أصلك . وانظر ماتريد من مال وذهب ، فما تشاء منهما قمت على قدمى أمامك ، وصببته تحت

قدميك . ونكون معاً حلفاء أوداء ، فى صفاء قلوب على دين الولاء وعقب على قوله مرة تلو أخرى ذلك المر الجواب الخشن الخطاب . وكلما قدم نوفل سبباً ، قدم والد ليلى تعلة عنه . وحاوره نوفل فى إجابته وغلبت حجته ، وكان الآخر يرد عليه . ويستدرك على قوله ؛ وغلى صدر نوفل غضباً لفرط ماأبدى الوالد من تعلات ؛ وضرب نوفل على صدره حاداً فى قوله كالصمصام ، وتوعد بلغة السيف قائلا :

أيها الهاذى فى قوله ! ادع حادى ناقتك ليعود بك إلى صحرائك ، فإن أشفق بسبب خطلك أن تعود راجلا بلا إبل . انهض وليأخذك الوجل على حالك ، ولتشغل بالك بالخوف على آلك ، إذ سأزحف عليكم بجيش كنوازل الدهر يبيتكم بالسوء ؛ ليس بالبحر ، ولكنه بحر فى إثارة الرعب ، أمواجه السيوف والخناجر البتارة . وفى هذا البحر سيغرق قومك فى الدماء من أخمص قدمهم حتى مفرق الرأس ، أو فهبنى تلك الجوهرة النقية ، يكن لك على ألف منة ، وترفع رأسى بذلك حتى عنان السماء ؛ وسأولم لعرسها كالعيد ، وتأتى لها يوم الزفاف جموع الحور من الغيد ، تسعى على بساطها تقبلها .

وأجابه والد ليلى : أيها الملك ! أصرف عنانك عن هذا الطريق ، فمهما كنا غير ضارين بالحرب ، فلن نضيق بها ذرعاً إلى هذا الحد ، وفى اليوم الذى تدق فيه طبل الوغى ،

وتنفخ فى النفير ، سنخوضها مسرعين فى الخطى . فإذا أحرزنا عليك النصر كان ذلك اليوم عيــداً مجدوداً ، وتخلصنا من عذاب قبضتك ، ونجونا من أهوال عقابك . وإذا واتاك الظفر ، ونكس منا علم النصر ، فسأنطلق كالبرق صوب منزلى ، وأشق الصدر من جوهرتى النقية بضربة سيف ، وأودعها الثرى مضرجة بدمائها ، وأوارى جسم هذه العروس مقرها من القبر ، مكفنة فى الدماء ، ومجلوة إلى الضريح ؛ وأعيش فى دار الهموم مستريحاً من سمعة العروس وعــار الصهر ، ولمواراة هــذه الحسناء التراب خير من وقوعها بين يدى ملوث الشمائل . ولإيداع هــذه الجوهرة تحت حجر القبر خير من هبوب رائحة الدنس من دنىء الخلق .

ولمــا وعى نوفل ماأفضى والد ليلى به أخيراً من حديث أومأ بطرفه إلى قيس : أن ألق بسمعك .

وأبان قيس عن خلقه الفاضل ، وأبدى من الشجاعة فى المعركة بينهما ، وافتر فمه عن سحر الحديث ، فقال : ياذا الحديث السوء ! يامنــكر الصوت ! إن الريح التى تهب من تحت أقدام الجهل تثير الغبار فى ناظرة العقل . والــكلمة التى يخطها غير العالم بها فى الــكتاب تسود وجه كاتبها . ونوفل لايتكلم عن جهــل ، وإنما يرسل النكتة الحلوة السهلة . وكان مايقوله لب لاقشر فيه ، وكل مايتلفظ به بديع طيب ؛ فلا تطو صحائف حكمة ، ولاتثن صفحة القلب عن صائب درسه ، فهو فيض نسيم اللطف ، وليس

هو بملك مغترفظ . والحكمة التى تخرج من قلب ملك نور ينعكس من دارة القمر ؛ فمن نأى عن ذلك النور بقى مطموثاً فى الديجور . وليلى عذب ماء حياتى ، وأنا المحترق الظامىء الروح . فهلا أقبلت بوجهها على الظامىء إلىماء وصالها ! فإن فى تراب قدمها قــوة لمن أثقلت رءوسهم الآلام . وليلى وردة على شط ينبوع ، وحسبى من الوردة ماتنفح من عطر . ألا فليبق القلب كالبستانى لتلك الوردة ، يحــاذر أن تخرج من حديقتها . وليلى فى مقام الروح مصباح ، ولى من هذا المصباح حرقة الصدر ، ألا فلتدم لى منه يارب حرقة الآلام .

وعلى نطق اسم ليلى تجهمت وجوه أولئك الذين أعماهم الحسد ، فأطلقوا فى وجهه صيحة قائلين : أيها الغر : علق لسانك فى سقف حلقك عن نطق هــذا الاسم ، فسبيله غير ميسرة لك ، فأى جدوى ، إذن ، لك منه ؟ فلتقطع دونه لسانك ، ولاتهذ بالنطق به مرة أخرى . ولا تدنسه بنشره بين النــاس ، وإذا لم تمسك عنه بمنطقك لأنك فقدت العقــل ، فسنقطع منك اللسان ونفصل بين روحك والجسد .

وإنقطع أمــل المجنون على سماع هــذه الــكلمات ، فتوجه باكياً إلى نوفل قائلا : يامرهم الروح ودواء الألم ! أطلب لى من هؤلاء العنيدين أن يتركوا ذيدنهم فى حملتهم على ريثما يضع الطائر منقاره فى ماء النهر مرة أخرى ، فيفتحوا لى باب الرحمة كى أرى

محيا ذلك الحبيب ، وأنظر إليه مرة من بعيد ، ويكون لى ممايعلق بخيالى من تلك النظرة ذخيرتى طوال العمر فى ليالىَّ الحالكة ، وأيامى السود .

فقالوا له : دع هذا الخيال ، ولا تتعلق بأسباب المحال ، وإن رؤيتك إياها ، أيها المخبول ، لكالماء لمن أصيب بالكلب . فانهض وأصرف نفسك عن هذا المطلب ، ودع من رؤيته رهينة بموتك . وإذا ظللت على حياتك قرين الأسى فمت فراقاً فى مقام أساك .

فلم يصل المجنون إلى غايته بعون الصديق . ولم يبلغ أمله مدى حياته . وحينذاك ، قال لنوفل : أيها الجائر والذى وعده سراب كله . قد قلت لى إن آلام قلبى إلى ذهاب ، قلت ولم تف بما قلت ، ولكن لاعليك ! فهذا خطئى ، إذ هذا النور يفيض على من هو غير أعمى . قد رفع نحسى علما ، وانتكس علم سعدك. وأين أنا من قصص أرباب العشق ؟ وخير لى — إذ لم تنجح حيلتك— حياة الخبل والجنون .

وما إن نطق بهذه الكلمات حتى نهض من مكانه ، راقصاً على توقيع كلامه ، ورمى بعامته كالزهرة ، كما يرمى الغصن بأوراقه فى الخريف ، فاقد الأمل ، تعتلج بالألم دخيلة قلبه ، يضرب رأسه بقبضة يده ، كأنه شجرة ساج ، يثير بكاء الخلق وهو يحثو على رأسه التراب . والناس من حوله يضربون بالأحجار

الصدور ، يمزق بيده صـــدره الضائق . وقـــد استخفه الطرب ، فمضى هامساً بهـــذا اللحن :

ليلى على عرش الطرب والدلال ، والمجنون أسير أسى الأشواق. وليلى عنانها بيد الأباعد ، وقيس جلساؤه حمر الوحش . ليلى مـــع هـــذا وذاك طلقة المحيـــا ، والمجنون يعدو فى الصحراء مـــع الظباء . وليلى مطمئنة الدار بين قومها ، والمجنون فى شعاب الجبال مـــع الغزلان . وليلى تشنف آذانها بالألحان ، والمجنون لايصغى إلا لصفير الأفاعى والنسور . وليلى قمر دارة قصرها ، والمجنون سجين كهوف الأسى . حقاً لـــكل امرىء شأن ، ولـــكل أســـد مرعى ، والحظ لايشترى بدرهم ، وإيوان الجنان لا يجلب انتزاعاً . والخير أن نحيا على سوء العيش وطيبه ، ولـــكل امرىء ماقسم له . ومادام الورد قد أعوز ، فالنقنع بالشوك ، ولنعش فى الأشواك حتى الموت .

(٢٥)

إعصار فى الصحراء

مطلق ريحان حريم هذا البستان قد نشر هـذا النسيم الطيب الروح فقال : إن ذلك الشبيه بشقائق النعمان ، المـكتوى الفؤاد الولهان ، حين آب من صحبة نوفل وصحبه ، صار طليقاً من كل المجتمعات ، هائماً على وجهه فى الجبال والوديان . فأينما كان يلمح من بعيد إنساناً كان يهرب منه ، شأن الظباء وحمر الوحش .

وذات يوم زاد به الحال(١) والوجد ، وكان فى بعض جبال نجـد . فامتطى صخرة على قلة الجبل ، ونظر فى كل الجهات ، توقعت نظرة منه على ديار ليلى ، فجرى دمعه على الجبـل سيلا ، وقد استقر شوقه فى دخيلته كالجبل ، وتحطمت قارورة صبره تحطما . وكان يتوق إلى رؤية أمرىء يقبـل من ديارها ، ليحمل إلى قلبه القرار ، ويشرح له من أهوالها وأحوالها ، ويصف له ربوعها وأطلالها . وفجأة انجلى غبـار الطريق عن سواد رأى فيـه عمود إعصار ، وقد حمـل من تراب أرض الحبيب ، فانعقد على وجهه من ذلك الغبار نقاب ، وخر ساجداً على الأرض ، وانطلق لسانه بهذا القول مرحباً بمقدمه : أيهذا الذى تدور على

(١) الحال ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل كحزن أو خوف ، وللوجد معان كثيرة عند الصوفية ، منها أنه لهب متأجج من نار الحب ينبعث منه لطلب الفضائل الخلقية والكمالات الإنسية : أنظر الكمشخانوى : جامع الأصول ص٨٥، ٢٠٨

نفسك فى رقصة الصوفى ، تقطع طريقك فى غير عسر ، تجوب السهول والوديان ، لاتقر لحظتين فى مكان ؛ سواء أمام أقدامك الهضاب والسهول ، تنطلق فيها سهل المسير ، وتلتوى على نفسك كالتنين ولست بتنين ، ورأسك فى السماء كالتنين ؛ تجول فى الهواء جولانا . قائم كنخلة تتطاول على القصور ، ولا يرى لك من فروع ولا جذور . ولو كنت قد نبت فى بستان ، لدنا جناك وانتثرت منك الأوراق ؛ ومحال أن يكون طريقك بدون غبار ، أو يقر لك فى مكان قرار : سامق الأشجار منك صرعى ، ترمى بها من عل ، على حين ترفع العثير والأشواك ؛ تتلوى كالدخان ، وأى دخان ! هو دخان من سواد وزرقة . أجيدت نقوش مبناك وسقفك ، كأنك عمود فى قصر إرم . تبدو الدنيا بك سفينة أنت لها شراع ، أو كأنك صاريها ذو الشراع الدائم الدوران ، تقلب عالى ذلك المسكن سافله ، وتدمر مئات الألوف من البيادر .

قلبى اليوم جذلان ، وصدرى منشرح بمقدمك خير مقدم . قد اتجه بك دليلك صوبى ، فروحى فدى لتراب أقدامك . مررت بى كرماً ، ورددت إلىّ ماعزب عنى من سكينة . قد تزود رحلك من ديار الحبيب ، ولذا أشم منك طيب المسك التتارى . ومن ذلك التراب عطر محملك ، كالمسك القطيف من جلود الغزلان . فصب على مفرق من غبار أعتاب الحبيب ، وضع منه كحلا لعينى الرطبتين بالدموع . ينفح بالمسك ماتحمل من أشواك وعثير

فهى ريحان رطب وعود ند جاف . وبذلك العـود تتّقد عالياً نارى ، ويستروح قلبي منها الرقية . أفض إلىّ بكل مالديك . وقـل لى من أخبار ذلك العالم الذى منه نجمت . وكيف حال قلبها بدونى؟ أمـا أنا فقلبي بدونها يدمى حزناً ، ولم يعبر النسيان ذكراها ، ولم أفتر عن ترديد اسمها . مـع أنى لم أمر قط ببالها ، ولم يتحرك بحديثى لسانها . وهيهات ! ! أى مـكان لهـذا السؤال ؟ ! إنى متعلق من هوسى بمحـال . وكيف يتوجع ذو عرش من أجـل سائل ؟ وكيف يلقى القمر بالا إلى السها ؟ خبرنى من الـذى يرافق فى الليل كلابها ، فيمرغ رأسه على أعتابها ؟ — وبينما هى تردد عـلى فراشها طيب الألحان ، أظـل على سرير الهموم أتوسد الأحجـار! وهى تسلم جنبها إلى لين المضجع ، وأنا طريح الغبراء ، ذليل الوجه على الثرى ! — وينبلج الصبح فتغسل وجهها كالشقائق بمـاء الورد ؛ فمن هو أول ساع إليها ؟ ومن الذى يفتح ناظريه على رؤية محياها ؟ ومن الذى أخـذ مـكانى على دمنها باكيـاً على الطلل ؟ ومن الذى يدور من بعيد حول مخيمها ليظفر برؤيتها ؟ ومن ذا يتمتع مسروراً بدلالها ؟ ومن ذا يبكى بين المتولهين فى عشقها ؟ ومن الذى يسرع إلى التقاط شهد الحديث حين تنثره من شفاهها ؟ ومن الذى تلفحه أحياناً نار الشوق من بعادها ؟ ومن الذى يحث خطاه فى طريق الطلب ؟ ومن الذى يضع فى ركاب الجهد قدمه نهاراً ؟ ومن الـذى يبقى من مسيل جفونه من أجلها فى وحـل ؟ ومن يمضى أمسياته بدارها ؟ ومن الذى يقيم دون أقدامها ؟ أمجلوة

على كل الوجوه محجوبة عنى ! قريبة من القوم وأنا منها ناء ! ! وأنت ريح خفيف المسير وأنا التراب ، وأنت صرصر وأنا العشب الجاف ؛ فحين تأخذ طريقك إليها ، احملنى بيد لطفك إلى منزلها مع ماتحمل من غبار ، وارفعنى كالعشب الجاف إلى رأس طريقها ، لأرى مرة أخرى جميل محياها . وإن لم أكن لذلك أهلا ، فدعنى غريباً مريضاً ؛ ولكن اشرح لها سقامى ، وردد على سمعها ماترى من آهاتى ، إذ أمل روحى أن ترى هى ماأنثر من دموع الدم .

ولا يقع فى ظنك أنى منذ تأيتُ عنكِ كنتُ صبوراً ، فقد تمزق إربا قلبى ، ولكن ماذا أفعل وما الحيلة ؟ ! وكل جسم بعيد من روحه مكتوٍ بحرقة الفراق ، وليست وحدته عن صبر ، وبوده ألا يفترق من روحه ، لكن ماذا يفعل ، وماذا يستطيع ؟ ! قد تعلمت كل حيلة ، ولكن لم أفد لا من صلح ولا من حرب .

وحين لايسعف القدر ، لاجدوى من جهد شاب ولا من حنكة شيخ . فأنا من الآن نهب لواعج الأسى ، أسقط إعياء فى المساء فاقد القوى ، وأقوم بالأسحار بين الموت والحياة . وأعلم أنك مثلى تعانين ، وأن كل حيلة فى أمرى خارجة عن طوقك . ولكن لى عليك إذا بلغ أجلى منتهاه ، على قدم جبل أو جانب من غاز ، أن تذكرينى بعد مماتى .

هـــكذا أعرب عن آلامه . وحين طوى كوكب النهـــار أطناب خيمته الذهبية ، وضربت القبة السماوية سرادقها الأسود كخيمة أعرابي ، وضع المسكين رأسه على حجر ، وامد على سرير من الحسك ، فاقد الشعور ، لم تهنأ عينه بنوم طوال الليل ، ولـــكنه بقى فاقد الوعى ؛ وهـــكذا كان ينـــام (١) .

---

(١) يقع أحياناً فى كلام المجنون تـكرار لنفس المعانى ، وأحياناً ما يوقع فى اعتقاد التناقص فى خواطره ، ولعل المؤلف يقصد بذلك إلى تصويره بصورة من من اختلطت خواطره لاختلاط فـكره ، وقد نقلنا النص على ما هو عليه كما تقضى أمانة الترجمة . هذا ؛ والمجنون فى نومه لا ينشد الراحة ، ولـكنه مشغول بما يعانى من وجد . والفرق بين نومه ويقظته أنه فى نومه يفقد الشعور والوعى بما حوله ، ولـكن وعيه الباطنى يظل غير مفقود . قارن هذا بما يحكيه الجامى عن نوم بعض الصوفية الذين بلغوا فى قربهم من الله درجة قصر عنها سواهم : انظر الجامى : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بجامعة القاهرة ، ورقة ٢٠٤ .

(٢٦)

الظبيـــة (١)

عندما كسا الصبحُ وجه الأرض من خيوط الغزالة (٢)غلالة من الذهب ، ونفض عن الفلك ينبوع قار الدجنة ، فاسترسلت من قرن الشمس قطرات النور حلوة وضاءة ، حينذاك فتح المجنون ناظريه من غيبوبة نومه على مابه من بلاء ، وخف نشيطاً من فوق الأشواك والأحجار ، حتى لــكأنه شرارة انبجست من الصخر . وهبط من الجبل إلى السهل ، ثم أخذ يدور فى السهل كالإعصار ، ينظر إلى قطعان الحيوان ، مرسلا من صدره توجعات الأسيان . وكان يحسد الطير والوحش (٣) ، وترسل عيناه الدموع قائلا فى نفسه : لــكل مفارق خلاص من فرقته ، أما أنا فأسير لاخلاص لى . ولــكل حى رفيق هو أنيس وحدته ، فهو على قرار فى طعامه ونومه ، ماعداى ؛ فأنا بمعزل من الأليف ، ضال فى وادى الفراق ، لا طعام لى ولا نوم . وإن الجبــل لينوء بما أحمل من عبء . وبينهما ينقل على هذا التخيل الخطو ، إذ به

---

(١) فى أخبار المجنون أنه كثيراً ما كان يفدى الظباء حين تقع فى أشراك الصيد ، يرجع مثلا : الأغانى طبعة دار الكتب المصرية ، ص ٧٣–٧٤، ٨١ –٨٢ .

(٢) الغزالة : الشمس وهى نفس الكلمة فى النص الفارسى .

(٣) المعنى هنا مأخوذ من قول أبى صخر الهذلى :

لقد تركتنى أحسد الوحوش أن أرى ... ألفين منهـا لا يروعهما الذعر

(ديوان الحماسة ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ج ٢ ص ٦١) .

يرى من بعيد شبكة نصبت حيث يسرح الغزلان ، وقد وقع فى ربقتها غزالة . وأصلت الصياد السفاك على رأسها سيفاً حاداً ذا بريق كبريق عينيه . والغزالة ترتعد جزعاً أن يسرع الصياد بفصل رأسها عن الجسد . فأطلق المجنون على رؤيتها صيحة ، ليأخذ على القاتل حتى يصل إليه . ثم أخذ بيده وأهاب به ، قائلا : الانصاف والعدالة من جورك ، فاتق الله إن كنت ترجو منه خلاقاً ، وكف يدك عنها ابتغاء مرضاته . واحملها بيد اللطف ، وأبعد سيفك عن عنقها وقيدك من ساقيها . فساقها قلم خيزرانىّ ينشق رأسه حين تعدو ، وهى تخط على صفحة الأرض بأربعة أقلام . وما من شك فى أن هناك سبعة أقلام وقليل مابين الأربعة والسبعة . فلا تكسر هذه الأقلام بقيد الإسار ، فإنه لا يجوز عمداً تحطيم الأقلام . ولا يليق بحال أن يسام مثل هذا مقود العسف . فهذا ظلم لدى العقول النيرة ، فاجعل من قولى حلية لجيد المعرفة . واصرف عنانك عن هذه المظلمة ، وخلص عنقك من ربقة العهدة . وانظر إليها إن كنت ذا عينين ، وتأملها من رأسها إلى القدم . فمن الجور أن يطفأ النور من عينيها اللتين غنيتا بالكحل الإلهى عن كحل المرود ، فتحرمها ذلك النور . أترى ذلك الجيد الحالى على عطله ، الذى لم يمسه سهم صائد ، أليس أهلا لقلائد الذهب ؟ فياذا القلب الفولاذى ! أى مكان فيه للسيف ! وهذ الصدر النقى كصفحة من الفضة ،

شبيه قلبي ، ليس أهــلا أن ينفطر ! وإن صدرها لطاهر الطوية من ضغائن الناس ، فأى ضغينة لهـا فى صدرك ؟ ! فخـذ مكانك إلى جانبها فى لطف ، وحررها من يد عسفك . والخنجر قلم فى قبضتك ، فلا تكتب به على لوح الظهر ، ولا تحمـد القيد لمثل هـذا الأسير ، واتركه ، مترفقاً به ، حراً من القيد . ألا ترى جيدها وظهرها ؟ آيتان من آيات الجمال والدلال ! فانزع أسنان الطمع من عجيزتها . فمن مد يده حول الفخذ استهدف أن يأتى بأمر (١) . وكيف تكون الحال إذا تمزق فراؤه الذى ينفح — مثل نافجته — المسك ؟ ولأن تطعم معدتك الجشعة التراب خير من أن تغذيها بقطعة من ذاك اللحم .

وصاغ المجنون من أقواله للصياد شبكة ليصيده بها ، فوقع الصياد فى قيده كما كان الصيد أسيراً له من قبـل . وذاب شمع قلبه رقة ، فرمى بسيفه من يده . لـكنه ظـل يفكر فى هم عياله ، ولا زالت الظبية أسيرة قيده . ولم يكن على جسم المجنون حلة ، ولا على رأسه عمامة ، فتحير مفكراً فيما يمنحه الصياد . فخف إلى قطيع أبيه ، وأخذ منه شاة لم يمسها من الذئب سوء ، ثقيلة العجز ، ذات إلية جميلة المنظر ، قد اكتنزت شحما من رأسها حتى القـدم . وأحضرها ، وأعطاها الصياد . وبسط عـذره له قائلا : إن هـذا الصيد الذى هممت به شبيه ليلى جيـداً وعيناً . ولن أقومه أو أساوم

(١) أى أن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه .

فيه ، فكل شعرة منه تقدر بشاة . فلا يقع فى ظنك أن هذا ثمن له . وإنما حملته لك فداء . فامنحنى رسن الظبية ، إذ هى فى يدى خير حالا ، لأدين لها بالخضوع مكان ليلى ، وأطلقها فداء لليلى .

وحين تسلم المجنون قيادها قبلها مائة قبلة فى عينها النجلاوين وحل عن عنقها رسن الصوف ، وطوق جيدها من ساعديه بطوق من ذهب ، وكحل بتراب أقدامها عينيه ، وغسل وجنتيها بدموعه ، قائلا : يامن جيدك كجيد الحبيب ، وعيناك عيناها ، غنيتان بألوان الفن ، لو أن ساقك ، لماذات الساق الدقيق ، كان من ذهب ، وممتلئاً كساقها ، لقلت بلسان الصدق مؤكدا : إنك أنت هى وهى أنت . مادام حبيبى ينعم بالسلام ، فظلى طليقة من سيف الخوف ، وأرعَيْ حول ديار الحبيب ، واقطفى السوسن ، واطعمى الخزامى . وعندما ترعين الخزامى حول ديارها ، رددى مثلى الدعاء لها : ليدم ذلك المحيا ندياً كالخزامى ، ولتدم ذائعة صيتها بالحياء والعفة ! ! وعندما ترعين السوسن فى المروج القريبة منها ، فليدركك الشجن لذكرى طيب غدائرها تنفح مسكا ، ولترددى : ألا لا ير إنسان تلك السوسنة الندية ! ولا يقطف امرؤ من بستانها غصناً ! .

وانطلقت الظبية ، وجدّ على أثرها كأنه أحد أطلائها (١) وتابعها حتى ديار الحبيب ، وأخذ مكانه هناك دون صخرة من

---

(١) الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ، جمعه : أطلاء .

الصخور ، وانصرفت الغزالة ترعى فى المروج . فكان ذاكيَيْن من فراق الحبيب ، وهذه تطوف فى المروج حول ديار الحبيب ، حتى غابت الشمس ، وأقبل القمر ؛ ثم أغار الليل بدجنته ، فلم يعد أحدهما يرى الآخر ، واستلقى كلاهما على العراء ينشد الراحة .

(٢٧)

لقـــاء مع راعى ليلى

حين انبلج الصبح ، وبدت الشمس وكأنها أمل من لا أمل لهم ، تنثر عن إبريقها خيوط الذهب ، وتصب من حقتها جواهر الضوء . دار المجنون — وقلبه نهب لألف يأس — فى الجبـــال والوديان ، يردد اسم ليلى ، رفيقه فى طريقه دموعه وآهاته . وأينما رأى أثر مسافر طـــار إليه من بعيـــد كالريح ، وخف إليه كنسيم الصبا ، جاعلا من غبار قدمه كحلا لناظريه ، يستخبره عن أحوال ليلى ، وملء قلبه نار ليـــلى . وفجأة أقبل قطيع من الطريق على رأسه راع مرح ، محدث فى مجالى الطرب ، عليه عباءة صوف سوداء ؛ شبيه موسى : فى كفه عصا هى فى عين الذئب ثعبان (١) مبين . فألقى بنفسه دونه ، كأنه ظـــل وقع دون قدميه ، وقال : له لمامن قلبي وروحي فداك ! ! ضوء بصرى فداء لغبار أقدامك ! إنى لأجـــد منك ريح الصداقة ؛ فمن أنت ؟ ومن أين أنت آت ؟ وأى أثر يحمـــل هـــذا القطيـــع الحسن المنظر من معز وضأن الذى حف بك من أمام ومن خلف ؟ ومن منزل من قد أتى ؟ فإنى أشم منه ريح المسك والعنبر . ولمن ذلك المراح الذى فيه يبيت ؟ .

---

(١) فى الأصل أزدها وهو التنين .

فقال الراعى : أنا راعى ليلى ، وقد ربيت على موائد ليلى ، ومن هـذا القطيع خير جودها ، وهو ثروتها النامية . وتلك السمات برؤس القطيع وآذانه من صنع لمدها ، وهو يأوى فى الليل إلى مسكنها ، فذلك الطيب هو من عطر أذيالها . فأينما خطرت فى غدائرها المتهدلة ، وجرت أذيال الدلال ، فإنها تنشر على أثرها رائحة المسك ، ويفيض من طيب روحها ريح العنبر .

وسمع المجنون وصف حبيبته ، فتمرغ فى وحـل دم دموعه ، ووقع على الأرض فاقد الوعى ، فلم تعـد ترى عيناه ، ولم يستطع لسانه كلاماً ، وبقى على الأرض طويلا فاقد الرشد ، وظل على حالة ردحاً من الزمن . وأخيراً عاد إلى رشده ، فأقبـل على الراعى باكيا يقول : أيها الأمين المدل بدار الحبيبة ! ويامن تبيت كلباً حارساً على عتبة دارها ! ماذا لديك اليوم من أخبارها ؟ نبئى فى صدق عن كل ماعندك من أحوالها . إن صدرى ملئ بالغم حتى الشفاه ؛ فبالله إلا جادت على شفاهك .

فأجاب الراعى : فى الحى فرصة طيبة لك الآن حول خيمتها إنسان . وهى وحدها فيها كالهلال فى دارته . وقد شد رجال القبيلة رحالهم وخرجوا من عرصة الحى ، يتصيدون غفلات بعض القوافل ، فهم لهم منـذ الغداءة كامنون ، ليغيروا عليهم دون أن يأخذوا حذرهم فى الحراسة .

وسمع المجنون هـذه البشارة .فاشتد به القلق ، وشن عليه صبره

الضائع غارة ، وقال للراعى : أيها الراعى الحميد الخلق ، من على بعطفك ، واستجب لرجائى ، وامنحنى هـذه العباءة القديمة ، يكن لك على ألف منة . فهى سوداء ، وهى أليق بى ، أنا المحروم من حبيبى القديم . فأعطنيها ، لعلنى أدق بها ، خفية ، طبول الطرب ؛ على الرغم من أنه لايقع فى حيز الإمكان إخفاء طبل تحت عباءة .

قال هـذا القول وأرتدى العباءة ، ومضى فى طريقه يجيش بالشوق ، وغشى الحى فى طلب ليلى : مردداً فى نفسه صيحات الوجد . وكلما تقدم خطوة فى الطريق كان يغيب قليلا عن وعيه . فلما وقعت عيناه على منزلها تقوض كيانه عن رأسه وأطلق من قلبه المكروب صيحة ، ثم خر على الأرض كأنه للظل . وسمعت ليلى صيحته فعرفته ، وخرجت إليه ؛ وبصر بها المجنون مقبلة من باب خيمتها ، فخرج من نطاق عقله . وعلى رأسه جلست تصوب إليه من عيونها قاتل النظرات ، وترسل من نرجس ناظريها سهام الفتنة . وصبت على محياه من ماء الدموع ؛ وليس بماء ولكنه من الدم . فأفاق من نومه الثقيل ، وترددت فيه أنفاس الحياة على ماء نرجسها . وجلس ينظر إليها ويحادثها . وظلا يتناجيان ويشرحان همومهما ، فاشتكى المجنون إليها من أهوال السفر ، وصاغت ليلى درر الكلم فيما تعانى من أسى الإقامة ، وقرأ عليها حديث الجبال والوديان ، وثنت هى بشرح قصص العزلة واليأس . وكان

يصف لها مايرســـل من آهات ، فترسل الدموع تغسل خدودها . قال لها : بدون محياك أظــل كالمحتضر . فأجابته : آلامى أشــد تباريح . وقال : إن قلبى قد تناثر مزقاً ؛ فأجابت : هــكذا الدهر ، فما الحيلة ؟ ! وقال : لقــد سئمت العيش وضقت ذرعاً بنفسى . فأجابت : إن موتى قد أطل حينه صائلا . وقال لهــا : قــد صهر الهجر روحى ؛ فأجابت : فى الوصال الدواء . وقال لهــا : أنا بدونك فريسة الجوى . فأجابت : وأنا من أساك على شرف الهــلاك . وقال : قلبى جريح الهموم . فأجابت : جراحى أشد عمقاً . وقال لهــا : لن أبرح هــذا الحى . فقالت : إذن فتخــل عن روحك . وقال : طال أصطلائى بالنار . فأجابت : أتخذ الصبر ديدناً . وقال : روحى فداؤك من حبيبة . فأجابت : عيونى تمطر الدموع . وقال : ليس من طبعى الصبر . فقالت : وليس لنــا سواه من دواء . وقال لهــا : ماأطيب النجــاء . فقالت : ما أشد محنة الفراق ! ! وشــكا المجنون من ذوى الحقد والضغينة ، فدعت عليهم بالويل والثبور . وقال لهــا : قد فطر الأسى قلبى شطرين ، فأجابت : وما الأسى بالقياس إلى كرم الله ! ! .

وعندما أفرغا كل ماعندهما من قول وفضا مالديهما من أسرار ، التهم نار الخوف قلب ليلى ، خشية أن يقــدم فجأة من الطريق هؤلاء القوم الذين ضؤل حظهم من العقــل والدين ،

فيعجلوا بخاتمة هــذا الولهان ، شاهرين عليه سيف الظلم ، حيث لايسرع لنجاته أحــد ؛ فقالت له : أيها الفرد بين العاشقين ! وذا المروءة فى وفائك ! أسرع بالانصراف ، فسيف القــدر مصلت على رأسينا كلينا ؛

فوقفا معاً للوداع ، وأسالا من جفونهما أنهار الدم ، ثم انصرف إلى العراء يضرب من جبــل إلى جبــل ، وبقيت هى فى مكانها كأنها من الهم جبــل ؛

نعم ؛ هــذا ديدن الدهر الغــادر ، فأقصر عن طلب الراحة فى هــذه الدار ؛ فقد تعانى فيها قرناً من البلاء والــكروب ، لــكى تجلس لحظة كالمستريح ، ولا تكاد تدفىء مكانك بالجلوس ، حتى يتعجلك الدهر فى غير استحياء ، ويأخذ بيدك مهيباً بك أن أسرع بالإنصراف ، ويقرع قدمك أن لُذْ بالفرار .

(٢٨)

المجنون وكثير أمام الخليفة (١)

كان كثيرٌ مشرق الديباجة فى القول بين فصحاء العرب ، وكان فى سماء النظم نجماً نيراً ، وكان هائماً بعزة التى يحسدها لجمالها الحور العين ، وتمحو بجمالها رونق فاتنات الصين . وكان هيامه بها يفوق القياس ، مثل قيس فى هيامه بليلى . ولما تفتحت على نسيمها زهور فصاحته ، قال فى هواها ماقال ، وشعره فى طلاوته مدين لذلك الهوى . نعم ، ملح الفصاحة من العشق ، ونور فلك البلاغة من العشق . فمن حرقة القلب يكتسب القول قوة وحرارة ، ومن شعلة العشق يضيء الفلك .

وذات يوم دعا الخليفة كثيّراً ، وأجلسه على مائدة كرمه ، وقال له : على مائدتى خذ مكانك اليوم ،وأضيء بنار عزة مجلس القوم ، فرفع كثيّر صوته بلحن لذكرى حبيبته ، وأطلق من عينيه مسيل الدموع . فصير — من دمعه ونظمه — أذياله مليئة بالعقيق ، والمجلس مليئاً بالدر . ورأى الخليفة منه هذا الأسى والألم ، فسأله قائلا : أيها الفتى ، أعلم أنك رأيت كثيراً من العشاق ، فهل رأيت بينهم لك شبيهاً ؟ فأجاب كثير :

---

(١) هذا اللقاء أصل تاريخى بين كثير وعبدالملك بن مروان وسؤال الخليفة له عن قيس ، فيما يرويه : ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٣٢٣ .

نعم ، ذهبت فى سابق العهد إلى ديار عزة ، والقلب جريح الأسى ، فوقعت فى طريقى على واد أصابنى فيه الخوف ، فضاع من يدى الزمام ، وسرت يومين أو ثلاثة بلا نوم ولا طعام ، ، ولم أستشرف (١) فيها ماء ولا خبزاً ، وإذا بى أمام أمرىء مضطرب الحال ، مقوس الظهر كالهلال ، ذى كبد دامية من قرحها كنافجة المسك ، يبس جلده على جسمه من الغم ، وقد نصب للصيد شبكة . فذهبت إليه ، وقرأته السلام ، وخاطبته فى أدب ، سائلا إياه بعض الخبز والماء . فأجاب : إنى بعيد من أهل الحى وبى نفور من أهل الحى موتى القلوب . وليس معى من طعام ولا شراب ، فطعامى العشب ، وشرابى من السرب (٢) . ولكن أجلس لحظة فربما فتح لنا باب الرزق ، فيقع فى شباكنا صيد ، ويزول عنا هذا العناء . فانتحيت منه ناحية ، وعلقت أنظارى على طريق الأمل ، وإذا ظبية رشيقة تقع أسيرة قيد الشبكة وحلقاتها ، ظبية لاتحاكيها رسوم مصور ، بديعة الشكل جميلة المنظر . فى عيون تفوق عيون الغزلان ، سوداء بلا كحل ، ثملة بلا قدح . يسكر من يراها بخمر عينيها ، وتقع ظباء العيون من النساء صيداً لناظريها . ذات قرون مفتولة

(١) حرفياً لم أر من بعيد .

(٢) فى الأصل سراب ومن معانيها بالفارسية الينبوع أو الماء الجارى ، وفى القاموس العربى السرب بالتحريك : الماء السائل ، ولعلها معربة عن الفارسية : سيراب أو سراب .

من العنبر ، يتراءى من بينها شعرها الساحر ، لم ير أحد مثلها غصوناً بلا ورق ، حتى لكأنها نبات من المسك . وفى سرتها نافجة جميلة المنظر . ولها من قرون ناصيتها قوة تنمو ، كل عقدة من عقد قرونها طعمة تجذب قلب ألف صائد . ليس لها عقد ولا وشاح ، فعنقها ساذج كدورق الخمر . ذات عين فاتنة ينبجس منها دلال يكاد يقطع عقد وثاقها ، وفراء صدرها وبطنها فى لون الكافور ، ونافجة سرتها كحجزة(١) إحدى الحور . وعجيزتها كزهرة النسرين فى حديقة جسمها ، لم تبتل بحرقة الشقائق (٢) . ولم يوضع على ظهرها من حمل سوى الغبار ، وقد تربت بين الخضرة والماء ، فى مأمن من يد القصاب . قدمها قلم مارس الخط ، غير أنه لم يجر رأسه إلا على صفحات المروج الخضر .

فلما رآها قيس وقعت فى شبكته ، خف إليها ، وعانقها معانقة الحبيب ، وقبل عينيها ، وأخذ ينفض عنها الغبار ، وأنشد مائة بيت فى وصفها ، وخلص أقدامها من حلقة الشبكة ، وتركها تذهب إلى المرعى . ولكن الظبية حينما أطلقت من إسارها لم تهرب ، بل ظلت قائمة بين يديه ؛ فأطلق صوته قائلا :

---

(١) الحجزة : معقد الإزار ، وهذا المعنى هو المراد هنا من كلمة : نيفة ، فى النص الفارسى .

(٢) يكثر فى الأدب الفارسى تعليل حمرة الشقائق بحرقة الفراق أو الحب .

فى عينيك مائة المشابه من عينى ليلى ، فعــودى ، ولا تخشى شيئاً ، فأنا صديقك من دون الناس . وحسبك مثلى صديقاً . وما دام فى العالم إنسان كريم ، فدومى وليلى طليقتين من الغم .

وما إن فرغ من قوله ، حتى وقع فى الشبكة صيد آخر يفوق الأول جمالا ، فانتهى منه كما انتهى من الأول . ثم وضع يده على صيد ثالث ، فجرى على نفس القاعدة ، وهــكذا سلك أربع مرات أو خمساً ، لم يشعر فيها بجهــد .

ولم يبق لى على الجوع من طاقة ، فقلت له : هيا فأطفىء نار الجــوع ، وإلا فلماذا تنصب شباكك للصيد ؟ ! ولم تطلق الصيد بعــد الظفر به ؟ ! وأنا ضيفك ، وفى حاجة إلى طعام ، فلماذا تضيعه عبثاً ؟ !

فقال : إياك وهذا الهوس ! وعــد — مثلى — إلى العقل والرزانة ! ! إنى أصيده لأنه مثل ليلى ، وعندى لمثلها ميــل عظيم . أقبــل فى محبتها قدمه ، وأستعيض عن ناظريها بناظريه ، وأحيي به موات الأمــل ، ثم أطلقه فداء لها ؛ وشىء يحمل لى مثــل هــذا الأمل ، خبرنى : كيف أقوى على ذبحه ؟ وشىء شبيه بالحبيب . كيف تكون لى طاقة بأكله ؟ وإلا فإنى لهــذا الصيد أشــد حاجة منك ، فلم أطعم شيئاً من رطب أو يابس إلا أعواد العشب ، لاشىء آخر .

وبينما يتحدث إذا ظبية أخرى تقع فى شبكته ، فقلت فى نفسى : سأسبقه إليها وأصرعها بخنجرى ، ولـكنه سبقنى عدواً وأخذها ، كما أخذ سابقاتها ، وطبع مئات القبلات على وجهها وعينيها ثم ردها طليقة فداء لليلى . ففقدت الأمل فى أمره ، وبقيت بلا طعام من صيده . ومن هذه الحادثة فى ذاك المكان أيقنت أنه مجنون بنى عامر ، فقد تبدلت حاله من جوى ليلى لوناً آخر .

(٢٩)

الروضـــة

ما كاد الـــكريم كثير يغادر مـــكان الصيـــد ، حتى رأى غـــير بعيد روضة جميلة تذكر برياض الجنة ، قد كست أرضها الخضرة ، ذات ورود كثيرة مختلفة الألوان . وكأنها مصحف حروفه من الزمرد ، تقوم فيه الشقائق مقام الحمراء (١). أو كأن أرض تلك الروضة صحائف خُطتْ عليها بمـــاء الزنجـــار (٢) ألفات مكررة ، تتراءى كأنها بنات العشب أو بنات الربيع ممشوقة القد ؛ وكأن شجيرة العَرْف قـــد احتمتْ برداء أركن ، فلبست من الخضرة ثياباً محكمة لتتقى الغرق ، وتحتمى من سهام السحاب ونبال البرق . وقد أطلت من جيوب الأرض الشقائق كأنها كؤوس من عقيق ندى . وكأن أزهار العـــرف أقداح مليئة بالصهباء على حراب من الزمرد ، يداعبها النسيم فى دلال ، فتمايل اللاعبين بالكؤوس ؛ أو كأنها مشـــاعل تتوهج ولـــكن بلا زيت ولا فتيل ، على سيقان دقيقة رسختْ فى الأرض أصولها .

---

(١) معرب الشنكرف أو الشنكار ، وهو نبات لاصق بالأرض فى غلظ الأصبع أحمر كالدم ، تصبغ به اليد إذا لمسته ، راجع : الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدى شير ، طبعة بيروت ١٩٠٨

(٢) منه ما هو معدن ومنه ما يستنبط من النحاس بوضعه فى دردى الخل ، انظر المراجع السابق .

والورد فيها معانق للياسمين ، والخبازى فى أنسجام مع النسرين ، والبنفسج يميـــل على خده الفـــل ليقبله ، وقد اشتعلت فى قلبه نار الحب ، « فبدأ كأنه أوائل النـــار فى أطراف كبريت(١) » . وكأن النرجس — وقـــد انتحى جانباً — عيون تنظر هنا وهناك . وكأن السوسن ألسنة تتحدث إلى هـــذه وتلك من الأزهار . وأطلاء الظباء فى لعب ورقص كمـــا يفعـــل الأطفـــال ، فتخطف هذه من فم تلك زهرة من الشقائق ، وتنتزع تلك من هـــذه صيحة ألم . وبدت شفاهها حمراء من رعيها الشقائق ، وحوافرها خضراً من سيرها على العشب . وبجانبها سرب كبير من الغزلان ، مرعاه الزهور والخضرة ، متحرر بسرعة عدوه من سلطان الراعى وحراسة الكلب . وحين رأى الســـديد الرأى كثير هـــذا السرب من الظبـــاء ، عـــاد مسرعاً إلى مكان الصيد حيث جاس المجنون ، وقال له : أبهذا الذى هوى الصيد ، انهض ودع عنك هـــوى ذلك المكان ، وأجمع منه شباكك وما بها من حب ، وانقل خطوك قليلا إلى مكان كذا ، وانصب هناك شباكك فى طريق الغزلان ، فسترى هناك صيداً يتلو بعضه بعضاً فتقيم فيه مستريح الخاطر .

فبكى المجنون وقال : ذاك حمى ليلى ، وحرم ليلى كالكعبة .

---

(١) مقتبس من أبيات لابن الرومى :

ولا زوردية تزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق هامات حففن بها   أوائل النـــار فى أطراف كبريت

(معاهد التنصيص لعبد الرحمن بن أحمد العباسى ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

وهناك أقامت ليلى ، وخطرت مع رفيقاتها المجدودات ، مغردات كالبلبل الثمل ، ساحبات الذيول على العشب والزهر . فكل خضرة نبتت فى تلك الأرض قد جررت عليها ذيلها ذات يوم ، وكل حسك فيها قد ترك كالورد أثراً فى أذيالها . واكتسبت الورود عطرها ولونها من ذوائبها وعارضها . وإنما صارت الشقائق قانية لأنها نبتت على دموع حرقتها . وقد فتح النرجس عيونه تضرعاً دون تراب أقدامها ، وبسط السوسن لسانه ليتحدث عن مجلس محياها ؛ وعلى البنفسج طابع الذلة لأنه لبس لفرقتها ثياباً زرقاء . وأطلاء الظباء النافحة بالمسك صيد لسهام نظراتها ، فتظل أنظارها مصوبة إلى الطريق عليها تطالع فجأة محياها . ومنذ ذلك اليوم الذى خطرت فيه بتلك الأرض ، حُرم صيدها كالحرم. وكيف أنصب شبكة لغزال يرعى فى روضتها ؟ وكيف يجمل لى صيده ، ومن ضحاياه قلبى ؟ وأينما أكن ينجذب قلبى إليه ، فأسير إليه على عينى تدميان بكاء . أطوف حوله طواف الحجيج ، وإنسان عينى هام بسيل الدموع . فلا غزلانه مولية عنى خوفاً ، ولا أنا ألوى من أعواد نبته عوداً . ولأن أظل صيداً للسهام خير من أن أذعر فيه صيداً .

هكذا قال ومر لشأنه ، وانصرف لصيده يردد اسم ليلى ، وفى كل آونة كان يقع صيد جديد من الظباء فيقبله عَوِضاً عن ليلى ويطلقه لها فداء . وكان هذا شأنه من الصباح حتى المساء ، لم يركن قط لى راحة فى هذا الأمر .

(٣٠)

دعــوة الخليفة لقيس

الدهقان الذى تعهد براعم هذه الأغصان ، والصانع الذى أبدع هذا التصوير ، هكذا سطر فيما كتب :

أضحى معمر الخربات مشهوراً بحديث العشق ، مهجوراً ممن شهروا بالعقل . وترددت فى مجامع العصر طرف نظمه كالدر ، ولم يخل من تلك اللآلىء قلب ، وتشنفت بها الآذان ، وحليت بها مسامع الخليفة ؛ فاشتدت رغبته فى لقاء قيس ؛ وأنهى رغبته إلى والى نجــد ؛ فكتب هذا إلى أعمال ولايته : أن لن يسمع من امرىء عذر إذا لم يرسل إليه من داره ذلك العاشق العامرى النسب اللبيب الأريب ، الذى شهر بلقب المجنون .

فلما انتهت هذه الطرفة إلى أبناء الولاية قالوا : إنه بعيد من العقل ، نافر من صحبة العقلاء ، لا قرار له فى منزل ، ولا طعــام له سوى العشب ، فاحياناً يتخذ مقامه فى الجبل ، وفى صدره من الهم مائة جبل ، كفاه كمخلب النمر قوة ، ومأواه ليلا الــكهوف . وحيناً يطوف حول السهول والوديان ، وقلبه نهب لألف يأس . يسير نهاراً مع قطعــان الحيوان ، وينشد الراحة ليلا مع حمر الوحش والغزلان . تحيرت فى أمره الخلائق ، فكيف يليق بالخليفة لقاء مثله ؟ ! فأجاب الوالى : هذه رغبة الخليفة ولا حيلة .

فأعملوا الطلب فى كل جهـــة للعثور عليه ، وبحثوا هنا وهناك عن آثاره ، حتى وجدوه على قلة جبـــل فى مجاس خطير الشأن ، له من شعره فوق قمة رأسه مظلة كمظلة الملوك ، وهو مثل الخليفة وسط جيش من الحيوان فى حلقة محكمة من حوله ، وهو طيب الخاطر بمجلسه بينها . فقالوا له : قم وشد رحلك ، واعقد وشاح الطاعة لأمر الخليفة .

فقال : ليس لى رحل فأشـــده ، وقد وضعت رحلى فى الجبال والهضاب ، وهيهات أن أدين بالطاعة لإنسان . وحظى أسود كسواد الدخان ، وكفانى حملا ماأنا فيه من بؤس ؛ وصدرى مفطور بسيف الهم ، فكيف أعقد عليه وشاح الطاعة . فقالوا له : حذار من هذا التطاول ، ولا تحمـــد مغبة ماقلت . فأجاب : لست ممن يذله الطمع ، فما أبالى عاقبة التخلف عن الخليفة . ولا أقاد بخطام الحرص ، فلست أهلا لمجالسة الخليفة . والعاشق فوق الخلق ، إذ يحدوهم فى أمورهم الطمع والحرص ، وقد تخاص العاشق من كلتا الخصلتين ، فتحرر من عناء العالم (١) .

فقالوا له : تحاش غضب الخايفة لئلا يهدر دمك بدون حجة . فأجاب : أما وقد استباح العشق دمى ، فكيف يخضعنى سيف الخلق ؟!

---

(١) قد يكون هذا هجاء من الشاعر لمن يترامون على أعتاب الملوك ، وقد كان الشاعر ممن يخطب الملوك وده ، وقد ربأ بنفسه عن الترامى على أعتابهم ، أنظر :
Browne : Lit. Hist. of Persia, III, P. 510.

وأطلب النجاة من الخنجر البتار ؟ وسواء لدى مت بورق الورد أم بالخنجر (١) . فالحى يتحمل أن يكون مسوداً ، أما إذا كانت الحياة قد شدت رحالها مولية ، عنه ، فإن الخنجر ينبو عن هدفه .

ويئس القوم من جداله ، فأتوا بناقة من الطريق وجروا بها إليه ، حيث كان فى ظلة جبـــل البلاء والأسى . فبسطوا إليه أيديهم ، وشدوا على جسمه القيود والأغلال ، كما يلتف فى الحبل ثعبان بحلقات جسمه حول غصن لدن . وقد عانى من حبال القيود كأنها حلقات ثعبان ، ولكن كان فى صدره أضعاف هذا العناء . وأخذ يتلوى الثعبان ، وينثر الدور من دموع عينيه قائلا :

أنا مشدود الوثاق بحلقات غدائر الحبيب ، فقيدى ذوائب شعورها كالمسك ؛ فما قيد آخر فى قدمى ؟ ! وهل هناك من قيـــد للبلاء فوق بلائى ؟ ! وإذا رنت فى قدمى حلقات قيود العشق ، سر منها العاشقون فى حلقاتهم . والمقيدون بقيود التدبير ، لهم مخرج لتحطيم القيود ، فعلى قيد خطوتين أو دونهما تتحرر الاقدام من قيود هذا العالم . وأنا المحاصر بالبلاء حتى ضاق بى فسيح هذا العالم ، فكيف بى فى مضـــيق هذا الإيوان ؟(٢) وهيهات أن يمسك بى فى محضر الخليفة حلقة أو حلقتان من الحديد يضعهما فى قدمى . وإن

---

(١) قارن هذا المعنى بقول شوقى (الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٣) .

لا تحلنى بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

(٢) فى الأصل هنا اصطلاح فى لعبة النرد مفاده ما ذكرناه .

سفراً لا يقود إلى الحبيب ، وليست غايته وصال الحبيب — حتى لو قاد إلى الخلد — هو فى اعتقادى أعظم جرم . فهذا القيد الثقيل هو جزاء ذلك الجرم فى مذهب العارفين لطرائف الأمور . وساروا به هكذا على راحلته أسبوعين أو ثلاثة ، حتى وصلوا به إلى باب الخليفة ، فأخذ حماماً دافئاً ليزيل الأدران عن جسمه ، وحلق شعر رأسه ، وكساه الخليفة حلة جديدة من جوده الذى يفيض على الوجود كنور الشمس . وصبوا عليه عطراً . وأجلسوه أمامه على مائدة نواله . ورأى المسكين أنه فى مقام مهين ، فلم يحمد مقامه ، وأدرك أنه غرض لحيلة ماكرة ، يتعرض بها لأذى المهانة من المزهوين بنفوسهم ؛ فضاق به فضاء الكون ، وأخذته فى جنونه نوبة وجد ، فمزق خلعته ، ورمى إلى الأرض بعمامته ، ولم ينبس ببنت شفة ، وركن إلى الصمت . فأمر الخليفة أن يؤتى بكثير إلى المجلس الخاص ، لأنه طيب المحضر مع أهل العشق . ودخل وحيد عصره كثير على أليف الأسفار . وقال كثير : إيتونى أولا بقلم ودفتر . وكتبوا له على صفحاته أشعاراً طيبة كالشهد . وانطلق صوت كثير من الأعماق بنشيد يصف فيه جمال ليلى ، والحرمان من وصال ، وسقام قيس من فراقها ، وآلامه المبرحة من الشوق إليها . وما إن أنشد عدة أبيات حتى وجد منها مصباح قيس زيته ، وكان حبل وريده فتيلة ذلك المصباح ، فحرك لسانه الفصيح كأنه شعلة نار ، وأنشد فى حرقة قصيدة بلغت عقود أبياتها

مائة بيت ؛ كل بيت منها كحلة من سندس ، ملىء بلآلىء الدموع صاف كالدر ؛ وكل مصراع من مصاريعه باب ، وتلك الأبواب معابر تنفذ منها الآلام . ومقاطع أبياتها شفاء مقاطع الصدور الكريبة . وبحر القصيدة ذو أمواج تقتلع الجبال ، وهو مع ذلك يفجر مسايل الأشجان ، ويضرب من قوافيها ذوو الصدور المكلومة صدورهم بالأحجار ؛ وفى كل حرف للعشق قصة ، وفى كل نقطة قطرة من دم القلب ، ويسيل من حروفها ماء كالدم هو رشح الكبد المقروحة ، وعصارة القلب الجريح ؛ ومطلعها مشرق الديباجة من نور طلعة ليلى كالشمس . وفى مقطعها قطع الأمل من طلعة ليلى السعيدة الجد المشرقة القسمات . وتنهال صواعقها على ساحة القلب من ذكرى الحبيب والديار . واستفاض فيها فى شرح أحواله ، وفى وصف الخيام والأطلال . وهمت جفونه بالدمع سيلا ، فأودع القلوب مئات الحرق ، وحمل الطير والريح رسائل شجى مكروب . وخلط تراب قدمه بدم الدموع ، وكتب به رسالة أودعها يد الرسول ليفضى بها إلى الحبيب ، أو ليدعها حيث يقيم . وأودع قصته طيب أيام الوصال وشكوى آلام الفراق : فحينا كان يمزق الثياب ضيقاً بأفعال الواشين ، وحينا يبكى تعس الجد . فكان كل من ألقى سمعاً إلى نشيده غلى دمه فى قلبه ، وكل من ألقى نظراً على تلك القصيدة جادت عيناه بسيل الدموع .

ولما فرغ من إيداع آلامه تلك القصة ، ووصل إلى آخر مرحلة

فى وصف حداده ، أوقد النار بشعل آهاته ، فاحترق منها كل قلب مالم يكن حجراً . ثم أخذ ينشج بكاء ، فلم تبق عين فارغة من الدموع ، وارتمى فى قيوده كأنه الظل ، يمرغ خده على الأرض . ورأى الخليفة أساه وشجنه ، فأمر بفك قيوده ، وأن تفتح باب خزانته ، ليعطى منها مائة بدرة من ذهب وفضة ، ثم قال : ليبق فى ديارنا ، ولينزل بجوارنا ، ولتحرر برعايتنا صحيفة يطلب فيها من أمير تلك الولاية أن يبذل جهده فى إحضار والد ليلى ؛ وسننفق فى ذلك الجواهر والدرر ، حتى يتيسر لك المراد .

فلم يلتفت المجنون إليه ، ولم يقر له قرار على وعده ، ونفض أرادته من عطائه ، وانطلق إلى وادى العشق ، وذهب يعدو كغزال فر من شبكة . وأعتقد أنه نجا من كارثة . واستمر فى طريقه سائراً أو جالساً أو نائماً ، يردد لحظة حديثاً كالشهد ، ويقول : قد نجوت من هم الخليفة ، وعقدت الإحرام لحريم الحبيبة .

(٣١)

فى قافلة ايلى

السائح فى نواحى هذه الولاية ، والناظم لعقود هذه القصة ، هـــكذا روى فقال :

إن ذلك المتخذ من العراء مسكناً ، الضارب كالوحوش فى الوديان ، شبيه الظباء فى العدو والجريان ، ألقى نفسه بعيداً من ديار ليلى ، فحث خطاه نحو تلك الديار ؛ يجوبها ، مبلبل الخاطر على غير قرار ، يغسل بدم الدموع عن وجهة الغبار ، ضالا يبحث عن آثار الحبيب . وكان يلاقى — أينما سار — القوافل ، ويكتشف مسافرين ، وكان يسير مكتوياً من نار الفراق سائلا عن أخبارها .

وذات يوم هبت سموم الهاجرة على الجبال والصحراء ، فأضحت من الرمال وقطع الحجر كأنها وعاء ملىء بالجمر والشرر . وبدأ الثعبان فيها يتلوى بحلقات جسمه ، كأنه شعر على نار . وتبثُّر حوافر الحيوان من حرقة السير فيها . وتضطرم الجواء بهواء لافح كوهج النور الذى ترمى أرجاؤه بشرر من نار ونور . وتجيش الينابيع كقدر يغـــلى ماؤها ، ويتلوى فيها السمك ألما ، كأنه من مائها فى إناء شواء . وكأن صفحة كل صخرة خوان عليه أنواع الشواء من الصيد . والظبى فى ظل قرونه لاهث الأنفاس . والنمر مسكين لايجد مايحتمى به من الظل دون أقـــدام الأشجار ، فهو

فوق الأرض كظل شجرة نفذت إليه خطوط من النور . وكأنه صـــيد مطروح قد لاذ من عنائه بكنف من غيبوبته . وانحدرت السيول فى الوديان من الأعلى إلى الأسفل . ولم تكن فيض سحاب بل كانت سيوفاً مصلتة فى الجبل . والمجنون فى ذلك اليوم فزع مضطرب ، قد صار من القيظ والسموم فحمتة اتقد داخلها بشعل الآهات كأنها ألسنة اللهيب . ولم يفتر المجنون عن ترديد آهاته لحظة ؛ محترق الفؤاد والقدم ، قد أعيا بنشدان الراحة . قلبه من الحرقة كإحدى الشقائق . وجلس فوق هضبة . ودار بطرفه فيما حوله . فرأى من بعيد مخيما به حشد من الرجال كأنه فلك عامر بالنجوم . فنهض المجنون يئن مما به ، وأخذ طريقه نحو المخيم . وهناك غير بعيد منه التقى بأعرابى مقبل من الخيمة فوق راحلته . فأخذ المجنون عليه الطريق ، وسأله : أيها السعيد الطالع ، ماقصد هذه القافلة ؟ وإلى أين تشد رحالها ؟ وما اسم هؤلاء وأولئك ؟ فرد الأعرابى على أسئلته جواباً جواباً ، قائلا : وجهتهم جميعاً الحجاز ، وقد بدءوا رحلتهم بنية الحج . أما القوم فهم ليلى وآلهـــا .

وحين سمع المجنون منه هذا الاسم أخذ يشعر بالراحة ، وارتمى على الأرض كالظل . ثم مالبث أن نهض متجرداً من ذاته ، ناوياً الإحرام بالحج مع الحبيب ، متحرراً من الفراق بصحبة الحبيب وسار محمل ليلى والمجنون يتبعه من بعيد بفؤاده المـــكلوم ، يسلك ذلك الطريق الطويل ، مسوقاً بالرغبة فى صحبة ذلك المحمل . وقلبه

فى ترداد أناته وآهاته كأحد أجراسه ، يتردد رنينه كلما لمح هودجها . وكان يقول : « وما حاجتها إلى المحمل ، ويحسبها قلبي مقاماً ؟ والمحمل حجاب الغانيات ، فليس أهلا لأن يكون للشمس برجاً . وأين الطالع السعيد الذى تشرق به على مسكين مثلى من ذلك البرج ؟ لعلنى أصير كذرة مهينة فى شعاع تلك الشمس ، بلا عقل ولافكر .

وكان المجنون يقبل مواقع أظلاف ناقتها على أثر حاديها . وكان ينثر جواهر الدمع من جفونه فوق محيا أصفر كالذهب . ويقول : « هذا أثر من آثار الحبيب ، وتذكار ناقة الحبيب . ومادام قد عز لقاء الحبيب ، فأقل ما تقر به العين هى آثاره » .

مسكين ذلك الذى يقع فى إسار العشق ، يرضى من حبيبه بلا شيء . فإذا لم يفز بالوصال ، اكتفى بمداعبة الخيال . فإذا لم يجد أثراً لأقدامه ، خف إثر غبار طريقه . وإذا لم يصل إلى تقبيل أقدامه قبل آثاره .

فانظر — أى جامى ! — فى أمرك ، وماذا فى يديك من الحبيب ؟ فالعالم كله ثمل بجامه . والقلوب جميعاً صيد شباكه . وكل ثمل بنوع من الشوق : فذاك باللون ، وهذا بالرائحة . فهو شمس فى عرشه ، ظله السماء والأرض . فتأمل ظل الحبيب . وحيث إنه فلا تؤمل فى الظل رؤية الوجه ؛ إذ الظل حجاب الشمس . فاعبر طريقك فى ظلمة الحجاب ، ولاتتطلع فى الظل إلى رؤية الشمس .

(٣٢)

لقـــاء فى مناسك الحج

قد كان فى فسيح البادية ضيق العطن ، ذلك المسافر صوب الحاجز وغايته الكعبة ؛ فهو مع الحبيب ومحروم من وصال الحبيب ، ونهب لأسى البعاد . وحين نزل بحريم البيت الحرام ، توجه إلى ذلك المقام الفريد ، وأخذ يطوف ، سالكا سبيل الوفاء . ونهضت ليلى متجهة شطر البيت ، فتزين البيت بجمالها . ووقعت عيناها على ذلك الشريد ، فتحدر من عيونها دم القلب . وقالت وهى تبكى : أيهذا النائى عن العين ، وأنت مثار كروب الشوق فى العين ! كيف أنت فى صراع الفراق ؟ وكيف أنت فى نار الفراق ؟ أما أنا فما بى حاجة لشرح حالى بدونك ، وهأنذا غريقة فى دموعى ! أنا طوال الأيام والليالى أسيرة شوقك ، وحيدة مع خيال وجهك . ليس لى من إنسان سوى إنسان العين ، أسيل منه دم القلب . وأنت فى ذاك الأسى خير حالا ، إذ تنشد العزاء فى نظم القول .

وأخذ المجنون يناجيها بالمعهود من نجوى ؛ ولكن بلسان الصمت ، ناظراً إلى الأمام والخلف ، حذارا من أدنياء الناس . وشرعا يطوفان بالبيت فى مدى ماتهيأ من فرصة كانت قلوبهما فيها نهبا لأسى لا حد له . فبدأت ليلى الطواف ، وقفى أثرها المجنون كريب الصدر . فكانت تقبل الحجر الأسود ، والمجنون

طروب بخيالها على الأرض . ووضعت ليلى شفاهها على ماء زمزم ، فملأ المجنون بالبكاء عينيه ماء . وسعت ليلى بين الصفا والمروة ، وقد بلغ المجنون ذروة الوفاء لها . فعانى الهموم من شعرها الفواح بالمسك .

وشهرت السكين فى يدها حادة لنحر الهدى فى منى ، فصاح المجنون : بل أريقى دمى أنا . وشمرت فى رمى الجمار ، فكان قيس يعطو برأسه فى طريق تلك الأحجار . وبدأت تودع البيت المرفوع ، فأطلق المجنون صيحاته خشية الهجر . وفرغت ليلى من طواف الوداع ، فرمت بمسند هودجها ، واغتنم المجنون الفرصة ، فاتخذ قبالتها مجلسا . وجلسا معاً جلسة الوداع ، يسيلان من مآقيهما دم الدموع . وبدون قول أسفر عن آلام صدرهما لسان العيون الفائضة بالدم . وودع كلاهما الآخر كما يودع الجسم رأسه ، ولا يتيسر العيش لجسم حرم صحبة الرأس . وساقت ليلى محملها على حرقة وشجن ، وبقى قيس وقدماه من دموعه فى رحل . وأضحى الهودج بليلى كنافجة الظبية ينفح مسكا ، وأما قيس فقد تجمد دمه فى جسمه كنافجة الظبية ، وضاع سره مثل النافجة .

وباح من حاله بهذا القدر الضئيل فقال : وا أسفاه أن يبقى الجسم وتذهب الروح ! وأن ينأى عن القلب الصبر ، وتذهب القوى من البدن ! لاح لى جمالها بعد طول هجر ، وأخشى أن تكون قد ملتنى . وقد أفنيت عمراً أحث الخطى على أثرها ، حتى

رأيت وجهها دون نقاب . ولم تكد تقر عينى برؤيتها حتى توارت ولم تخش فى الله . وما أنا إلا ظمىء الشفاه فى القفار، أجرى فى العراء كل صوب أطلب الماء ، وقد نفد صبرى نفاد الماء ؛ ووصلت إلى حافة الينبوع ، فلم أكد أجلس لأطفىء نار ظمىء بوصالها حتى شهرت على خنجرها : أن قم . وما طريقى إلى الموت ببعيد . وليس فى الدنيا إنسان فى مثل عيشى . والقلب منى ذاهب ، والصدر محترق . فلا ذاق أحد يارب مثل هذا العيش .

هكذا قال ، وافترق عن آل ليلى ، ولكنه صاحب الركب بالخيال ، متخذاً له رفاقاً آخرين فى الطريق . وقد نفد حوله وطوله ، وعز صبره ، وعزيت عنه الراحة ، خشية أن يكون بين رفاقه امرؤ سوء ، يقع من قلبه على موطن الداء ، فيدرك ليلى منه ملال ، أو تعلوها سورة انفعال ؟

(٣٣)

زفاف ليلى إلى شاب من بنى ثقيف

ناظم عقد هذه الجواهر ، قد ملأ سلك نظمه بالدرر ، فقال :

إن تلك المكنونة كالسر فى محمل الأسفار ، ذات الدل المخدورة فى هودجها ، ظبية صيادة الأسود ، مغيرة على قلوب الأبطال ، مثار جنون العقلاء والحكماء ، تنال من كل ذى مقدرة .

وخرج ركبها من الحرم ، وأخذ حاديها يغنيها بحدائه . وكان الحجيج قد أخذوا يثوبون بمحملهم مسرعين . وكان من بينهم فتى ممشوق القوام من بنى ثقيف ، محياه شمس وجبينه قمر . وحول محياه عذار ينفح العنبر ، هو دائرة من المسك حول بدر وجهه . فى إصبعه خاتم الرئاسة ، وهو كبير قبيلته أباً عن جد . فيض نواله يفوق الحد ، يغمر الجبل والسهل . فهو خالى الوفاض بما ينثر من كنوز عطائه ، وغيره فى غنى بفيض نواله . واتفق أن مر تجاه محملها ، فوقع فى قلبه جنون حبها . وكان قد ألقى نظره على حجاب هودجها ، وهبت ريح فرفعت الحجاب ، فتبدت له من خلف الحجاب شمساً يفيض من وجنتيها الشعاع . تنسدل غدائرها حتى مهوى القراط ، فرأى الليل والنهار مجتمعين . وحاجبها مصلت إثر آلاف الفرسان مولين تقدح سنابك خيولهم بالشرر ،

وترنو بعينين فيهما إغراء الخلود وسحره . ويبتسم فمها عن نضيده يفك عقد الروح .

ويتراءى ذقنها وضيئاً أمام عنق كالماء النمير ، هو لوح به مثات للمتأدبين . ورأى من خلف النقاب ذلك القمر ، فعزب الوعى عن روحه اليقظة . وهو طائر قلبه صيداً للعشق ، ووقع فؤاده جريح العشق . وأضحى مسكيناً لا حيلة له . وأعمل فكره فى طلب النجاة ، فوقف به العجز دون الحيلة . وبحث عن وسيط يستعين به . وكيف يستطيع المرء الاهتداء إلى وجه الحيلة فى أمره، مهما كان ذا حنكة وتجربة ؟ وبعيد لدى العارفين أن تستطيع السكين قطع مقبضها . فالخير ، إذن ، فى الاستعانة بوسيط بصير بمداخل الأمور ، ليكون زينة مجلس العرس . وبدونه كيف يحظى صهر بوصال عرسه ؟ فوقع على خبير ساحر القول ، راوية للقصص ، شيخ عذب القول فى مضائق الأمور ، يستطيع أن يصلح بين الماء والنار . وأرسله إلى والدها ، فقام بالدعوة وحدد لها موعداً . وحينذاك قال : نسبى عظيم يضارع نسبك . ومالى نظير فى الجاه والجمال ، وفى المال والنوال . أجيبك إلى كل ما تطلب ، وأصب دون قدميك كل ما أملك . ولى من القطعان ما يغطى الوديان وادياً وادياً ، كما تكسو الطريق أشجار القثاء . ولى فى كل مكان خدم من النساء والرجال كقطعان الإبل والخيل رأساً رأساً . وعندى من الذهب والفضة مايفوق العد والوزن . وأنا

مملوك لك ولاحيلة لى ، والعبد وماله لمولاه . وأنا لك صهر طيب العشرة ، أقبل قيد إسارك لى ، وإذا حزت لديك القبول ، كنت سعيداً سعادة يقصر دونها الكلام ، وإلافلن أستطيع بكل مالى أن أحوز ذرة من السعادة .

وتذوق والدها مائدة ذلك الشيخ الشهية ، واستملح هذا الشاب ، ووقع فى قيد حبه طواعية بلا شرط . وقال : إنه فى الجمال لا مثيل له ، وهو ابن لى ونور عينى . وفى استجابة رغبته سكن لخاطرى الحائر . ومع هذا فلا عيب علىّ أن أستشير أهلى .

وذهب فطلب والدتها العارفة حق المعرفة بقدر جوهرتها ، وانفرد بها دون الناس ، وأسر إليها بذلك السر . فرضيت هى به كذلك ، ونزل فى صدرها منزل القبول . وقالت : هو أمر موافق لكلا العاشقين . فحين تصير ليلى فى حيازة ذلك الزوج ستنسى بذلك صديقها القديم . وسيتوجه المجنون بحبه إلى أخرى حين يشم هذا الخبر ، ونتخلص نحن مما يدهمنا من أمر ؛ إذ غدونا أحدوثة القوم .

ولكنها حين أفضت إلى ليلى بهذا الكلام ، عرا قلبها اضطراب كاضطراب ذوائبها ، واحترق فؤادها غما ، وصارت بشرتها الفضية كاحدى الشقائق حرقة . وارتوى ورق خدودها بدموع حمراء كماء الورد . وامتلأ جيبها بدرر الدمع ، ونفضت يدها من

خيال وجودها ، واضطربت حائرة فى أمر نفسها . لا طاقة لها بمخالفة رأى أمها . وهى بعيدة عن الرضى بقولها ، إذ لا حيلة لها فى ترك حبيبها القديم . ولوت برأسها لا تحير جوابا . وبدت العذراء خلف نقاب الحياء ، وعلا وردة وجنتها ماء الخجل . فماذا تقول لأمها وأبيها ؟ وإلام تلجأ إذا خرجت عن رضاهما ؟ وإثر هذا الحديث الذى دهم بالخطر روحها ولت باكية منتحبة ، ولم تحاول أن تنبس بكلمة . فقالوا : هذا السكوت رضا . وحررا للخاطب رسالة حتى يسعى فى إثر مقصده . وحين سمع المحب هذه الرسالة رأى فيها سعادته فى الدارين ، فطاول بتاج فخره الثريا ، إذ أصبح كل شيء فى أمره مهيئاً . وحين غطت عروس الغرب (الشمس) نقابها بغدائر الظلام فى لون العنبر ، وأوقدت مجمر الفلك بحب الحرمل ، وأضاءت المجلس بمصباح القمر ، كان قد هيىء محفل الطرب ، وأقيمت الزينات ، ودعى أشراف القبيلة للحضور ، وجلس كل فى مكانه المهيأ له . وعقدوا قران البدر بالنجم . وأتى الأصدقاء بأطباق الذهب والنقد . لينثروها حين العقد . فكان هناك قوم ينثرون الذهب ، ودونهم جمع غفير يلمونه ، وكانت أكف الأثرياء تصب الدراهم ، فيجمعها الفقراء فى أذيالهم . فهذا يجمع من قطع النقود ملء راحتيه ، وذلك يملأ بالذهب قبضته . والقوم فى سرور الاليلى ، باسمون بالأمل ما عدا ليلى . ورأى الصهر هذه التحفة تزف إليه كما اشتهى ، فلعب برأسه السرور ، مؤملا من

ورائها الخير ، غافلا عما دس له من السم . كطير حوم بعيداً عن عشه ، ليقع على كل حب يتاح له ، فوقع نظره على حب قد هيء ، فهوى إليه ليلتقطه ، فقفز له من فوق الأرض فخ ، وأحاطت بعنقه حلقته الضيقة . ومضى هزيع من ليل الزفاف ، ملأ الشوق فيه جوانحه ، فسعى فى أثر تلك الشبيهة بالبدر فى أوجه ، فى محفتها المزينة كالفلك ، وحملها مكرمة إلى منزله ، وأجلسها فى حجلة الدلال .

وتبوأت مقعدها معززة مكرمة ، ناظرة كالقمر وجهها إلى الأرض ، لم تفك عقدة عن عقد حواجبها ، ولم تفتر بابتسامة عن نضيد الجواهر من ثناياها ، بل أمطرت اللؤلؤ الرطب من بكائها . وهو دونها ظامىء الكبد ، ينظر ماء ريه من بعيد . وليس له فى حرقة ظمئه على الصبر يدان ، ولم يؤذن له بعد بالورد . وراود نفسه يومين أو ثلاثة ، حتى طغى الشوق فقصم متن الصبر . وهم أن يضع يد هوسه على قامة هى بحق نخله ذات ثمر . فأهابت به : انأ عنى ، وخذ مكانك دونى ؛ واصبر عن جنى هذا الرطب الشهى . فلم يقطف أحد من هذه النخلة ثمرة ، بل لم يرام رؤ ثمرها . فلا يليق أن تكسر منها غصناً ، فهذا هوس بالغ المدى . فأنا جريحة القلب ، فى انتظار من غدا رهين الأسى والخور ، من فدانى بالصبر والفؤاد ، وجعل روحه هدفاً لبلائى . وهو بى ضيق الصبر فى رحاب البادية ، يعانى فى شعابها ألواناً من الهم . وعلى خيالى يرعى

الظباء ، وفى هواى يمزق الثياب ، ومن رسم فراقى يقطع نياط قلبه ، فيبحث عن ترياق فى دموع الظباء . ولم يغفل عن ذكرى لحظة ، ولم يمل إلى سواى . ولم يحظ برؤية وجهى مرة واحدة ! ولم يسر قط إلىّ سير المتطاول . هو قانع من مرو قامتى بالظل ، راض من التدرج بريشة من جناحه . هذا ؛ ولم أرفع إليه رأسى فى ذلك الظل ، ولم أطر إليه إثر تلك الريشة . وأنا — بعد — على عهد وفائه ، بما لى من طوق ، ويغلبنى إلى لقائه داعى الشوق . فانظر بعين الاعتبار إلى حاله وحالى ، أنا المبتلاة بوصال سواه ، وعشرة غيره . وإياك وذلك الوسواس ، فلا تغترّ بطولك ، ولا يبطرك جاهلك وعزك . قسما بصنع الخالق المنزه ، المبدع فى تصويره على ألواح الثرى ، إذا تطاولت مرة أخرى على كمى ، لأبسطن إليك يدى ، شاهرة على أم رأسك سيف الانتقام . فإذا قصرت عن الانتقام منك ، فى مكنتى أقتل نفسى ، فأزهق روحى بسيف الظلم ، لأنجو من نير عسفك .

وسمع المسكين هذا الوعد من شفاه لا تفترّ إلا عن حلو البسمات ، فعلم أن قدم حظه كليل ، وأن الناقة بلا زمام صعبة المراس . ثم وجد نفسه أسير شباكها ، ووجل قلبه لفراقها . فلم يجد بدآ من العيش على حرقة الوجد . واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها ، فكل لحظة للوصال موصلة بالفراق . وتثير فى

نفسه أوقات الراحة ألوان المحنة . قد اجتثت جذور أمله ، له من أسباب الأسى مايموت به مائة مرة ويحيا . ودام على هذه الحال أمره . وكان هذا كل ماله فى حياته من خلاق .

وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى ، متخذاً منه زاداً لأخراه .

(٣٤)

المجنون يعلم بزواج ليلى

موسيقى غناء هذا العرس ، الموقع على آلاته من عاج وآبنوس ، قد دق على طبل بيانه الثمين ، وأطلق من صدره هذا اللحن الحزين ، فقال :

حين عاد من الحجاز ذلك المعانى لطعنات العشق ، المطلق الصيحات من تباريح العشق ، مر بحرم الحبيب ، فانتكأ جرحه ، وعادت حديقة ذكرياته أنضر ثماراً ؛ وعراه الوله من جديد ، فأطلق أناته من السطوح والأبواب ، وعقد من حبال دموعه قيثارة وغنى عليها أنشودة ، ووقع من لواعج قلبه لحناً ، باحثاً أينما ولى عن آثار الحبيب . وكان كلما جلس على دمن ، أو قام على طلل ، فقيل له : إن هذا أثر من آثار تلك الشبيهة بالبدر ، الشهيرة بالجمال ، أى ليلى : بلاء روحك ، التى ذهبت بمالك من حول وقدرة ؛ وضع جبينه عند سماع هذا القول على تلك الدمن ، وأسال عليها من دم الدموع ، وتغنى غزلا بذلك الطلل ، ممرغا وجهه على الأشواك والحشرات .

وكان يجلس فى حرم الخيام المضروبة ، فإذا قيل له : ليلى هناك ، جعل مأواه ظل الخيمة ، واتخذ منها حرما يطوف حوله .

وأينما جلس فى البادية كان ينقش اسمها على الرمل ، ثم يمحو ما خط بفيض دموعه . وقد رآه شخص مرة ينتقى الثرى ويضع منه على رأسه ، فقال له : عم تبحث فى الثرى ؟ من أجل من تضع فوق رأسك التراب ؟ ! فأجاب المجنون : إنى أنتقى الثرى من كل أرض ، لعلنى أجد ريح تلك الجوهرة النقية ؛ وحين لا أجد ريحها أضع الثرى على مفرقى ألما وحسرة . وسأظل أطلب هذا السر من التراب حتى أصل إلى الماء . وحظى من الطلب مذاق الطلب ، أما الدر فلا سبيل إليه . فأجابه الآخر : أرح نفسك من المطلب ، ومن طى الأيام والليالى فى هذه المحنة . إذ أن تلك الجوهرة النضرة التى تمضى عمرك والهاً فى التطلع إليها والوجد بها قد اقتلعت منك قلبها ، واستبدلت بك آخر حين وجدته خيراً منك ؛ فانفض أنت كذلك يدك منها ، واطرح من جانك هوى هذا الصديق . فمن لم يخلص كل الإخلاص فى طريق الوفاء ، فلاتساوى مائة كومة من حصيده حبة من الشعير . فبينما تقيدت حين بسطت يدك إليها بالعهد ، مدت هى يدها لبيعة آخر . وتتحدث أنت عن ليلى درة مكنونة ، على حين أمسكت هى لسانها عن المنطق باسمك ، وربطت قلبها بحبيب طابت شمائله ؟ وأخذت قلبها من كروب حبك واختارت شاباً فى مقتبل الشباب من بنى ثقيف ، ذا عقل راجح ، وتزوجت به . وباعتك كعقد وضيع القيمة بجوهرة . فهما كاللام، والألف فى مكان ما ، وأنت قائم كالألف وحيداً . وهما كالظفر

واللحم رفيقان ، وأنت كالظفر قلع من رأس إصبع . فانهض وانتزع من رأسك هذا الخيال ، ودع عنك الهوس فى المحال . وما معنى الصفاء مع ذوى الدخائل السود ؟ وما جدوى مجازاة الجفاء بالوفاء ؟ والحسان كورد(١) الفجار لا يعرفه للوفاء عهداً ، وإنما يغتر فيه بلونه ورائحته ، وكل من بكر إليه قطفه . وكيف يتخذ الأرغوان من الصفصاف ؟ ! وكيف يجعل من اللص بستانى ؟ وما دامت قد وضعت أذيالها فى قبضة الأشواك . ووردة ليست لك خير لك أن تتركها مهينة فى الأشواك . فكن رجلا ، وانـأ بجانبك عن كل امرأة تبحث عن إرضاء نفسها بزوج . ومنذا الذى رأى فى نعل واحد قدمين ؟ أو فى منزل واحد سيدين ؟ والمرأة مخلوق كله سحر وخديعة ومكر ؛ أما عن إخلاصها فلا لون ولا رائحة . والمرأة صعوة جناحها(٢) أحمر أصفر ، وإرضاؤها محال . فإذا صدفت عنها وقعت فى حبال الهوى ، وإن أكرهتها قضت ألما . وهى نخلة ممشوقة القد ولكنها من الشمع ، فما إن تهزها حتى تكسر ؛ فلا زهرتها نافحة بالمسك ، ولا ثمرتها حلوة المذاق . قد حليت بكل الأوراق والأغصان إلا غصن الوفاء ، فقد قطع من شجرتها . سرعان ما تنسى عهدك إذا عانقت سواك ، وطريق

---

(١) الكلمة الفارسية هى كل دوروى ، أى الوردة ذات الوجهين . انظر :
Desmaison: Dict, Pers, Franc, III, P, 219

(٢) عصفور صغير الرأس .

الخلاص من ناقض العهد أن تنقض عهده . فانفض يدك من وصال ذلك الحبيب القديم ، مادام قد نفض يده من حبك . فإذا صبغ كفه بلون آخر ، فلا تلون كفك بحنّائه .

وسمع المجنون هذه الأنشودة ، فنهض يرقص رقصة الصوفية ، ثم صُرع فتمرغ فى التراب الرطب بدم دموعه ، كطائر نصف مذبوح . ثم أخذ يضرب بالحجر صدره وقلبه ، على أثر فجيعته فى حبيبه الحجرى القلب . وصار أمره نهباً لمائة خسار . ثم سقط فاقد الوعى ، فلم تتردد من شفتيه أنفاسه ، ولم يعد للحياة فيه من أثر ، حتى لم يدر أحىٌّ هو أم ميت ، وفقد الأمل فى بقائه . وبعد طول إغمائه عاد إلى الحياة ، فألقى روحه نهباً لآلاف الغم . وجرى فى حلقة النفس ، فلم يردده بسوى الآهات التى تحرق صدره بسنانها ، واستمر يرددها قائلا :

أواه من قلب حبيب حجرى القلب ! وآه من قلب حبيب ولوع بتحطيم القلوب ! وا أسفا أن تتقد شموع الحسان بصدر نافد الصبر ولهان ! واحزنا ألف مرة أن مزق ذلك الحبيب جيب شرفى حين مزق الجيب من لباس الطهر ! ! فحثا على رأسى تراب الحسرة والندم ! قد نقض كل عقد أو ثقة ، وانضم إلى من لم يكن له به عهد . فهو ذو قرين وأنا وحدى فرد . وقد وجد طريق الشفاء وخلانى لآلامى . فحرمانى منه يحرق كبدى الكريب ، وحظوة الآخرين به تزيد اللهيب اتقاداً . فأنا بذلك الحرمان

كالشعرة السوداء ، وبهذه الحظوة فى نزع المحتضر . وقد يسهل على العاشق الولهان احتمال البعاد والإشراف على الهلاك ، ولكن العبء الذى ينوء به هو علمه أن حبيبه فى أحضان الآخرين . لقد ظل دهراً يستخرج الكنز ، فلما جمعه حمله غيره . وقد غرس فى حديقته شجرة ، فاقتلعها فى غارته جيش . فيا من كنا معاً جليسين ، وقد أخذنا الطريق على الريح حتى لا تسوق إلينا وجه إنسان ، ولا تحمل ريحنا إلى الآخرين ، هأنذا أحيا فى أمل أن أفضى إليك بلوعتى ، وأن أحمل النسيم إلى تلك الحسناء ما به تذكرنى مع من تذكر . أيتها الريح توجهى إليها ، وألق نظرة منى على حسنها ، وقولى لها : يامن هربت بقلبها منى وركنت إلى آخر ، حين تصيرين نديمة كأسه ، وتنقلين النقل على الشراب من فمك إلى فمه ، تذكرى آنذاك حال مرير الحلق محطم الكأس من ألم القلب ، يعد نفسه للموت من هموم حبك ، ولم يظفر من وصلك بطائل ، وإنما يضرب فى الأرض نادماً صادق العهد .

(٣٥)

أسى المجنون بعد زواج ليلى

فى هذا الوادى الذى يصهر الروح ، كان الخبير بمراحله ومنازله يتغنى أحياناً بألحانه ، مطلقاً أنغام موسيقاه ، قائلا :

إن هذا المحب الفريد فى لطفه ورفيقه الجور ، قد أفلت من العقل زمامه عقب حديثه عن ليلى وزوجها ، وتحرر من الفكر خيره وشره ، وصار مجنوناً بخمر العشق ، وطار صوابه بذلك الرحيق ، وناله الأسى بحرقة على حرقته البالغة بالفراق ، وزاده الهيام اضطراباً على اضطراب ، فنفر من الناس ذوى الطباع المسفة ، مولياً وجهه شطر الوحوش النقية الدخائل من حقد الإنس ، التى لا تسعى له بأذى ، فكانت كلها تألفه(١) ، تأنس به وتهش له ، فكان ينطلق فى الجبال والوديان ملكا يرافقه جيش من الوحوش ، فإذا استراح فى ظل شجرة أقعى دونه بعض قطعانها على الرمال والأحجار ، حلقة محكمة حوله ، كأنه فيها فوق عرشه . وإذا وقع ما يعكر الصفو ، فسرعان ما يستضيئون بعدل ملكهم ، فيعود لهم الصفاء والوئام . فلا الظبى بوجل من الذئب ، ولا التيوس

---

(١) من المألوف عند الصوفية أن الوحوش تألف ذوى الكرامات منهم ، راجع مثلا : الدكتور عبدالرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية ، ص ٩٣-٩٤

فى خشية من الليث . والحملان لاهية بذيل النمر . وإذا سار وادى همومه جرت حمر الوحش أمامه وخلفه ، وكنس الثعلب له الطريق ، ونثرت الغزلان فيه دموعها تلطف حرة ، وقام سرب من الغربان ظُلَّة فوق رأسه . وإذا مال عنهم فى مكان ليكتب رسالة لليلى ، أعطاه الظبي ساقه قلما ، وصفحة عجزه ورقة ، وحمل عينيه طيب الخاطر ، ليتخذ قيس من سوادها مداداً . وهكذا كان يسير مردداً ألحانه ، مرسلا ياقوت دموعه ، تمشى بين يديه أسراب من الظباء رشيقة مطمئنة ، وإذا به فجأة أمام روضة ، وعلى مسافة دون أقدامهم بساط الخضرة ، تنشج كئوسهم بالخمر فى لون الورد ، فلوى المجنون من بعيد عنهم عنانه ، ليجنبهم خطر جيشه . وكان فى أولئك القوم من عرفه ، فناداه متغنياً بالثناء عليه ، قائلا : ياطلبة من جن جنونهم من العشق ، ومن محياه يتألق بنور الشق ، أيها السالك طريق التجريد ، وحيد المسير فى مضايق التوحيد ؛ أيها المصلت على رأسه حسام الأسى وهو دون الحسام مقيم كالجبل ؛ أقسم عليك بمن جننت بحبها ، وبمن فقدت من جرائها الرأس والقدم ، وأقسم عليك بمن لا تعرف الحياة إلا فى كنف وصالها ، أقسم عليها بشفتيها الياقوتيتين حسناً ، وبغدائرها الملتوية ، وبعينيها النجلاوين كعيون المها ، الفائضتين بالسحر والخمر ، وبجدائل شعرها فوق قمر أذنيها ، ألاَّ تنأى عنا بجانبك ؛ فمنذ مدة ونحن على شوق إلى لقائك بعد البعاد ، واليوم ظفرنا باللقاء عقب

السفر ، فلا تستبح ، إذن ، قطيعتنا ؛ وقد وصلنا إليك فابق معنا لحظة ، لنلقى عن عاتقنا ثقل الغم .

ورأى قيس حاجته ، وسمع منه آيات رضائه عنه وحبه له ، فترك جيشه فى مكانه واتجه نحو هؤلاء القوم ، وسألهم : أى الديار دياركم ذات الرونق والطيب ؟

فأجابوا : نواحى الحجاز مقصد كل تقى ، وطالما قصدتها ليلى ، وسارت هناك بمحملها ، وجررت فى تلك الرسوم أردنها تنفح المسك .

وسمع المجنون قولهم ، فوقع كالظل على الأرض فاقد الوعى ، وصاح متغنياً بهذا النشيد :

أيها الرفقاء القاطنون بتلك الديار ، ذكرتمونى بالحبيب ، ألا فداء لكم روحى وقلبى ، ودون أقدامكم رأسى ! ليس بى من هوى لقصد الكعبة ، وما فى نيتى القيام بالحج ؛ وإنما الطواف بليلى ، وسوى ذلك فضل . وما لى من جدوى من الطواف بالكعبة ما دمت لا أستطيع أن أمر بمنزلها ، فحجى وعمرتى رؤيتها ، وبدونها لا حج لى ولا عمرة . وسهم وصالها المسدود من الجعبة تدور به الرأس طوافاً بالكعبة . فأنا الظامىء إليها بوادى الأسى ، فكيف أروى من زمزم ؟ وأنا الطروب فى زمزمة همومها ، أجريها هائماً على لسانى ، فتجرى من دموع عينى زمزم أخرى . وأينما

أسر فغايتى من السير وصالها ، وكل مقام لا يضيئه مصباح محياها فهو النار ولو كان الجنة . فليلى — أينما حلت — هى المراد ، لا أطلب بها سلمى ولا السواد(١) . وسأظل على ذكر منها ، لاهيا عن الغيد حتى أطفىء أساى فى أحضانها . فلا رأى عدو ما عانيت من حبها ! لقد وقعتُ فى مخلب العشق غير مبال ، ونبذتنى فى شرخ الشباب ، وأفلتت من براثن العشق . وأنا فى انتظار الوصال ، وروحى من الفراق فى وبال ، أضحت هى نقداً لغيرى ، وصارت لقمة فى فم سواى . فلها رفيق حبيب ، وأنا ناء بعيد ، وتنعم هى بالوصال ، وأظل غريباً مهجوراً .]

هكذا قال ، ومرغ فى الأرض جبينه ، مرسلا الآهات من صدر ممزق ، باكياً بدموع من الدم ، حتى وقع من بكاءه فى إغماءة . وحين أفاق فى المساء كان الفلك قد استبدل بلباس النهار لباس الليل ، فصار ذا لون واحد وهو الخداع ذو اللونين ، يحتال لمراده وهو فى قوة النمر ، فخرج قيس من حلقه رفقائه ، وانضم إلى سرب الظباء ، تكاد روحه تزهق من الهجر . وأمضى الليل كما كان يمضى كل ليل .

---

(١) هى نفس الكلمة فى النص الفارسى ، ومن معانيها فى العربية : المال الكثير ، وسواد البلدة قراها ، وسواد القلب حبته كسوداته وسويدائه .

(٣٦)

الحمامة المطـوقة

عندما بزغ الفجر ، وحال لون نجوم الفلك ، واسترسلت من القبة اللازوردية على الأرض أشعةٌ مبهوتة ، أفاق المجنون من غيبوبة نومه ليجدّ في طلب حبيبه ، وسار يردد إسم ليلى حتى انتصف النهار . وهبت سموم الهاجرة ، فأخذ يقع وينهض متعثر الخطى فوق الرمال المتوهجة ، ظامىء الشفاه ، ريّه من خنجر الفراق ، يعانى فى صدره من آهاته خناجر الفراق : وإذا به يمر على قرية كجنة الخلد والقرار ، فيحاء كأنها وسط الوادى القائظ نار الخليل(١) . فأوى منها إلى حائط قصير جلس عليه أسود كالغراب من لفح الشمس . وأقبل رب الحديقة عليه قائلا فى لطف : أيها الرفيق ! قد صرت أسود كالغراب ! فكن ضيفى ولك المنة ، وزين بمضرك عشى . فليس الجلوس على الحائط بمقام لك ، فخذ مكانك من البيت فهو بيتك . ولا عليك إذا صرت أسود ، فحبة العين الصحيحة سوداء .

فتأثر المجنون بلطف هذا الشاب ذى المروءة ، وخف إلى

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (وقلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ، سورة الأنبياء ، آية : ٦٩ .

منزله ، وقد قال حقاً سيد العرب : « نحن العرب نكرم الضيف » ؛ وبسط المضيف للضيف الكريم مائدة نواله ، وأعد له على المائدة شهداً صافياً وشواء من الطير . ولم يمد المجنون إلى المائدة يده ، وامتنع عن تناول الطعام ومذاقه ، قائلا : « ما هذا طعامى ، ولست بقادر على إساغته ، فديدن الناس صيد الحيوان والاغتذاء بذبحه ، وأما أنا فكل حى حرام على ، ولذا ألفنى كل الحيوان . وإذا أنشبت فى الحيوان أسنانك فلا مناص من نفوره منك ، طلباً للنجاة . وأجدنى أعاف شراب البلح ، إذ هو قَىْءُ النخل ، وكيف أطعم قيئاً ؟ ويُمرُّ فى حلقى عصير النبات الحلو . وإنما يحلو فى ذوقى النبات (١) .

فكانت الأعشاب فطوره ضحى ، وكانت كذلك عشاءه مساء . وحين محى الليل رونق النهار ، لبس رب البيت لباس النوم

(١) من المقطوع به أن بعض المتصوفة كانوا يعفون ورعاً عن أكل الحيوان راجع مثلا :

Massignon:Essai ,,, P, 233

وما أشبه حال قيس هنا بما روى من أن رابعة العدوية « صعدت جبلا ، فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان ، وبقيت حواليها آمنة كل الأمان . وفجأة أقبل الحسن البصرى ففرت الغزلان . فقال لها : يارابعة ؛ لماذا فرت كل الغزلان منى ولم تفر منك أنت ؟ فسألته : ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فقال : أكلت طعاماً طهى بالزيت . فقالت رابعة ، يا من تأكل دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك؟... » (الدكتور عبدالرحمن بدوى : رابعة العدوية ، ص ٩٤—٩٥) كذا العطار : تذكرة الأولياء ج ١ ص ٦٥ .

وأوى إلى حجرته . وكانت فى صحن الدار نخلة سهلة الغذاء نفيسة الدخل . فهى تقنع بقطرات السحاب زاداً ، ودخلها فى رأسها وسعفها وعصيرها وعذقها . وتدنو أعذاقها مذللة القطاف ، يحلو بها ريق من أمرت حلوقهم . وعرجونها ذو شماريخ من ذهب ، قد علق بها عقيق سائل ؛ فهو فى اللون عقيق ، ولكنه فى الطعم شهد يغرى أفواه الطامعين . وقدها شبيه بقد الفاتنات الغيد ، وعلى رأسها الطيور تتلو أناشيدها . فمال المجنون إليها . ووضع رأسه على جذعها ، متذكراً قدّ ليلى ؛ وأخذ يبكى قائلا: لا تطيب الحياة على نأى الحبيب ، وإنما يهنأ عيش من يتمتع من حبيبه بنصيب ، فيرفع رأسه مزهواً بتقبيل أقدامه ، وقد طويت العالم فى هذا المطلب ، فلم تظفر يدى منه بقدم ولا أثر . واليوم من ذا يعانى مثل حرقتى ؟ ومن له مثل حظى فى ظلمة الليل ؟

وبينما هو على هذه الحال إذا طائر فى سعف النخلة يرفع صوته صادحا بألحان نفادة ، ويرددها هتوفا ، تنال من القلوب الصم كالصلد ؛ وكأنما كان يوقع الحان صداحه على ريش جناحه المهيض ، باكياً يشدو كل لحظة بلحن جديد ، من غير عود على أعواد الشجرة . وكان يطلق فى كل آونة من همومه تغريدة كان لها فى كل ريشة من ريشة صدى ، حتى ليظن أنه أضحى وكله أنات أشجان موقعه على أوتار جناحيه ، أو أنه صار بما يعمره من

أسى الآهات عوداً وعروقه فى العود أوتار . وفى كل ظفرة من زفرات أساه كانت عظام جناحيه مضارب لأوتار فؤاده .

وأصغى المجنون إلى شكواه ، فغدا مثقلا بأشجانه، وكلما صارت صدحات الطائر أكثر حدة انفطر لها قلب المجنون وتصدعت أركان روحه ؛ وقصرت به طاقته عن سماع تلك الأنات ، فسعى يحثو على رأسه تراب الأسى ، حتى وصل إلى رب الدار ، ودق عليه الباب قائلا : يارب الدار ، ما هذا الأمر الذى حُمَّت به روحى هذه الليلة؟ وأى ألم عرا هذا الطائر؟ وأية حرقة يعانى ؟ وما ذاك السهم الذى به تمزق صدره ؟ فما أشد ألمه فى أناته ! لقد تمزق صدرى إربا على أشجانه . وأخاف أن تفارق منها روحى البدن . وهو يكشف بنوحته عن سر جواه ، فيهيج منى قصة آلامى .

فأجاب رب الدار : كانت هنا حمامتان مطوقتان ، قد حسن منظرهما ، يعيشان فى صفاء . قد اتخذ لهما هذه النخلة عشاً ، وبنيا لهما فى رأسها منزلا . وكانا فى المنزل أليفين يغردان ألحان الطرب ، يغدوان معاً يطلبان الحب، ويردان معا الماء ، لم يعتريهما قط ملال من الصحبة ، ولم يعانيا أذى الهجر . قد طابت غدواتهما وروحاتهما ، وقصرت يد الدهر عن أن تنال بالسوء أردانهما . ولكن منذ يوم أو يومين وجد طريقه إلى عشهما بازضار بالصيد ، ففرق بينهما ، وبسط كلاهما جناحيه للهرب، وهجركل منهماالآخر

وعاد الباز لعشه ولم يعد أليف الحمامة ، ولا يدرى ما تم فى أمره : أهو حى أم وقع فى مخالب الباز . ففى قلب هذه الحمامة من نأى أليفها لوعة ، وبه من فراقها — ولا شك — حرقة .

وسمع المجنون هذا اللحن من رب البيت ، فأطلق من أحشائه صيحة زلزلت القرية فاستيقظت من نومها ؛ وبكى قائلا : هذا هو كل دائى ، ولم يعان هذا الحرمان أحد مثلى ! !

ثم سار شطر النخلة وجلس تحتها ، وأخذيتكلم بفصيح لسانه إلى عجماء اللسان قائلا : أيتها المرجانية الساق الياقوتية المنقار ؛ رأسك بندقة ، وجناحان خضراوان كالفستقة ، فلونك — ما حييت — كرقعة السماء ، وأنت ياقوتية العين عنبرية الطوق ، ورأسك محاط بطوق الشوق . أنت ناقوس دير الحب ، والمطربة على موائد المعوزين ، توقظين بوعظ الحانك سكان هذا العالم ، فينتبهون على بليغ أشجانك . فأحياناً تعظينهم فى جوف الليل . وأحياناً بعد غفلة النوم فى الصباح ، أسأل الله بسابق عنايته ، وبلاحق ما لا يتناهى ، من فضله ، أن تجدى أيتها الحمامة من تفتقدين ، فتستعيدى ما كان لك من هناءة ، وتدومى موصولة الهناءه إلى القيامة ؛ فأنا أيضاً شريك لك فى الرزء ، باق على حالى من فراق الحبيب أبد الدهر . فقد قضينا عمراً معاً صديقين وفيين ، يفدى كل منا الآخر بنفسه ، قد سكن خاطرنا فى مهد الوفاء ، وخلا طريقنا من شوك الهجر ، ولم يعل محيانا غبار الأسى . وكانت قلوبنا مكلومة من

أذى الواشين ، ولم نكن نلقى بالا إلى من يعرض لنا بالنصح . كنا معاً روحين فى بدن ، نتوارى من عيون العدو والصديق ، فرمتنا الأيام بسهام غدرها ففرقتنا . وها نحن أولاء نقاسى الأهوال . هيهات ! وماذا قلت ؟ ! هذا كذب ، وشمس الكذب لا تضىء . ففؤادى كالشقائق حرقة ، وهى خلية البال كالوردة النضرة . وهى فارغة القلب ، وأنا جد مشتاق . وهى ذات أليف ، وأنا وحيد لا أليف لى . وهذا البلاء للمصاب بالعشق أشد هولا من شجون الفراق . وقد ملأت العالم قصة أشجانى ، على حين هى لاهية فى أحضان سواى . ونزيلة القبور خير لدى العاشق منها فى يد غيره . والثمرة التى وقعت فى أرض الحديقة أفضل من تلك التى اختطفها عادياً الغراب .

هكذا قال ، وأفاض من عيونه دماء قلبه سيلا ، وافترق عن رب البيت ، وسار إلى حيث لا يدرى أين استقر .

(٣٧)

رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجهـا

أخرج بائع الدر من درج القصة جواهر الكلام ، قائلا :

ليلى تلك الدرة فى صدف شرفها العظيم ، ودونها الدر المتألق فى أصدافه ، عروس حجلة الجمال ، وسيدة القصر الصبيحة المحيا ، تغزو بحسنها قمر السماء ، وجمالها إكليل على هامة النيرين ، كوكب فى برج الشهرة ، ونور حرم الجلال ، ظبية الدمن وغزال الأطلال ، عقدها الثريا وخلخالها الهلال ؛ حين انتظمت فى سلك آخر ، وصارت حلية تاج سيد عظيم ، فاتخذت قريناً ذلك الجليل القدر ، المشهور بنداه الآفاق ، لم تزل على خجل من أمرها ، غضبى من أجل حبيبها ، وجلة أن يقع فى ظنه أو يطوف فى خياله أنها أدبرت عنه ، فاتخذت باختيارها زوجاً أنست برفقته ، وأذاقته رحيق ريقها ، وأسلمته مفتاح كنزها ، واستسلمت له فيما يراد منها . فلم تر وجهاً للرأى غير أن تشرح له أطوار القصة طى صحيفة مطوّلة ، سلسلة التعبير كصفوف ذوائبها ، محررة بدم العين السائل من الأهداب ، ليكون الألم عنوانها ومضمونها ، وترسلها إلى المجنون ليرى ما تعانى من أسى فى وحدتها ، وما يعتلج بقلبها من شجن ، ويستبين منها حالها

وانفطار قلبها . وكان من دأبها أن تكتب لنفسها عن همومها . وحين ورد لها هذا الخاطر كتبت هذه الرسالة التى تنم عن جوى الصدور : بدأتها باسم الخالق سبحانه ، مانح السكينة لمكلومى القلوب ، الذى جعل من حاجب الحسناء قوساً ، ونشر من لحاظها سهام الفتنة ، والذى حلى خدود الغيد بالورود ، فهاج بها شوق بلبل الروح ؛ دواء آلام ذوى الآلام ، ومرهم جروح الصدور السقيمة ، يحرق القلب والدين ببرق الجمال ، ويضىء العين بصبح الوصال .

وحين فرغت من ديباجة الرسالة أخذت تتحدث عن حال نفسها ، فقالت : هذه الرسالة تحكى ما استجد فى قصتى ، وهى موجهة من عاشق ولهان إلى من اغتصب قلبه . هأنذى قابعة فى زاوية اليأس ، على حين تقود راحلتك فى عرض السهول والوديان ، فقدمى فى أذيال الغرم ، وأنت فى مضايق اللوم . وليس لى من ذنب فى أنى لزمت الصمت ، وفى أنى لم أقدم إليك بعذب الحديث ؛ فأنا رهينة شباك ، فكيف أدنو منك وأنت الطليق من الأشراك . أيها الفار من الخلان إلى شعاب الوديان ، لا رفيق لك فيه سوى الغزلان . ولكى تخبر الظبى بلواعج أشجانك تردد حرفين (١) من اسمه ذى الحروف الثلاثة . أيها الحاث الخطى بعيداً

(١) من أسماء الظبى فى الفارسية : آهو ، والحرفان يرددهما قيس هما : آه .

من الأهل ، تسابق الأوابد عدواً ! ! أسرع إلى مقبلا ، وعد نحوى لتشعل النار فى ذوى العيون العمى من الحساد . أيها الناثر الدموع على أسراب الظباء ، وعلى قلبك من عبء الفراق جبل ! ! أطلق نفسك من ربقة هذا العبء ، ليتضح الأمر فيما يكون. أيها النائى بجانبك عن الخز والديباج ، ويطيب لجنبك المقام على الأشواك والصخور ! ! كيف طويت عنا كشحاً ؟ وكيف أنت على الأشواك والصخور ؟ ! من ذا يقاسمك الوسادة ؟ ومن رفيقك على الفراش ؟ ومن يزورك مساء فى مضجعك ؟ ومن يتذوق العذب من شهد شفاهك ؟ ومن يمس براحته جسدك حين تستريح ؟ ومن يأسو جراح أذاك ؟ ومن يرى كف قدمك ليلا لينزع ما علق بها من الأشواك ؟ ومن يبسط لك المائدة ضحى ومساء ؟ ومن يقاسمك الطعام غير الوحوش ؟

وعلى الرغم من كل هذا ، عليك أن تقوم بالشكر ، إذ لا ريب فى أنك أخف منى حملا . فكل ذرة من جبال غمى ثقل مائة جبل؛ فمن نصيحة الأب إلى جور الأم إلى الكروب التى ينوء بها الرأس، إلى ما فُرض علىّ من أمر الزوج. فإذا تأوهت متجهة بنظ ى إليك ، قال : من أجل مَن هذه الآهة ؟ وإذا بكيت من لوعة الحرمان ، قال : ليس لبكائك على سلطان ، وإذا أردت أن أخطو خطوة خارج البيت ، قال : لا تتجاوزى عتبة الدار ، واذا أدرتُ وجهى إلى عين ماء ، قال : أشيحى عنها بوجهك .

وإذا انتحيت ناحية فى جانب السهل ، قال : إلام هذا الدوران ؟ وإن الدهر الذى تعهد وردتى بالماء منذ أطلت على الوجود ، وفتحها برعمة صغيرة بين حاد الأشواك ، لم يجعلنى فى وئام مع الزواج(١) ؛ فهو أمر لم آته عن اختيار ، وكنت خاضعة فيه لسلطان والدى . ومهما نفذ إلى قلبى من شوك ، فكيف يتسنى لمن رأى ورد خدك ، أو تنسم ريحك على مهب الصبا ، أن يفتح ناظريه على إنسان سواك ، أو يصحب امرأ غيرك ؟ فزوجى لم يشاركنى قط مضجعى ، ولم تمس رأسه رأسى ، ولم يجذب بيده كمى ، ولم يطأ بقدمه أرضى . وهو قانع منى بالنظرة من بعيد . وقد أضحى نهاره من الأسى حالكا كالليل ، ودق جسمه من الألم كالشعرة ، وكادت الشعرة أن تبتر فى صراعه مع الدهر ولكنها مع ذلك سبب احتجابى عنك ، فما أطيب أن تسقط من بيننا ، كى أرى وجهك بلا حجاب ، وأتأمل شمسك بدون سحاب » .

وقد بدأت الرسالة على استيحاء ، وبدت فى آخرها سافرة الغاية ، ثم ختمتها بطابع حبها ، واضعة فى نهايتها حاقة ميم السلام ، ثم طوتها كعلبة لؤلؤتها روح العاشق ، ضناً بها على عذول يتربص

---

(١) يدعو الصوفية إلى العزوبة للتفرد للعبادة ، انظر مثلا الدكتور عبدالرحمن بدوى : رابعة العدوية ص ٥٣—٥٧ ويدعو شاعرنا كذلك للعزوبة فى قصة سلا مان وأبسال انظر :

Browne : Lit Hist of Persia, III. P. 523—24

الدوائر ، وكتبتْ على الرسالة من فيض دم العين : ليرحم الله تعالى امرأ لديه من المروءة والتضحية ما يسأل به عن خبرى ، أنا التى ملَّتُ الحياة فى منزل الغم ومقام الهجران ، وفى مدينة البلاء وملك الحرمان ، فأسأله أن يوصل إلى قيس خطاب الوفاء ، ايقف على حال أسيرته .

(٣٨)

قيس يتسلم رسالة ليلى

فرغت ليلى من رسالتها ، وختمتها بالغالية ، وخرجت فى قوامها الممشوق من خيمتها تبحث عن رسول ، وتخطر بين خادمتين لها كأنها الحجلة رشاقة . وكانت خيمتها تطل على مروج قريبة من عين ماء فضية يرد حوضها الظامئون فى الصحراء ، فزينت بمقدمها تلك العين ، وغسلت يديها مما سوى الحبيب ، وجلست غافلة عن نفسها ، عينها على الطريق ناظرة ، كأنها فى صفائها عين الماء ، لعلّ امرأ يقدم إليها ، ويكون على يديه تحقيق سؤالها . وفجأة انكشف غبار الطريق عن عربى على راحلته ، ليس بريح وهو أسرع من قائظ الريح ؛ وليس بسيل ولكنه أسرع عدواً من السيل الجارف . فلم يكد يرتد إليها طرف حتى أصبح منها كالكعبة من زمزم ، ونفض عن أذياله غبار الطريق ، وأناخ راحلته على حافة العين ، وقرب من المورد كالخضر(١) ، فروى منه وجلس جلسة الخضر . فقالت له ليلى : من أين أنت ؟ فإنى أجد منك طيب ريح الصداقة —فأجاب : من أرض نجد الطاهرة ،

(١) كالخضر فى وردة عين ماء الحياة التى يخلد من يردها ، كما فى أسطورة الخضر المطابقة لأسطورة الإسكندرية .

وغبار أرضها كحل الأبصار . فمن تلك الأرض نبتت زهرتى ، وفيهـــا تفتح كالوردة قلبى — فقالت له ليلى : هناك بائس ممر الحلق ، لقبه المجنون واسمه قيس ، يدور فى تلك الديار ضالا مكروباً عليه مظهر الحداد ؛ ألك به معرفة ؟ وهل لك من سبيل إلى التحدث إليه ؟ — فأجابها : نعم ، فأنا له صديق ، مستظل بكنف وفائه ، مشمر عن ساعد الجد فى محبته . وطالما تحدثتُ إليه ، أسرى عنه الهم ، وأدعو الله أينما كنت كى يسكن خاطره . فقالت ليلى : وكيف حاله ؟ — فأجاب : دائب على إرسال الأنات من العشق ، دائم النفور من الناس ، فارّ مع الوحوش ، مستريح إليها ؛ فحيناً يتلو من القوافى ما يلهب الصخور ، ويسيل على الجلاميد من حرقة كبده ما يصبغها ؛ وحيناً يهذى فى ركن غار ، وعلى وجهه من الأسى غبار . — فقالت ليلى : أو تعرف — أيها العاقل — من هى التى وقع فى حبال حبها ؟ فأجاب : نعم ، من أجل ليلى يرسل كل لحظة من ناظريه سيلا . فليلى حديثه حين ينهض ، وليلى همه حين يبكى . وهذا الاسم غذاء روحه ، اكتفى به عما تجود به الطبيعة من غذاء على مائدة طعامه ، وهو كل ما يجرى على لسانه ، وهو غايته من لسانه .

فأسالت ليلى من جفونها دموع الدم ، وأبرزت من ضميرها كمين السر ، قائلة : أنا طلبة روحه ، واسمى هو الذى يجرى على

لسانه . ومن لوعتى احترق صدره ، وعلى ذكرى طاب بستان خاطره . وأنا التى أشعلت نارى بفؤاده ، وأضأت بنورى جوانب عيشه . وأنا كذلك التى صيرت أنحاء روحه خراباً ، وشويت أضلعه على حر جمرى . ولكنه يجهل ما أنا عليه من أسى يشرف بى على الهلاك ، ومن لوعةٍ تلفح كبدى . وروحى فداك إذا استطعت أن تنهى إليه من أخبارى . فمعى رسالة مسطرة بدم مهراق من القلب ، فناشدتك بما له عليك من حق الوداد إلا حملت منى هذه الرسالة ، لتسلمها إليه يداً بيد . فقم بما أنت له أهل من دين الوفاء ، وعد إلى بجواب هذه الرسالة . وستحمل إليه أسى وتعود إلى بلوعة ، وستسلم له شمعاً وتأتى إلىّ بمصباح .

فنهض ذلك الشاب ذو المروءة قائلا : يامن غمرتِ بالأسى قلب المجنون ، حق لى الفخر أن أبذل جهدى ، وأن أسلم راضياً روحى فى سبيل نعيمك . فكل حرف من رسالتك هو لدى المجنون الحياة ، بل هو من الحياة أفضل . ولا أعلم يداً أسديها أعظم من حمل هذه الرسالة إليه .

فتبدل ما بليلى من أسى النفس سروراً ، ونشرت من جيبها مكنون تلك الرسالة ، ووضعت فى طياتها رمزاً للشوق : شعرة من سود ذوائبها وعود عشب جاف ، تريد بذلك أن تقول : منذ اليوم الذى انفردتُ عنك صرت نحيلة كالشعرة ، شاحبة كالعود .

ثم أسلمته رسالتها إلى من شُهر بالعشق ، فخف بها من مكانه إلى ناقة أليفة أسفار ، وأخذ يقطع الطريق إلى مقر المجنون . ووصل سليما معافى ، فأخذ يعدو يميناً ويساراً ، لا يعثر للمجنون على أثر ، فكاد فؤاده ينفطر غما . وسار إلى ظل شجرة ليستريح برهة من جهد الطلب ، فرآه صريعاً كالثمل(١) ، قد أفلت من يده زمام العقل ، ليس بنائم ، ولكنه مغمض العين ، يقظان القلب ، متحرر من ذاته . فعينه هناك وروحه فى مكان آخر ، وهو باد هناك ولكنه مختف فى مقام آخر ، قد خرج عن دائرة القمر والشمس ، وتسامى عن نطاق الفلك ، وانقطع عن دعوى العشق ، ولوى عنانه عن المعشوق ، وغرق فى بحر العشق ، وانصرف عن كل شىء سوى العشق(٢) . وعلى الرغم مما بذل الرسول من حيلة كى يلتفت إليه ويعى له ، لم تأت حيلته بجدوى ، ولم يصل بصياحه إلى مسمعه مهما ارتفع به . فأخذ يحدو جهير الصوت بأغنية تردد صداها فى أنحاء الجبل ، وكان حداؤه باسم ليلى ، فسرعان ما وصل نداؤه إلى قلب المحبوب ، فأفاق من غيبوبته ، وعاد إلى نفسه على سماع ذلك الاسم ، وقال : من أنت ؟ وأى اسم تردد ؟ وما غايتك من ترداده ! — فأجاب : أنا رسول ليلى إليك ، خصتنى

---

(١) يصف الشاعر هنا قيساً وقد عرته نوبة وجد صوفى .

(٢) أى العشق الإلهى الذى كانت ليلى سبيله إليه ، انظر فصل ٤٨ من هذه الترجمة ، ثم انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحياة العاطفية .

بحظوة تلك الرسالة ، وليلى أنيس روحك ، ونور عينيك ، ومثيرة دموعك — فقال المجنون : ولكنك لم ترع حرمة الأدب ، إذ لم تطيب شفاهك بالمسك وماء الورد ؛ ومن أنت والنطق بذلك الاسم كل لحظة ؟ ولم تلك الجرأة ؟ فأجاب فى عجب : بل أنا لسانها وترجمانها إليك ، أحمل منها رسالة كالدرّ المكنون ، أقدمها برهان إخلاصى لك . وها هى ذى الرسالة وكل كلمة فيها هى من رشح شباة قلمها .

ولما سمع المجنون اسم الرسالة مشى على رأسه كالقلم ، وجلس أمام الرسول جلسة ذى الحاجة ، وتسلم منه رسالة الوفاء . ورأى اسمها على عنوان الرسالة ، فقبلها وأمرّها على عينيه ، ونفذت إلى رأسه نكهة الوصول ، وأطفأ ذلك النسيم مصباحه ، فسقط فاقد العقل والوعى ، وفقدت عيناه النظر ، وأذناه السمع ؛ وحين عاد إلى نفسه أخذ يعدو بنعمة الشوق ، قائلا : ليست هذه الرسالة من الحبيب زهرة فى روض الأمل ، ولكنها روض ذو مئات من الورد للقلب الكريب . وهى على مائدة الوفاء لقمة منحتها سائلا على تلك المأدبة ، مختومة بالمسك كنافجة الظبية ، كأنها ذؤابة من غدائر الحبيب ، وهى رقية ذوى القلوب السليبة ، سجل بلاء أسرى البلاء ، مرقومة بقلم حسن الخط ، فيها طراوة الجدة .

وحين فض الرسالة أطلق من رأسه ذلك النشيد : ليست هذه

الرسالة باكورة ربيع وكفى ، ولكنها بستان من البنفسج ، يشرح الصدر نقش قلمها ، ويشفى القلوب ما تحلى به ورقها ، مسطورة على صفحات الشوق من قلب كليم قوّسه الألم . وكأن صفوفها نمال من العنبر اتخذت طريقها فوق صفحات من الكافور ، وتحمل كل نملة منها إلى عشها قلباً من قلوب البائسين كأنه فى فمها حبة . ولكل حرف من حروفها مذاق الخمر وشكل الكأس ، فإذا حسوت من تلك الخمر جرعة أخذت ترقص ثملا . وتبدو سطورها واضحة كأنها سلاسل من المسك ، كل سلسلة منها قيد لأقدام ألف عاقل .

ثم شغل بقراءة الرسالة ، وحلى بها جيد روحه . ورأى منه الرسول ذلك فقام إليه يرجوه فى كتابة الرد . فقال قيس : كيف أسطر جواباً ؟ وإنى لأكتب على وجهى بدم دموعى ، وأنا فارغ من الورق والقلم ، ورقى الرمال والقلم إصبعى .

فامتطى الرسول فى الحال ناقته ، وسار مرحلة حوالى المكان ، وأسرع فى كل صوب ، حتى وجد فى المساء طريقه إلى قبيلة ، وظفر منها بما كان يطلب . وحين نشر الصباح أعلامه ، نهض ولوى عنانه شطر قيس ، ووضع أمام الكتب أدوات الكتابة ، وأخذ المجنون يخط رسالته ، وابتدأ قائلا :

(٣٩)

رسالة المجنون إلى ليلى

ديباجة رسالة الأمانى ، وعنوان صحيفة المعانى ، لا يليق أن يكون غير اسم مسبب الأسباب ، الذى به تتفتح أبواب الغنم ، وهو مطلق يد التدبير ؛ الحى واهب الروح وقابضها ، مقصر يد كنز العدم . من أسعفة بنعمة الوصال سما برأسه فوق الفلك ، ومن أحرق صدره بالهجران أحاطت بغلات وجوده النار .

وعندما فرغ من حديث المقدمة أعرب بألحانه عن سر قلبه المكلوم ، قائلا : هذه الصحيفة آية المحبة ، من مصاب القلب إلى حبيبة القلب ؛ أى من ضجيع الأشواك إليك أيتها الوردة الناضرة ، ياشبيهة الربيع نضرة وابتساماً ولكن فى غير عيون البائسين . أنت حديقة ولكنك مجثم غراب ، مرهم لكل الناس ولكنك لى داء . ياذات الوجه الخبيء دونى كالكنز ، فى حين هو در على أذيال الآخرين . أنت سحاب حظى منه أحياناً البرق ، ولاينالنى منه قط غيث ؛ بك تصبح كل أرض جنة فيحاء ، ولكن أرضى بك رطبة بدم الدموع ، وكل ما توليننى من عناية أنك تحرقين ببرقك حصيد أحشائى ، فرفقاً بمحترق الحشا مكروب ، وأفيضى عليه من معين لطفك ياعين ماء الحياة ، وأنا دون فيضها

ظمىء أكتوى بمثات الجذوات ذات اللهب . نعم كان الخضر أهلا لورود عين الحياة، فلا ضير أن يموت بفوتها إذن مائة اسكندر(١). وقد احترق الاسكندر ظمأ إلى تلك العين ، وجف دونها كأنه نافجة ظبية ؛ ولكن أين ألمه مما أقاسى أنا رهين ظلمات بحر البلاء ؟ فى اللحظة التى وصلت إلىّ فيها رسالتك تضوع بعطر الوفاء من قطرات قلمك ، وضعتها على عينى الفائضة بدم الدموع ، وأنزلتها من صدرى فى مكان الروح ، وجعلت منها رقية لقلبى المعمود ، وغذاء للعين ، وقوتاً للقلب . وأسلت بكل حرف قرأته منها قطرة من دم القلب . وأثارت نقوشها فى صدرى ألحان الأسى . وكانت كلماتها نواة السحر ، تمت بها أشجانى وطغت بها علىّ الهموم .

وقد قلت : إنك بدونى تعانين ألم الوحدة ، ولم تنسينى قط ، ولكن من الإنصاف ألا تزهى بعشق إنسان وأنت فى أحضان آخر . وما جدوى الحديث عن الإخلاص إذا تدنست شفاهك بقبلات سواى ؟ وعلى افتراض أنك فوق النقص والدنس ، فأى مجال فى ذاك لظنون السوء لدى العاشق المسكين ! ، فهو فى كل لحظة أسير مئات الشكوك . وكل شبهة لديه دليل ، وكل ذبابة نافقة هى فى خياله فيل حى . فقد يتوهم من الظنون ما يقتلع الجبال فتأوى جبال الهم إلى صدرى . ويرى فى النملة ثعباناً ، فيحس

---

(١) هى عين ماء الحياة التى شرب منها الخضر فخلد، ولم يستطيع وردها الإسكندر ، راجع لهذه الأسطورة : الشاهنامه ، تعليق وتحقيق الدكتور عزام ج ٢ ص ٢١ .

كذلك الثعبان ألف ناب فى قلبه المنفطر . وإذا سقط طائر يلتقط الحب على سقف بيت الحبيب ، أدرك المحب منه غبار الشك فى أنه رسول يحمل رسالة من آخر إلى الحبيب .

وقلت : إنك فى شغل عن عناقه ، راغبة عن قبلاته . وحسبى أسى أنه يرافقك من الصبح حتى المساء على أمل أو يأس ، وأنه يرى ألف مرة فى النهار ذلك الوجه الذى لم أره منذ سنين ، وتلك الثمرة التى لن أقطفها مدى العمر .

وقلتِ : إنك صريعة الألم ، على شفا الهلاك من الغصص ، تودين لو اختفى من الطريق ، أو تبدد فى الهواء دخاناً ، وما أكثر ما يبدو لك من أصدقاء لو اختفى ! وما أكثر ما يظهر من متنافسين للظفر بما حبيتِ به من صفات ! وإذا طار عن شجرة التين غراب ، فهناك سواه فى الحديقة مائة غراب . ولكل امرىء من أولئك أسباب يتوطد بها أمله ما عداى ، فيوم أمله بعيد صبحه ، وأنا طيب الخاطر باليأس . فما لى والأمل ؟ ! وكفانى ما يحز فى صدرى من أنك أمل الآخرين . فإذا أردتِ إرضاء العدو رضيتُ أنا بما تريدين ، ورغبت فيما فيه ترغبين . ومن الحيف أن يُدْعى مهيناً من ترضينه صديقاً ، فهو بصداقتك ذو خطر ، قد صار من الصفوة ولو كان قبل من الدهماء . ولا يجمل بى ألا أتخذ صديقاً من تختارينه صديقاً ، فهو منى مكان التقدير والوداد . وخير لمن يعانى

من أجل حبيب أن ينزل على رضاء حبيبه ، وأن يصرف عنانه عن هوى نفسه ليسرع الخطى فى طريق مراده ؛ فالعشق بعيد من هوى النفس ، والعاشق من ينفر من هوى نفسه ، فهو طروب فى أساه راض بهمومه ، وهو تراب فى ديار اليأس ، فلأظل على حرمانى ويأسى ، طيب الخاطر ببلاء الدهر من أجلك . ولازال الدهر طوع مرادك ، ولا زلتِ مع الخلان فى وفاق ، وإذا متُّ فلك البقاء :

(٤٠)

وفاة زوج ليــلى

هكذا جلا ساحر البيان أسرار هذه القصة ، ومضى فى تصويرها قائلا : قد شهرت عصا العصيان على زوجها تلك الشبيهة بالكعبة ، الفريدة منظراً ، الساحرة المحيا كأنها من صوَر الصين ، أعنى ليلى قمر السماء ، التى جازت زوجها سوءاً على طيبته ، فقصرت يده عن باب حصنها ، وحطمت فى وجهه مداخل الرجاء ، ولم تفتح له صحائف المراد ، ولم تدن له بالانقياد . فوقع المسكين على سرير المرض ، ولم يحظ من وصالها بغير البلاء ، ولم يجن من وراء حسن نيته غير الضرر . والوصل الذى لا يتجاوب فيه الحبيب مع الحبيب لا ينال المحب من ورائه غير صنوف الأعباء ، ورؤية جنة عدن من بعيد دون قطاف ثمارها أشد من عذاب النار على البائسين من أهل النار . وازداد به المرض قليلا قليلا إثر ما ساور خاطره من الأشجان . ولفحته الحمى بلهيبها فاحترقت عروق نبضه ، وكان يحس كل من يضع إصبعه ليجس نبضه كأنما وضعه على شمع تحته نار . ووقف على رأسه طبيب عالم ، حاذق فى علاج الصعاب ، وفحصه ليقف على مدى مرضه ، وكشف عن عينيه ، فنفض يده من الأمل فيه : واستمر بضعة أيام يتلوى من الألم

كالثعبان ، وإذا عناية الله تبسط يدها إليه فتضع حداً لآلامه ، فخلصت نفسه من الصراع ، وتحررت روحه من سجن هذا القفص ، وطار طائرها محلقاً فى عالم الصفاء . قد أسلم الروح ، ومن ذا الذى تخلد آلامه ؟ ! ومن ذا الذى يسلم الروح بدون آلام ؟ فالحى لا يندرج فى قالب الموت ما لم يقاس الآلام ؛ قد تمكث فى الدنيا قليلا فى جهد ، ثم ترحل عنها فى ألم لا ينقطع . فنى مقامك فيها آلام ، وفى رحلتك عنها آلام . واهاً لهذا العالم ، آلام على آلام! وينجو من آلامه كل من بكر منه بالذهاب . ألا فانصرف عن هذه الدنيا موطن الآلام ، واهرب من ذلك العدو المبين . فالصبح فى لون الرومى والمساء فى سواد الزنجى لصان لا يستحيان ، وهما واصلان منك إلى ما يريدان ؛ فذاك يخدعك بما ينثر من ذهب النور ، وهذا يسحرك بما فى كفه من جواهر الفلك ، حتى يستنفدا منك كنز الأبد ، وينزلاك فى عذاب الخلد ؛ فحذار أن تقع فى خداعهما ، وأن تغتر برونقهما وجمالها .

وكان قلب ليلى من حرقتها لفراق المجنون كبرعمة امتلأ كأسها بدم الأشجان ، فاتخذت من موت زوجها تعلة لتسيل دم قلبها دموعاً . وفكت فى مأتم زوجها عقد الآهات عن صدرها ، تلك الآهات التى كانت قد أشعلت النار فى حصيد صبرها ، وأطلقت فى الفضاء خبىء أشجانها ، وكانت تصيح باكية : حبيبى ! حبيبى ! وتنظم در القول فى فراق الحبيب ، ولم يكن قصدها به

الزوج ، بل كان فى رأسها خيال آخر . وقضت زمناً فى لباس الحداد ، قائمة بما تفرضه عليها عدة الوفاء ، فكانت فى لياليها رهينة فراش الأسى ، ساهدة تبكى حتى الصباح ، وفى النهار نهباً لجوى الفرقة ، تشعل بآهاتها جوانب العالم . وكان مأتم زوجها تعلة لظهور ما كمن من العشق فى قلبها . فقضت عمراً فى طويل البكاء والآهات ، فقصرت بذلك عنها ألسنة الخلق .

(٤١)
بكاء المجنون على غريمه

أراد ذلك الأعرابي — الذى كان قد تجاوز حدود الرشد فمثل يوماً أمام المجنون وأخبره بعقد قران ليلى فأدمى فؤاده — أن يأسو ذلك الجرح بمرهم الحب ، فتوجه صوب ذلك الجبل على أثر علمه بوفاة الزوج ، وأمعن فى البحث عن ذلك الهائم على وجهه حتى عثر أخيراً على أثره : وقال له : لدىّ لك بشارة أقولها إذا أذنت لى فى القول : ما كان قد اعترض طريقك من شوك أصابت فؤادك به طعنة قاتلة ، حين سقتُ لك خبره ، قد أزاحه ريح الأجل من الطريق ، ولم يبق له فى الطريق من أثر . فقد خرج زوجها من حدود الدنيا موطن الآلام . ونجا ذلك الفتى الوسيم مما كان يعانى من أسى ، ووهبك بمماته البقاء .

وسمع المجنون حديث موته ، وعلم أنه أسلم الروح ، فتلوى ألماً ، وأخذ يبكى بكاء السحب فى الربيع ، واسترسل فى البكاء حتى تساءل جليسه عن سبب بكائه فى فصيح من القول : ياسيد العاشقين ، وياخبيراً بدقائق أسرار العشق ، سمعتَ فيما مضى عقد زواجه ، فمزقت ثيابك من الغصة . واليوم وقد سيق إليك خبر موته ، وعلمت انقضاء أجله ، ترسل نائحاً نفس البكاء والزفرات .

فكيف وفقت بين الحالين ؟ إذ عقلى قاصر عن إدراك السر .

فأجاب المجنون : بكيت فى ذلك اليوم لما أصاب روحى من تلف بزواجها . ومن لا تنهل دموعه حين تحز به الشدة فهو حجر ، وإن كان آدمى المولد . واليوم أنثر الدمع لما التهم فؤادى من نار بذلك الخبر . وذلك أن زوجها قامر فخسر ، ولم يفقد فى صفقته ذهباً وفضة وكنى ، بل خسر ما كان يملك جملة ، وكان خلىّ الفؤاد مما سواها ، وكان طائر وردتها النضرة ، وشريكها فى المسكن ، يستمد نور باصرتيه من بقائها ، وقد قضى نحبه محروماً من وصالها ، وأسلم الروح من تباريح عشقها . وأنا المقروح الكبد المكروب الفؤاد ، وآلاف الفراسخ بينى وبين أحضانها . أضرب كل يوم فى عرض الديار ، وأقبع الليل فى زاوية غار ، فلقائى لها خيال ، وقربى منها محال ، سوى أننا كلينا من سكان عالم واحد ، ودوننا سماء واحدة ، وتمس أقدامنا وجه أرض واحدة ، ونعيش فى عصر واحد . وأنت تدرى أنى سأقضى نحبى فى النحيب ، ذليلا على سرير الهجر ، مثقل الصدر بعبء فادح ؛ وسأخر صريعاً فوق الصخور والأشواك ؛ مهجوراً من الحبيب نائياً من الناس ، لا رفيق لى غير ظباء الصحراء ، ولا محرم لى سوى قطعان الحيوان ، وسأكون فى سكرات الموت كغزال ثمل ، وسأخرج يدى من جيب هوسى لأحتضن غزالا على صدرى ، وانتزع شعرى بيدى ، ثم أفقد الوعى ، وتشد روحى فى طريقها الرحال ، ويضحك من

موتى الدهر القاسى ، وتنوح على الظباء فى مرقدى ، ويشيعنى إلى مثوى القبر ، وسآوى إلى اللحد يوم القيامة ، من أجل ذلك الظبى الذى لم يبال بما نالنى من غرم . وحاشا لمثلى ـ وأمامه من المستقبل ما وصفت وروحه ، نهب لذاك الأسى — أن يطرب بموت الأعداء، أويسر بانقضاء أجلهم . وكيف أضحك مسروراً حين يصاب آخر بألم أشكومنه وأضيق به ؟ ومتى نسى نصيب امرىء الفلك الدوار والطاغية الجبار ؟ فإذا كان قد جرى بالأمس بمصاب عدو ، ففى غد دورى ليحطمنى تحطيم الزجاج . وخير لمن يسر بآلام الناس ألا يعيش ، وأولى له أن يبكى على محنة نفسه . فالحكيم فى دار الهموم هو الذى لا يفرح بما يصيب سواه .

هكذا قال ، ونهض محيياً ، واستأذن فى طريق سلوك محنته ؛ فشد ذلك الرجل رحله إلى قبيلته ، وبقى هو مع عشيرته من الحيوان . . .

(٤٢)

فى طريق المجنون إلى ديار ليلى

الكلب الطريد

نظم راوى هذه القصة فيما نظم جواهر الكلم ، فقال :

كان قيس غريقاً فى أحضان المحيط الزاخر العباب ، نهيب العقل سليب الرشد ، تكسرت سفينة عافيته فتعلق منها بلوح ؛ فحين سمع ببشرى موت عدوه سرعان ما فكر فى نفسه ، فأدرك أن عقبة أزيحت من الطريق ، فصار الوصال أقرب منالا . فالبدر فى مهده ولا حراس دونه ، والوردة — بعدُ — نضرة لم يعرها ذبول الخريف ؛ فحدا به الشوق إلى ديار الحبيب عادياً كراحلة تسابق الريح ، أو كفرس سبوح ، حتى وصل إلى حى حبيبته الوفية ، فتلفت حيران ذات اليمين وذات الشمال يقتفى أثرها ، وإذا به يرى من بعيد كلباً(١) سقط إعياء وعجز عن السعى ، ووهنت ساقه وكل مخلبه عن الصيد ، يقف شعره إن عوى ثعلب ، ويئوده خوف الوحوش . قد هزل حتى بدت ضلوعه من جانبيه ، وصار جراباً بداخله عظام ، أوكجعبة مليئة بالقسى .

---

(١) لهذا الوصف الواقعى المثير نظير فى الأدب الفرنسى فى وصف بودلير لجيفة انظر :

Baudelaire : Les Fleurs du Mal La Charogne XXXIX

وخلت يداه من الشعر ، واشتبكتا حلقه فى شكل الثعبان . وخلا جوفه من الطعام ، وحمل عليه الجوع ، فقضقضت أسنانه ، حتى يخيل أنه جعل من عظامها طعامه . وبدت فى جسمه من الأرض الخشنة جراح سال منها دمٌ غمر جنبه ويديه ؛ وكأن كل جرح فى جلده فم ، وفيه القيح كاللسان ؛ وتطل من بينها بيض العظام كالأسنان ؛ لا بل صار جلده منها كشبكة ، عيونها مليئة بما يشبه الحمر لوناً ؛ وليست بشبكة للصيد ، بل هى مجلبة للذباب يطلب قوته . وكأن الثعلب يخاطبه كل لحظة فى لهجة الساخر المتكبر : أن هيا أنشب أظفارك — أيها السبع المفترس النمور — فى هذا الثعلب المسكين ! ! حتى متى ترقد عريان على وجه الأرض ؟ ألا فابحث بمخلبك لك عن فراء ! .

ورأى المجنون ذلك الكلب ، فجرى إليه جريان الدموع من عينيه ؛ ووقع كالظل دونه ، وقبل ألف قبلة تراب ساقيه ، وغسل بدموعه أقدامه ، وفرش له من الرمل الناعم سريراً ، وجعل من ركبتيه وسادته ، وأظله من حر الشمس ، وضمد بدمعه جراحه ، وأزال عن جسمه الأدران براحتيه ، ونفض الغبار عن رأسه ووجهه ، وطرد الذباب عن ظهره وجوانبه . وبعد أن مهد له مرقداً أطلق صوته بهذا اللحن الجميل :

يامن قلادته طوق الوفاء ، فداء لك ليوث الأرض ! ! أنت تفضل الإنسان ولاء ، وتفوق المحارم إخلاصاً . لا تصد عمن

يطعمك من يده لقمة ولو رماك بعدها بمائة حجر . وأنت فى الليل حارس ، وفى النهار راع ؛ يمل اللص منك مهنته ، والذئب منك أسير مخلب سبع . نباحك يوهن قلوب اللصوص ، إذ يهيب بالعسس أن يمسكوا بعصيهم . ولشعرةٌ منك فى ميدان العراك بألف حارس لدى الألباء . إذا غدوت طريقك أسد القلب ، فالعسس دون الكلب . وكم ضال فى حالك الليالى هديته إلى الدار بنباحك . صوتك ليلا نغم عذب يحلو لمسمع ابن السبيل . فإذا وصل نباحك إليه من ديار الحبيب فقد انفك إسار روحه . فإذا انصرفت للصيد كان صيدك للملوك ، يطلقونك من سواعدهم قوساً ، ويرمونك من قبضتهم أنشوطة أحبولتهم ، وأنت إذ ذاك مكسو بالخز والديباج ، فى عنقك قلائد الذهب والجواهر . ومن يعجز منهم عن اللحاق بك عدواً ، يقفى على أثرك بحصانه ؛ فلا يزال يتبعك حتى تجود عليه من طعام مائدتك . وما بك من تقصير حين تعدو لجلب فريسة ، بل تخلف وراءك ظل باز الصيد . وسواء وقع الطير لك فريسة أم أطلقته الريح من كروب إسارك ، فكم ثعالب ماكرة اخترقت جلدها مخالبك ، وهى اليوم معروضة فى دكان الفراء ؛ ويرهب النمر قوة مخلبك من قبل أن يبلى بسطوتك ، فيبقى معتصما بقلة الجبل ، على ماله من صولة يدّرعُ بها سلاحاً واقياً ؛ وسمع الأسد بمكرك فتوارى خائفاً فى البراع ، وانصرف

عن نزالك على ماله من رماح مسدودة من لبدته . وأنت آفة الغزلان . وما قوى الظباء المسكينة إلى قواك ؟ ! ولا ينجى حمر الوحش — حين تبلوها بصولتك — ما اشتهرت به من سرعة العدو . وإذ يراك الأرنب الجبلى نائماً يهرب خوفاً من عينيه النوم .

هذه هى قصة شبابك ، وتاريخ حياتك الطاهرة . والآن وقد حطم الدهر قواك ، وفقدت مخالبك قواها ، يهجرونك مهيناً محقوراً ! ! لم يقم إنسان منهم بحقك عليه ! ! . وسأظل رفيقك حتى الموت ، ثم حاشا أن أنساك بعد ! . فقد أقمت زماناً على أعتاب ليلى ، وكنت دهراً حارسها ليلا . فمهما تخلى عنك هذا الشرف وسقطتَ دون تلك الرتبة ، فأنا الأسيان على سوء مصيرك ؛ وسأجعل من حلقة ذيلك لى قلادة ؛ فابسط إلىّ يد الصداقة ، ومُدَّ بها حول عنقى طوق السعادة . وأنا القائم لك بحق الوفاء ، أضع وجهى على تراب أقدامك ، إذ سارت أقدامك فى ديارها ، وطالما جرّت على أثرها ، ولم تسترح ليلا فى حراستها ، بل كنت تظل تدور حول خيمتها . وأقبل عينيك ، إذ طالما نظرت بهما إلى محياها ، وقد اكتحلتا — من ريح طريق تلك الطاهرة العرض — بميل الشوك وأعواد العشب . وأعقد على ذيلك جواهر الدمع ، فكم طرقت بحلقته ذلك الباب ، وأود أن ألصق قلبى على ما وسمَتْك ليلى به من علامة حتى تصير ناره برداً وسلاماً . وموجز القول أنك ـ من رأسك حتى القدم ـ كنت غارقاً فى نور حماها ،

وأريد أن أخلى لك مكاناً فى قلبى العامر بها ، فكن دواء الجراح التى أرسل منها أناتى . ولست إلا تراباً فى طريق وفائك يامن جبل على الوفاء . فأماناً وعهداً وألف أمان ! ! وأسألك ـ إذا وصلت يوماً إلى تلك الديار وعدت إلى ورود أنهارها ، ومررت بديار الحبيبة ، وكان لك شرف المثول على أعتابها ، وجللل مفرقك غبار طريقها ـ أن تقبل لى آثار أقدامها أينما وجدت الآثار ، وأن تمرغ من أجلى رأسك فى تلك الأرض . وإذا وقفتَ ضيفاً على مائدتها ، ورمت إليك بعظمة من بقايا طعامها ، وطابت بها نفسك ، فتذكرْنى ضيفنا مثلك على مائدة نوالها . وحين تتردد ليلا على أعتابها ، وتراها فى لباس نومها ، فذكِّرها بى ساهداً فى أرض الهوان ، نائياً عن تلك الأعتاب . وحين تهمى أمطار الربيع فتغمر أردان خيمتها ، فَجُدْ علىّ بشرح قصة عينى الهامتين بالدموع من أجلها . وضع طوق منتك فى عنقى مذكراً بأنى كأوتاد خيمتها المشدود عنقها بالإطناب ، فى عنقى مثل هذه الحلقات من الحبال ، وأنا ـ بَعْدُ ـ أرزح تحت أعباءمن الأهوال . وإذا أصابها الأرق يوما فخرجت تتنزه فى ضوء القمر ، فاتخذ تعلة أنك تهدهدها للنوم ، لتحكى لها هذه القصة على لسان المحب الواله : « يا شبيهة الليث فى الصيد ، والغزال فى الحسن ، وبهاء جمالك مشهر كالسيف فى لون دم الأبطال من ضحاياه ؛ حتام أظل غريباً صريع الوجد ، أضرب هائماً فى الجبال والسهول . قضيت

عمرى بعيداً من بابك ، رفيق الظباء وحمر الوحش . واليوم أمثل للقرب منك ، ولكن ناظرى مظلم من غبار الهجر ؛ وأخاف أن أتقدم خطوة إليك ، فتصيب أشجانك بحُمَتها قلبى . وإذا كانت عقبةٌ قد أزيحت من الطريق ، فهناك مائة أخرى مهيأة . ومهما يكن البطل ليثاً قهاراً فهو فى خطر الوقوع فى حيلة ثعلب عجوز محتال . وقد يصيب الثعلبُ الأعرج براثن الليث المحطمة للأحجار. وأنا الجسور المقدام فى غابة تلك الديار عرين الآساد . وإنما أسعى فى طريق الوصال ، وأتصيد لحظات قربك ، كى أظفر بصيد وصالك ، وأتخذ عرينك مقاما . فإن لم أصل ظللتُ كما عهدتنى يظلنى خيال الموت دون القصد ، وسأقضى نحبى ، فتخلصين من أمرى ، وأخلص أنا من نفسى .

(٤٣)
المجنون يزور ليلى متخفياً بين القطعان

راوى هذه القصة بقضها وقضيضها ، قد استخرج هكذا لبّها من قشرها ، فقال :

حين وصل قيس إلى ديار الحبيب ــ وهو الخبير بمأتى الأمور ، النافذ إلى لبها ، والواصل من قشورها إلى لبابها ــ دقّ عليه الأمر دقة الشعرة . فلالديه أجازة بالمثول أمام الحبيب ، ولا صبر له فى البعد عن تلك الديار . وقد اشتد به الشوق لقرب الدار ، وأمامه ألف عقبة دون الوصال . فهام فى ديار الحبيب والها على غير قرار . وكلما رأى شخصاً فى تلك الديار ، أو صادف امرأ فى الطريق ، بحث لديه عن حيلة فى أمره ، وطلب منه دواء لقلبه المصاب . وذات يوم كان يدور حول ذلك السهل ذا قطيع يمر عن بُعد ، وحول القطيع نفح عبير ينبيء عن ريح الحبيب؛ وعلى وجه الراعى شبه لمعة نور من أنوار ليلى تتألق من بعيد ، فأضاء مصباح هواه على رؤية تلك الإشراقة ، وقال : ياذا العبأة السوداء ، ومنك يدبعت نور موسى الكليم(١) ؛ كل جبل بمقدمك طور ،

---

(١) من الواضح أن الشاعر يقتبس معانيه من قصة موسى ورعيه الغنم ، انظر مثلا : سورة القصص فى القرآن الكريم ، آية ٢٨-٣٣ .

وفى الطور من نارك نور . يامن بلك هذه الأرض كالوادى الأيمن ، ومن ترهب السموات عصاك ؛ فأينما تلق بعصاك من كفك تنزل بها ضربة فى عراك الحيوان ؛ ومهما بدت فى صورة العصا ، فهى ثعبان(١) مبين فى عين الخصم . وصوت مقلاعك أمان لمن يروعه الوحش . وحينما تسدد أحجار مقلاعك بقوة عضدك ، يولى الذئب عن قطعانك ، هارباً ينهض من خوفه ويقع . ولو كان صيدك فوق بروج الأفلاك التى تعيا بها آلات الحرب فصوبت إليه أحجارك ، لهوى الصيد مرتعداً خوفاً من فوق البروج . يامن كئوس ألبانك مائدة مبسوطة يطعم منها الناس ؛ والصبح كأنه كهل أشيب يُقدِّم من فيض تلك الألبان غذاء لصغار الضأن والمعز . أو تبخل علىّ برىّ مائدتك وأنا الظامىء الأسير ؟ فلا تكن حرباً كالدهر على ظامىء الشفاه ، وجد على فمى المحترق بجرعة من رياك . وما بى حاجة إلى غذاء الجسد من الألبان ، بل إلى ذلك الغذاء الروحى . ولا يغيب عن لطفك ووداك مرادى . فافتح لى باب ديار ليلى واحملنى خفية إليها ، حتى أجلس فى ركن أتأمل جمالها المحتجب دونى . وأطيب نفساً منك بطوق تقودنى به إليها ككلب فى القطيع ، فلعلى أستطيع فى جملة كلابها أن أمرغ يدى على أعتابها . أو امنحنى — كرماً منك ووفاء — فراء نعجة ألبسه فوق جسمى

(١) فى الأصل أزدها ، وقد ترجمتها بثعبان مبين لمناسبة السياق فى الاقتباس من قصة موسى .

المهدم الهزيل ، لا جلد به ولا لحم ؛ وإنما هو عظام فى جراب : فقدنى إليها عظاماً فى ذلك الجلد ، وسط قطيع جُعلت فداءه من قطيع ! ! لعلى فى حريم دار الحبيب أنتظم فى عداد صغار النعاج . وحين يغشى القطيع ذلك الحريم ، ستلقى عليه ليلى نظراتها ، فتشملنى كذلك هذه النظرات . وأنظر إليها أنا بدورى ، فأرى وجهاً يحترق قلبى شوقاً من فراقه .

هكذا قال ، وسقط كالظل إعياء فاقد الوعى ، كأنه ميت تبوأ فوق الثرى مرقده . واستمر دهراً على هذا المنوال ، وكانت عيناه تسيلان دموعاً ، وتنطلق من كبده المحترقة آهاته . وقام الراعى على رأسه باكى العين محطم القلب وحين عاد إلى نفسه من اغمائه ، وغمره من جديد فيض أساه، تكلم الراعى فى لهجة المشفق عليه ، وقال له : أيها المفئود الولهان ، طب نفساً ، فالوقت وقت إسعاد ، وهذا الليل هو ليل الوصال .

واحضر له فراء قائلا : ليكن هذا لك حجاباً حتى بيت الحبيب ، فالبسه جذلان ضاحكا ، وارقص به طرباً بين النعاج ، فعسى يطوف القطيع بتلك الغانية هذا المساء ، كما يحدث كل مساء ؛ فتكتشف أمرك بين العجاوات ، فتسير إليك من دون القطيع ٥

وكان المجنون قد سمع بتعلق ليلى بذلك القطيع . فلما رأى

المسكين الفراء نهض وارتداه ، وصنع له منه قدماً أخرى . وكان قلبه دائماً أسير شجى العشق ، فكيف تقصر فى طريق العشق أقدامه ؟ ! ولكنه أضاف إلى ساقيه قدمين أخرين من يديه . ثم قوّس كالقطيع ظهراً سبق أن حناه عبء الهم . وأضحى رفيق القطيع وشبيهه سيراً وعدواً وظهراً . وحدا به الأمل للسير على قدميه ويديه ليظفر بالأمل . وأخذ يهمس قائلا : يارب فاجعل الليلة حظى بهذه الخلعة الجديدة لين الملمس حمله ، وإن تكن هى سنجابية خشنة الملبس . لو أن هذا الأمر وصل إلى حبيبى لتنهد منه خجلا ؛ وستكون الخلعة فى وقعها عليه شوكا فى جانبه ، على أنها فوق ظهرى لينة الملمس . وأنا فى هذا الجلد كنافجة الظبية جفافاً ، فبالكلب شبيه بغزال الصين(١) ! وليس هذا اللباس أهلا لكل قوام ، فهو لباسى حتى تعود لى الروح وكنى . وقد زدت بمقدار ألف فراء إثر سرورى بلبس هذا الفراء . وبهذا الإهاب أبحث عن سعادة الوصال ، وسأخرج اليوم من نطاق إهابى طرباً .

وبينما يحدث نفسه بهذا القول وصل الراعى إلى البيت . وخرجت من خدرها تامة الحسن كالبدر التمام . توسوس حُليها عالية الرنين ، وتحلو نغمات خلخالها بساقيها ، ويتموج شعرها ذو الغدائر المثناه الملتفة ، يعطر أرجاء العالم بعنبره الخالص . ودارت

---

(١) غزال الصين معروف بكبر نافجته .

حول القطيع وألقت عليه أنظارها ، ومر القطيع ضأناً ومعزاً أمامها ، حتى جاء دور المسكين ، فنظر إليها من تحت فرائه ، فلم يبق له صبر ولا قرار ، وذهب من يديه زمام الاختيار . فأطلق صيحة ، وخر فى الطريق صريعاً كالطفل . وسمعت ليلى الصوت فعرفت من هو الذى وقع فى طريقها . وجلست فرأت فراء خشناً مملوءاً بدم كبد محترق كنافجة المسك . وقد ذهب عنه العقل فلم يعد يرى ولا يسمع ، فجعلت وسادة رأسه صدرها ، وغسلت عن وجهه الغبار بدموع عينيها . وحين عاد لوعيه وفتح عينيه وقع ساجداً أمام محياها ، قائلا : ياإنسان عين ذوى البصائر ، وياقبلة الدلال لذوى الدلال ، وبستان الورد المزهو بأزهاره ، ويانور المصباح الثمين ؛ أنت عرش فى الأعلى وأنا الأرض ، فهيهات أن تكونى حيث أكون . هذا ؛ ولا أعتقد أنى وقعت بعيداً ، فهأنت ذى واقفة على رأسى . وأنت مرفوعة الرأس فى أوج العرش فى عليين ، فحاشا أن تتخذى من أرضى فرشاً ! إن لمس أذيالك على كفى محال ؛ فهذا اللقاء ، إذاً ، من قبيل الخيال . والسكارى الذين يرون فى أمسيتهم أنواعاً من الخيال ، يتصورون فى أحلامهم مائة محال . وحسن طالعى على ما أقول دليل ، فهذه الواقعة من ذاك القبيل . وإن حلماً فيه أرى محياك ، وأجلس معك مطمئناً لحلم فيه يقظة جدى ، ومنه نور عينى .

ورأت ليلى منه هذا التضرع ، وسمعت منه هذه اللطائف

التى طابت بها نفساً ، فقالت : يامن أنت ضيفى هذه الليلة ، قد سكنت بك روحى هذا المساء . وهذا الإهاب حائل دون الحبيب ، فلا تقنع من الحبيب بالإهاب ، واطرحه عن عنقك ، واجلس بلا إهاب مثل اللب ذهب عنه القشر . وحتام التكلم من وراء ستار ؟ وفى النية الإفضاء إليك ببعض الأسرار .

وأضاء الليل ، وطلع القمر ، وأسرعت محنتهما فى طريق الزوال . وبقيا معاً حتى الصباح ، لم يكفا عن الكلام لحظة واحدة . فكم حكيا من قصة ملؤها الآهات والزفرات . وكم اشتكيا من الأشجان فيما مضى من السنوات . وكان قد بقى أمامهما مئات من طرائف القول ، وإذا الطائر يغرد بلحن الفراق . ونشر الصبح علما من ذنب السرحان ، ونام الكلب وغردت الديكة . وعلى صياحها ودع كلاهما الآخر ، فنصبت ليلى قامتها سائرة نحو خيمتها ، ومشى قيس صوب الصحراء ، وهو من البكاء كإحدى الشقائق .

نعم ، هذا شأن الدهر . إذا وجد كليم القلب مفطور الكبد طريقه إلى حبيبه بعد آلاف من الآلام والجهد ، فلا يكاد يلقى بنظره على محيا حبيبه حتى يحول الدهر بينهما ، مهيباً به : أن أسرع بالانصراف ! !

(٤٤)

المجنون مع السائلين فى ضيافة ليلى

حين فرغ ذو القول العذب من حديث السحر فى قصة الفراء ، كشف فى سياق قصته عن لباب البيان قائلا :

قد ضل فى السهول والجبال زماناً ذلك الهزيل كالدف ، تنبعث منه الأنات على ضربات الهجر . وقد ظل قانعاً من الحبيبة بذلك الفراء ، يحمله لذكراها ، ويجد فيه لخاطره سكناً . ولكن حين أبلى الدهر منه الإهاب ، ولم يبق فى كفه حتى تلك البقية من الحبيب ، صار أمره إلى ما يشتهى العدو . فلا حبيبة فى أحضانه ، ولا ذلك الفراء على جسمه . وماذا يبقى من سليب الروح بدون الحبيب ؟ وما العظام بلا إهاب ! وما إن مر عليه زمن على هذه الحال حتى تصاعد الدخان من حريق قلبه الحزين .

وذات يوم كان يحترق لوعة ، إذا هو أمام الراعى وقت الظهيرة ، فسقط دون قدمه كالظل ، وأطلق من صدره صيحة قائلا : أيها الآسى المكلوم الفؤاد ، حظى بمقدمك عجب ، ألا فانظر بعين العطف إلى ما يعانى الفؤاد ، لتطبنى — ياذا المروءة — من داء الفراق . فقد كنت قتيل الهجر ، مسلم الروح للأجل ، ولكنك نفثت فى من أنفاس لطفك ، وأعدتنى كالمسيح إلى الحياة . فنظرة أخرى منك إلى حالى ، فأنا اليوم متعلق منك بالأمل .

فبكى الراعى ، وقال : أيها الفتى الغريق فى الهم من رأسه حتى القدم ، قد قرح أساك كبدى ، وأجرت آلامك دم دموعى . ألا ليسعفك الحظ كما تشاء ، كى تتبوأ عرش مرادك . ولم يبد لى من قبل وجه فى علاج أمرك ومأتى دوائك ، ولكن ليلى — تلك التى أبدع القلم الإلهى فى تصوير بدائعها ، العذبة المحضر كالشهد ، بل من الشهد أطيب — تطهو كل أسبوع من لبن قطيعها طعاماً خاصاً تقدمه مساء للمساكين الذين حرموا مائدة السماء ، فيتوجه إلى أعتابها من تلك النواحى كل من خلت يده من موائد الرزق ، لينشد غذاءه من نوال مائدتها . وهى التى تشمر عن ساعدها لتقسم بينهم الطعام بنفسها ، وتغرف منه لتضع فى إناء كل امرىء نصيبه . ويمر الجميع آنذاك ، سواء منهم المعارف والغرباء . وهذا المساء هو وقت الأمل فى العطاء ، وموعد النوال للمحرومين . فانهض وفى كفك الوعاء ، وانتظم فى سلك ذلك الصف ؛ عسى أن تنال — فى انتظامك بين السائلين على تلك المائدة — بعض النوال .

وسمع المجنون تلك البشارة ، فقام ممتثلا للإشارة ، وأخذ فى نحيل كفه كأسه ، وانطلق فى ديار الحبيبة حتى وصل والهاً إلى ذلك المكان فرأى أمامه هناك ألف محب ، كل منهم يمد يده بوعائه ، يطلب كالحبيب النوال على مائدة إنعامها ، وينال ما قسم له من رزق . ورآها المجنون من بعيد ، فولى عقله من رأسه ، وطارت روحه من جسده ، وضعفت ساقاه عن احتماله ، واحتال بكل قواه ليظل

منتصباً على ساقيه . وأتت نوبته ، فقدم كالآخرين كأخيه . ورأته ليلى فلم تعامله معاملة الآخرين ، فبدل أن تعطيه نصيبه من الطعام ضربت بالمغرفة كأسه فانكسر . ورأى المجنون كأسه محطمة فوقع فى خاطره أن الأمر يسير على وفق ما أراد . وكان صوت تحطيم الكأس فى أذنه حلو الأنغام فوقع به ثملا ، ونظم لنفسه أنشودة جعل يرقص على ألحانها قائلا : من كان عيشه ميسراً فعيشى كذلك جد ميسر : فلم تنلنى كالآخرين حاجة ، وحطمتْ بحجر الظلم كأسى ، واختصَّتنى وحدى بأنظارها ؛ وحطمت كأسى من دون الآخرين . ومن قبل حطمتْ — دون سبب — قلبى ، ولكن أمرى مستقيم من هذا التحطيم . وياليت الحجر الذى أصابت به — جهرة — كأسى ، كان قد حطم كأس سرى ، حتى يبقى ذلك السر فى صف الواقفين مرفوع الرأس . ولا أطلب لى خلاصاً ، سوى تحطيم كأسى على يد الحبيب . وليس علىَّ بذلك من جور ، بل إنى لأرجو به النصر . ألا فداء لذلك التحطيم ألف رأس ! ! ولتكن الأرواح جزاء تلك اليد ! ! وقلبى مقطع النياط بخنجر حبها ، وقلبى خال من كل شىء سوى حبها .

(٤٥)

المجنون يفقد عقله كله

موقع عذب هذا النغم ، ومغنى لحن هذه القصة ، هكذا ضرب على أوتار الأعواد من بيانه ، فقال :

وقع قيس من جديد فى محنة الهجر ، وهوى فريسة آلام الصبر ، وذلك أنه عندما زايل رأسه طرب كأسه ، فارق السرور قلبه . فأخذ يحترق فى نائرة الفراق ، ويكتوى بشعلة الاشتياق . وكأن قدمه – أينما حل – فوق مقلاة ، فلاهو بذايق للنوم طعما فى عرض المروج ، ولا هو بمستسيغ عذب الينابيع شرباً . لا صبر عنده ولا قرار ؛ ينطلق أنينه على الأشواك والحشرات . ينشد فى كل شىء عونا ، ويطلب لنفسه الخلاص مما دهمه من خطر . وذات يوم فى الظهيرة كان يهب هواء تموز لافحاً كالنار المتقدة ، واتجه هو إلى خيمة الأذلاء ، أى إلى ظل شجرة من شجر الطلح ، يسرح طرفه من هناك فى كل صوب . وفجأة عمر السهل عليه بقوم من علية الناس ، ذوى محفات وهوادج . فسرعان ما نصبوا هناك مائة خيمة ، وأقاموا لهم منازل كالقصور . وعلى ما يرد عادة فى خيال العاشقين وهو سهم فى التعلق بالمحال ، مر فى خيال المجنون تلك الأمنية المحالة : وهى أن يكون هؤلاء القوم ليلى وقومها ، وأن تكون هذه رحالهم ومظاهر جاههم ومالهم . ثم عاد وقال : هذا هوس وخيال ، وتعلق

ن الحظ بالمحال . وبينما هو يردد لنفسه هذه الفكرة وذاك الأمل ، ظهر من المخيم جمع من النجوم يتوسطهن قمراً ، خرجن متنزهات منطلقات شطر الصحراء ، متجهات إليه يجررن أذيالهن دلالا . فنظر إليهن قائلا فى نفسه : من هؤلاء ؟ أمصدر نفع أم مثار أذى ؟ وهن مسرعات نحوه يتساءلن : من هو ذلك الوحيد فى الفلاة ؟ حتى إذا وصلن إليه رأى جلياً كلاهما الآخر . فوقع نظر المسكين على ليلى مع جمع من نساء قومها . ورأى قدمها مستوياً ممشوقاً ، فأخذ ينهض ويقع على غير وعى . ثم فارقه الوعى ، فجرت ليلى إليه ، ووقفت على رأسه ، وأسندت رأسه إلى ركبتها ، ونثرت دمعاً مخضباً بالدم من عين قد قرحها البكاء . وصبت عليه من دموعها ماء الورد ، فردته من نومته الطيبة إلى رقدة المستيقظ . وأخذ كل منهما يتأمل فى جمال الآخر ، وامحى بمحضره ملال الآخر . وتحادثا فى قديم مكنون الضمائر ، وأفاضا فى القول بكل در مثقوب . وفى وقت الوداع ، كانا بحيث لا يتمنى أحد أن يذوق امرؤ محترق القلب مثل هذا الجحيم . وقال لها المجنون : « يانور القلب وناره ! لقد مررتِ بأرضى اليوم وسط حشد من الهموم وحرق الوجد ، فخبرينى كيف أراك فيما بعد ؟ » .

فأجابت : سأمر كذلك فى وقت عودتى بهذه الأرض . وإذا ظللت فى مقامك هذا فأمل فى رؤيتى . وسيتبدل أساك بطلعتى سروراً ، وسأتحرى برؤيتك من ربقة المحنة .

وانصرفت ليلى من المكان ، وبقى به قيس كالميت ؛ كأنما انفصلت عن جسمه الروح . وأخذت تنأى عن أنظاره حاملة معها قلبه ، وهو يتابعها بعينين ملؤهما الحسرات . لم يكد يبقى له فى روحه من رمق ، وظل يردد القصائد فى الفراق . وبموجب الوعد الذى سمعه منها لم يتحرك من مكانه . وفى حيرة عشقه بآسرة قلبه لم يجلس ، بل ظل منتصباً كالشجرة . فكانت الطير تجثم على رأسه بعض الوقت ، ويظل هو ثابتاً كأنه شجرة أحكم فى الأرض أصلها . واسترخت شعوره متهدلة متشابكة كأنها الأغصان وظل على هذه الحال عهداً ، فاتخذ طائر من رأسه عشاً ، وبدأ شعره متهدلا كأنه — فوق تمثال جسده — نقاب أسود كالمسك مرصع بجواهر البيض . وفسق البيض عن صغار تطير ، تغرد بألحان العشق . ومر به حين على هذه الحال ، فعادت ليلى فى طريقها إلى ديارها ، ونزلت فى ذلك المنزل المبارك وحطت فيه رحلها . وقال كل امرىء من قومها ، ناشداً فى النوم راحته من مشقة الرحلة . ونهضت هى فى الظهيرة كأنها الشمس مضيئة المحيا . وانتعلت فى قدميها الرقيقتين أديماً محلى بالذهب . وبدت فى ثياب من الخز الأزرق المحلى بأوسمة يمنية . وخرجت فى زينتها بوجه كالجنة ، يتجلى فيه أمل كل آمل ، وقد أهيف ممشوق كالسروة يجذب القلوب ، وتهادت كالحجلة حتى وقفت على رأس المجنون ، فوجدته ولهان قد خرج من نطاق العقل ، ولم تبق منه فيه ذرة ، واستغرق فى العشق من رأسه حتى القدم ؛ عيناه إلى

الأرض ، يلتمعان كالأنجم الشاحبة التى أخذت تتوارى فى ضوء الشمس. وطالما دعته الهَيْنَمَة (١) بصوتها فلم يعد إلى وعيه . فرددت نداءها له بصوت مرتفع قائلة : يامن ديدنه الوفاء ، انظر إلى من جُبل على وفائك .

فأجابها قائلا : من أنت ؟ ومن أين ؟ عبثاً ما قدمت إلىّ .

فقالت له : أنا مرادك ، وأمل فؤادك ، وبهاء روحك ، أنا ليلى ، من أنتَ بها ثمل ، وأنت هنا أسير قيد غرامها .

فأجابها : إليك عنى ! إليك عنى ! ! فقد أشعل عشقك اليوم فى جوانحى ناراً تلتهم أرجاء الأرض ، فانتزع من نظرى غبار الصورة . ولن أعود — بعد — فريسة الصورة . فعشقى قاد السفينة بموج الدماء ، فتخلف عنها حب العاشق والمعشوق .

فى البدء تتحقق ذات العاشق فى كل ما يليق بطبعه ، حين تأخذه سورة العشق ، وتموت ميول نفسه ؛ فيولى وجهه إلى كل ما يريد الحبيب ، ويظل ينشد — فى العالم كله — رضاه . وحين تشتد جذبه العشق به ، يبرأ عشقه من كل وسواس ، فيسقط فى موج بحر العشق ، ويفقد وعيه على تلاطم أمواج العشق . فيشد الرِّحال حب العاشق والمعشوق ، فيصير الشطران فى إدراك العاشق شطراً ، فيصرف نظره — ألبتَّة — عن الثنائية ، ويغُضُّ عين بصيرته عن

---

(١) الهينمة : بصوت خفيض .

« أنا » « وأنت » ؛ فهو فى أمان من صراع الثنائية ، فيخلد والعشق حتى القيامة(١) .

وعلى سماع هذه الكلمات فرغ فؤاد ليلى من الصبر والقرار ، وعلمت عن يقين حاله ، وجلست تنشج بكاء قائلة : «واها لِمَنْ أسلم عن يدٍ دينه ولبه لوقوعه فى شراك حبناً ! ! وأشاح بوجهه عن مبنى الأمل ، وجد فى إثر دائم البلاء ! ! فوقع فيه صريعاً . إذ لم يحظ من مائدتى بنوال . وهيهات أن أجالسه مرة أخرى ، أو أن أحظى فى لقاء برؤية جماله بعد الفراق » .

وفرغت من قولها ، فعادت أدراجها فى الطريق ، وأقامت مأتم الفراق . وانصرفت وملء صدرها الآلام والآهات ، تقول وعيناها تهيمان بالدموع : واحسرتا من دهر طاغية ! مورد عيشه رنق لا يطيب ، وقدح شرابه مترع بالسم ، يتبدى فى مظهر القهر لطفُه ! ! كنا حبيبين طابت بالصداقة نفوسنا ، بعيدين من وهم الزمان ؛ يدور الفلك بما نشتهى ، ويناولنا الساقى كأس الطرب ؛ فسقطنا صريعين على يد اللئام ، وافترق كل منا عن صاحبه . فهو

---

(١) يتحدث المجنون هنا عن العشق الإنسانى حين يبدأ طاهراً فيتجه المحب إلى التضحية والفداء فى سبيل حبيبته ، ثم لا يلبث أن يتذكر الله مبدع هذا الجمال وهو مصدر كل جمال ، فيشيح بوجهه عن المخلوق إلى الخالق ، وينصرف بكليته عن طريق العشق الإنسانى إلى المعشوق الأزلى . انظر فصل ٤٨ من هذه القصة ، ثم انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحياة العاطفية .

على شفا الموت فى النأى منى ، وأنا فى البعاد منه كالشعرة هزالا .
فهو مولٍّ وجهه شطر وادى العدم، وأنا سائرة إلى مضيق الأسى .
وهو بدونى مشرف على الهلاك ، صريع فى وحل الدم من دموعه.
وأنا بدونه فى سبيل الزوال ، لا أبحث بدونه عن خيال للجمال .
واليوم قطعت منه الأمل ، ووطنت قلبى على هجره إلى الأبد . قد
ذهب من كان له وصالى ، وآن للقلب أن تبلغ به مُزق الجوى
مداها ، فلا رأى إنسان ما قاسينا من حرقة ! ولا عانى ما تصاعد
من مصباح قلبينا المحترقين من دخان ! !

هكذا قالت ، وشدت رحلها محطمة القلب ، ورحل المجنون
كذلك من موطن آلامه إلى موطن آخر . فحين انتهى من وعد
حبيبته رحل بعبء همومه من تلك الأرض ، ودأب على حياته التي
ألفها من قبل فى صحبة الوعول والظباء .

(٤٦)

بدوى فى زيارة المجنون

من نصب المجنون المحفة لعروس هذا السر هكذا حداها بأنغامه قائلا :

كان فى ديار العرب بدوى على حظ من العقل ، رقيق الحاشية ، طاهر الذيل فى ساحة العشق ، ساحر البيان فى طرائف نظمه ، يهيج عذب صوته الأشواق ، ويبلغ إلى أعماق القلوب من ذوى الأذواق . سمع هذا البدوى بقصة المجنون ، وبصيته فى نظم الغزَل كالدر المكنون ، فاجتذب الشوق إليه عنان روحه فركب ناقة عداءة كالريح ، وقطع الطريق ، وجانب السهل حتى وصل كالريح إلى قوم بنى عامر ، وتحادث معهم مستخبراً عن آثار المجنون ؛ فقالوا له : إنه معتزل للخلق ، قد أنس بوحوش الصحراء فصار مثلها وحشى الطبع ، وغنى بالأنس بها عن الإنس ، وقد استراح إلى صحبة الوعول والظباء ، فهيهات أن يأنس إلى أهل القبيلة .

وسمع البدوى هذا الكلام ، فلوى عن العامريين عنانه ، وشمر عن ساعد الجد فى خوض الأعاصير وقطع الجبال والسهول ، واجتياز النجاد والوهاد ، وكم قاسى من خوف مخاتلة الوحوش ؛

وإذا به يرى سرباً من الظباء ، وبينها قيس كالراعى ، منتصب القامة دون انحناء ، كالألف المجردة ؛ وهو أسود كالألف من أثر سموم الضحى . وهو يسير وسط الظباء لا يسترده إلا بضعة أعواد من العشب ، من الأمام ومن الخلف . ومن رأسه يتهدل شعره الفاحم على صدره كأنه شعاره الأسود ، وهو من ضعفه وسواد لونه نحيل كأنه شعرة بين شعره الفاحم .

ورآه البدوى على تلك الحال ، فأقبل عليه محيياً بالسلام . وحنا ظهره للسلام ، فذعرت أسراب الظباء وفرت على تحيته . فأبغضه المجنون ورفع ليرميه حجراً ، وشن عليه حرباً لا صلح فيها . وقال له : لم تكلمت أيها الغر ؟ ولم تجاوزت فى طريقك حدّك ؟ قد أذعرت منى أصدقائى ، وجعلتهم يفلتون من شبكة وفائى . فاباك وهذا الهوس ، وامض لشأنك ودعنى وشأنى . فأنت أسير نفساك وقد تحررت أنا منها ، وأنت مستريح إلى طبعك ، وقد تخلصت أنا منه . وأنت فى طرب العرس ، وأنا فى مأتم ، فكيف نتفق ؟

فلم يجد سبيلا إلى صحبته بحديثه ، فبدأ يردد عليه من آلامه ، منشداً له أنواع الألحان من عال ومنخفض ، فوفر له حظاً من غذاء الروح . وطاب خاطر قيس على سماعه إياه . ولم يلوعنانه عن صحبته . وتعلق كل منهما بالآخر ، وتوافقان كاللبن والشهد ، وأخذا يتساجلان الأشعار والغزل ، وكم قرأ المجنون من رسائل أشجانه ، ونثر مئات من عقد جواهره . وصار البدوى صدفاً

لجوهره ، وأصبح كله أذناً ، ولا شيء مع الأذن غير عين الفطنة . وكل ما وصل أذنه من در ، نظمه هو فى سلك الحفظ . وهكذا عمله من الصباح حتى الليل ، وكان يجهد ليلا فى ترتيب هذه الأبيات . فكان فى النهار يتصيد منه ما يتاح له ، ويمضى الليل ساهداً يكرر ما حصله لينظمه فى سلك الحفظ . ولكن ما لبث أن خلت راحلته بعد بضعة أيام من الماء والزاد ، فاضطر لوداع تلك البقعة ، قاطعاً أواصر الصحبة ، وفى خاطره كثير من القصائد ، كل بيت منها يستدر بتلاوته الدمع من قلب سامعه .

(٤٧)

موت المجنون

مسطر عنوان رسالة الفراق ، هكذا جاد بفيض قلمه قائلا :

إن ذلك البدوى الذى ألف النجاد والوهاد ، وكان قدوة فى بكاء الأطلال والدمن ، بعد أن مر حين فى دياره مشغولا بأمره وأعباء عيشه ، راجع قلبه هوى لرؤية المجنون ، فخرج من منزله على راحلته السريعة العدو ؛ ومر أولا من العامريين ، مستخبراً من كل امرىء عما نمى إليه من أخبار المجنون ، فقالوا له : منذ قرابة أسبوعين وقلب هذه القبيلة مصاب من أجله ، فلم ير أحد له أثراً ، ولم يسمع عنه خبراً . وعسى أن يسفر انقطاع الأخبار عن خير إن شاء الله .

فنهض الأعرابى مسرعاً ، وتوجه من مساكنهم شطر الصحراء ، ولم يدع جبلا أو سهلا إلا مر عليه مر الريح . وقطع الأرض شبراً ينقب عن ذلك الصديق الكريم . وبعد بحث استغرق يومين أو ثلاثة ، كان البدوى يسير فى طريقه يائساً ، وإذا هو بقطعان من الوحوش دون الجبل ، فأسرع بالذهاب صوبها ، فرأى فى وسطها المجنون ، مع ظبى ناصع البياض ، شبيه ليلى عيناً وجيداً ، وقد تعانقا فى حفيرة ، ورقدا رقدة أعوزتها الرعاية ، هى رقدة الموت ،

على وسادة من الأرض وسرير من الشوك . وكان قيس قد أسلم الروح من حرقة الفراق ، ورأى ضجيعهُ فى الحفرة ما حل به ، فمات وفاء له . وحوله حلقة من الحيوان قد كسرت غصن الطرب. فمن صدر الظبى تسترسل الآهات ، ومن عيون الوعلة ينصب الدمع ، ومزق الثعلب فروته . ونثر مخلبه على رأسه تراب الأسى . وأخذت الذئاب تمزق من هول المصيبة وجه الأرض بأظافرها . ووقفت حمر الوحوش فى دماء دموعها مما دهاها ، بعد أن كانت آمنة فى كنفه .

ولما رأى البدوى تلك الواقعة ، وأنها خراب فى ركن حياته ، استرجع ، وأسال من أهداب جفونه الدموع . وأخذ يئن وفاء ، ومرغ وجهه على أقدام المجنون وهو فى صراع مع أشجانه . ثم ألقى نظرة حوله ، فرأى خلف ظهره هذه العبارات مخطوطة بإصبعه على الرمال :

واحسرتا أن متُّ بجوى العشق ، فلم تسلم على سرير الموت روحى ، وغدت شمس الزمان برداً على أعضائى ! ! ولم أنل من أحد فى هذا العالم مرحمة . وقد قصمت مصابرة الليالى ظهرى ، وقضت علىّ الأيام بسيف الهجر . ولا أحد مثلى مقتولا بلا دية ، ومحروماً من كل تعزية . فما على رأسى بكى صديق ، ولا غسل من الغبار وجهى . ولم يحمل لى امرؤ من حبيبى السلام ، ولم ينه إلىّ منه رسالة . وقد أسلمت نفسى عن يد إلى طبيب الفلك ، فلم

يداوني في رفق . بل أفرغ قدح شرابي من الماء ، وأبدلنيها برشح دم القلب . وقد قرح كبدى تفكيرى فى غدى ، ففى كل غدٍ لى مُزّقه فى الكبد . ولم يعان أحد من هم غده ماعانيت ، ولم يمت أحد فى مثل حظى . ويضيق قلبى بقبة الفلك كأنها حوله زجاجة ، فتحطمت بها زجاجة حياتى على صخرة القدر . وسيبقى من تلك الزجاجة حتى الحشر ما يكون وقعه على الأفئدة الكليمة شديداً كلدغة الحُمَة .

وقرأ الأعرابى هذه القصيدة ، فروع قلبه واتقد بنار الأسى . وكان معنى كل بيت كالزيت يقع على نار صدره ، وأطلق من جوى قلبه صيحات . وامتطى راحلته العالية السوق ، وسار بها حتى ألقى ظل رحله فى بنى عامر ؛ ولكنه لم يلق فى ديارهم ظلا ، بل شعلا من نار اتقدت بها أرواحهم وقلوبهم ، فإنه بذلك الخبر أورى ناراً ذات ألسنة أحرقت عالمهم . ومزق أهل الحى جميعاً على سماع الخبر ثيابهم ، ورموا بعمائمهم إلى الأرض ، وقطعوا الشعور وخدشوا الوجوه . وماذا أقول عن الأب والأم ؟ كل ماأقول قاصر عن وصف حالهما : لقد خرج أبوه المسكين عن وعيه ، وارفض جسمه بفيض دم كبده . وعرت روح الأم من ذاك المصاب حرقة . وكأنما ألقيت نار على كل أخ من إخوانه . وبدا أهل الحى وقد أعيتهم الحيلة ، على ما هم عليه من صدق الدخيلة . وساروا إلى

ما دون قمة الجبل متجهين شطر المجنون ، وفى صدورهم من الهم آلاف الجبال فالقلوب مليئة بالأسى والشجن ، والعيون مليئة بدموع من هدم . ورأوه ووقعوا على مرآه فريسة الأحزان ، وأطلقوا صيحات الأشجان . وسلك كل منهم طريقاً فى حداده ، وسطر على قلبه معنى الأسى لفقده ، فمنهم من عانى حسرة على شبابه ، ومنهم من صاح أسيان على عجزه وحرمانه ؛ وقام منهم من ذكر القوم بضلال الحيلة فى طبه ، ووفى آخر القول فى سوء حظه ، وتحدث بعضهم عن طبعه الفياض بالطرائف ، وتحدث آخرون عن نظمه الذى يسمو بالروح . ومنهم من تلا حديثه الطاهر ، ومنهم من قص مأساته الأليمة . وظلت أمه تنتحب من وقع المصاب ، وتلصق وجهها بمحياه الشاحب . وكان أبوه يصب من دمع عينيه دما يختلط بثرى قدمه . ولما سكن جلبهم وصياحهم أنزلوا المجنون فى مغيب نعشه كالقمر ، ووضعوا بجانبه الظبى الذى قضى معه وفاء له . وحمل العامريون نعشه إجلالا له على الأعناق والأكتاف متوجين إلى محلتهم . وكانوا يتركون فى كل خطوة خطوها مائة عين ماء من فيض عيونهم ، وكلما نقلوا به خطوهم كانوا يسلون مئات الصيحات ، وخلفوا وراءهم فى كل ميل قطعوه نهراً آخر كدجلة ، ونيلا بعد نيل . والوحوش على أثرهم تحثو الثرى على الرءوس ، وتمشى الهوينا مطلقة أنواع صيحاتها بأنغام الأسى ، وظلوا كذلك طوال الطريق حتى وصلوا .

فغسله الباكون بفيض عيونهم ، وخضبوا بدم دموعهم وجهه ، لأنه طُلَّ دمه فقتل بسيف العشق . ثم حفروا له فى باطن الثرى حفرة ، وغيبوا ذلك القلب الطاهر ، فخلص بذلك من الهم صدره ، وملئوا باطن الأرض بكنزه . ورقد معه — دون قدميه — ذلك الظبي الذى قضى فى هواه . وأوى المجنون إلى منزل لا عيد فيه ، فى صحبة لا ثقة به من الظبي والقبر . ومنذ نفض المحبون من ترابه أضحى مقامه مزاراً لكل بائس مجروح من جور الدهر ، يصب فوق قبره درر الدمع ، وتقصده الوحوش تطلب لها قراراً وسكناً ، وتكحل الظباء سواد عيونها النجل بغبار ضريحه ، وتسترسل فى تقبيل حافة الضريح ، حتى يتقوس ظهرها مثل القبر . وقد نبت العشب الأخضر فى ثرى القبر المرتوى من دموع الظباء ، ورفت فى حواشيه الشقائق . وفى ضوء ذاك المزار الملىء بالنور تنأى الوحوش عن طباعها السوء . فقد أزال الثعلب بذيله غبار الحيلة من طريقه ، وبدا الأسد وكأنه يخاف الذئب ، إذ نفى عنه كل أثر للكبرياء .

نعم ؛ إن العاشق العف الطاهر الدخيلة ليس عشقه من عالم المجاز ، فترابه ترياق مجرب ، وعشقه الطاهر إكسير الوجود ، ينتزع الزيف من زائفى القلوب ، ويصير نحاس قلوبهم ذهباً خالصاً . فقد صار المجنون — بعد أن توارى فى الثرى — كنز كرم لجميع الناس . فكل من وقع فريسة الأسى والألم مدّ يده إلى

أعتاب ذلك الكنز ، فأصاب من معدن الكرم مراده ؛ بل وجد مائة مراد فوق مراده . فحظيرته روضة الفرح ، وذخيرته رضوانها . ولذا فوجوه الخلق جميعاً إلى حظيرته ، وعيونهم على ذخيرته . ألا طوبى للقصاد إذ يؤمون تلك الحظيرة ! ! وطوبى للنفوس بتلك الذخيرة ! !

(٤٨)

المجنون وجد طريق الحقيقة (١)

حذار أن تظن أن المجنون قد فتن بحسن المجاز(٢) . فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى حين وقع ثملا

---

(١) قد أحب المجنون ليلى حباً صوفياً فى قصة الجامى ، لأنه هام بها أولا وصبا إليها ولكنه ارتقى من الحب الجسدى إلى الحب الروحى ، فنفذ من وراء جمال الجسد إلى ما يدل عليه ذلك الجمال من معان روحية ، أسمى هذه المعانى دلالته على جمال مصدره واهب كل جمال ، وهو وحده أهل لأن يحب لأنه ذو الجمال الذى يجل عن الكيف ، وما جمال المخلوقات إلا دليل على جماله ، يهتدى به من سمت أرواحهم فى سلوك طريق الحقيقة . وحين انتقل المجنون من مرحلة فتنه بجمال لبلى إلى تلك المرحلة الروحية السامية ، كان قد برىء من الحب الإنسانى ، ولم تعد ليلى ى عينيه شيئاً ذا بال . (أنظر فصل ٤٥ من هذه القصة) ولكنها ظلت رمزاً مدلولة الجمال الخالد ، وبقيت لذلك طريقه إلى الوجد ، فكان ينطق باسمها وقصده الذات الإلهية (كشعراء الصوفية ، انظر ديوان ابن الفارض مثلا) وقد مر المجنون فى عشقه بالمراحل التى يجتازها كل محب صوفى حين ينتقل من حب الجمال الفانى إلى الهيام بالجمال الخالد . وقد تأثر الصوفية من المسلمين فى هذه النظرة إلى الحب باراء أفلاطون وأفلوطين فى الجمال ، انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحياة العاطفية .

(٢) حسن المجاز : الحسن الحسى فى هذا العالم لأنه وسيلة يحوز بها العاقل الحكيم إلى حسن الحقيقة ، أى يهتدى بهذا الحسن الأسمى كما سبق أن شرحنا . لأن جمال المخلوقات دليل على جمال ذى الجلال : يقول أحد شعراء الصوفية :

جمال فى كل الحقائق سافر ... وليس له إلا جمالك ساتر
تجليت للأكوان خلف ستورها ... فنمت بما تخفى عليه السرائر

(أحمد الكمشخانوى النقشبندى : جامع الأصول ، طبعة القاهرة ١٣٣١ هـ ص٥٧).

محيا ، فقد رمى آخراً بالجام من يده فتحطم . فثمله إنما كان من الخمر(١) لا من الجام ، إذ أنه هرب فى عقبى أمره من الجام . فتفتحت فى بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة . فالعين التى انبجست تهدر من شق حجر ، قد صارت بحراً وغطت الحجر. فكانت ليلى طلبته فى هذا الجيشان ، ولكن توارى وجهها عن قصد العاشق وكان يحلو فى فمه ترداد ذلك الاسم ، ولكنه كان يرمى من نطقه إلى مقصود آخر . فالعاشق الذى يضنى من هيامه بحبيبه ، يقول : « القمر » ؛ وقصده وجه الحبيب .

يحكى أن صوفياً نقى السريرة رفع عنه الحجاب فى نومه ، فظهر له المجنون بوجهه على حقيقته ظهوراً لا لبس فيه ، فقال له الصوفى : يامن ظللت على حال يأس وهلاك ، تغنى بآلامك فى مجاز الفتنة ثلاثين عاما ؛ حينما نازلك الحمام ، ماذا فعل بك معشوق الأزل ؟ .

فأجاب المجنون : « قد دعانى إلى حظيرته ، وأجلسنى فى صدر سرير قربته ، وقال لى : أيها الجسور فى ميدان العشق ، ألم تستح من أنك فى تلك الدار كنت تحتسى الراح من كأس ليلى ،

---

(١) الخمر رمز للوجد ، وكانت ليلى سبباً لهذا الوجد الصوفى الذى يسكر فيه المحب بظفره بلذة الحقيقة ، والسكر لا يكون سببه إلا المكاشفة بنعت الجمال ، لأنه طرب الروح وهيام القلب : (المرجع السابق ص ١٦٣) .

وكنت تنادينا باسم ليلى ؟ ! ولم يجر على سوى هذا العتاب ، عند ما فتح لى باب الخطاب » .

أى جامى ! تأمل فى الخليقة ، فكل ذرة منها فى عيون أهل الحقيقة جامٌ مباركة مترعة من نبع الأزل(١) ، سطر عليها من كل جوانبها اسم . وذلك الجام ما هو ؟ هو جام الباقى . وذلك الاسم ما هو ؟ هو اسم الساقى . فمن الجام انشد الراحة بخمره ، ومن الاسم تطلع إلى صاحب الاسم ، منزهاً إياه عن السماوات ؛ وبالسكر غب بنفسك عن هذا العالم ، حتى تتحرر من وجودك الخاص ، ومن ظلمة الزهو بنفسك ، فتصل إلى مكانة لا سبيل إلى تجاوزها ، ولا خبر عنها إلا بانقطاع أخبارها — وقد حدثتك عن عالم لا معالم له ، وأخبرتك بما يدل عليه ، وعليك أنت أن تدرك .

---

(١) أى أن الجمال فى كل المخلوقات دليل على مصدره ، فهى مظاهر مقتضية لمراتب وصفات غير متناهية ، كما قال أحد شعراء الصوفية :

لا تقل دارها بشرق نجد   كل أرض للعامرية دار
ولها منزل على كل ماء   وعلى كل دمنة آثار

(أحمد الكمشخانوى : جامع الأصول ص ٥٨) .

(٤٩)

نعى المجنون إلى ليلى

مسطر عنوانات هذه الجريدة هكذا خط فى خاتمتها قائلا :

حين فرغ ذلك الأعرابى الرزين من دفن صديقه المجنون ، امتطى ناقة نجيبة كالغزال عدواً ، وتوجه برحله نحو ديار حبيبته ، فوصل إليها وقلبه وروحه نهب الأسى ، وأخذ يسأل منزلا منزلا ، ويدور فى الحى منقباً عن ليلى فريدة دهرها ، حتى وجد طريقه لخيمتها ، فرآها دون الخيمة كالبدر ؛ وليست بدراً ، بل هى شمس تضىء العالم . وليست بشمس ، بل هى نار تحرق هياماً بها قلوب العالم ؛ ولكنها مع ذلك كالبدر جمالا ، والمشترى زينة ، والحور شبهاً ، والملائكة شمائل . وعرفها الأعرابى من بعيد ، ولكنه تظاهر بأنه لم يعرفها . وسألها قائلا : أيتها الغانية الكريمة ، ومن أنت هنا مقيمة ؛ ليلى ذات الطلعة كبدر التمام ، أين مأواها والمقام ؟

فأجابته : « أنا هى » . وما كادت تتم إجابتها حتى أشاحت بوجهها وعيناها تهيمان بالدموع . ثم قالت : إن قلبى — وهو مأوى حبه — لم ينبئنى قط بسوى الحق ، وهو يحدثنى فى كل لحظة قائلا : إن ذلك القعيد بالعراء الممزق الأردان ، الهائم من أجلك فى السهول ، والجواب فى سبيلك للجبال والوديان ، قد قضى من محنة

فرقتك ، وأسلم الروح وحيداً غريباً . فوا أسفا لما قاسى من حرمان وعزلة وغربة !

فصاح الأعرابي باكياً : « يامن تراب أقدامها للسماء قمر ، والله لقد حدثك قلبك حقاً ، وأصاب فيما ثقب به لك جوهر هذا السر . قد قضى المجنون مسكيناً مما حملته من شجن ، ولم يقو على الحياة فى هجرك . واحتسى شربة الأجل على ذكراك محتضناً غزالا . ولم يقف على رأسه سوى قطعان الحيوان ، وليس من أسى أشد من تلك الوحدة . وقد وصلت أنا إليه ، ووقفت على رأسه ميتاً ، ورأيته وحيداً غريباً . فذهبت فى نفس اليوم محترق الفؤاد إلى قبيلته . وسلكنا خاشعين فى طريق وفائه ، وأنزلناه مكانه فى القبر . وتوجهت إليك من تلك الأرض وعلى جبينى من غبار اللحد .

وعلى سماع هذا الخبر وضعت ليلى رأسها فى موطىء القدم وسقطت صريعة فى هاطل من الدموع ، فكأنها هوت برأسها فى عين ماء ، قد ملت الحياة وسئمت البقاء . ثم فقدت الوعى طويلا ، وحين عادت إلى نفسها أخذت تردد طرفة هذا اللحن : واسفاه أن ولى أمل الروح ، وذهبت السكينة عن قلبى المهيض ! ! وقد كنت جسداً روحه قيس ، فكيف لى بالعيش بلا روح ؟ ! وها قد دق لروحى طبل الرحيل ، وهأنذى مقفية على أثر روحى ! . وحين

أقضي نحبي غارقة فى البكاء بعيدة عنه ، وأنأى بجانبي عن شئون هذا العالم ، ليكن مرقدى قريباً منه حتى أضع رأسى على كف قدميه ، مطلقة من قلبي الحسرات على فوت حظه ، وسأطبع مئات القبلات على تراب هذه القدم . وحين يبلى جسمى المهيض جلده ومخ عظامه ، ويصبح جسدى كاليراعة فى ذلك المسكن ، به من سهام البلاء آلاف الثقوب ، حينذاك سيكون كل ثقب منها فماً يصيح أسى وشجناً ، محدثاً قيساً عن عميق الأسرار ، شارحاً له ماضى الكروب . وكلما ارتفع من عظامى صوت أجاب هو عليه بنفس اللحن . ونبقى معاً نتناجى فى غير مغرم حتى القيامة . ويوم يصب ماء الحياة على أجسام الموتى ، فينهضون من قبورهم ، سيفتقد كل منا الآخر ، وسأقوم من القبر يدى فى يده ، وسنكون معاً فى المواقف حيث يقف كل امرىء على ما كتب له . وسنقسم معاً المصير ، أيما فى جنة وأيما فى نار ، وننعم معاً فارغى البال .

هكذا قالت ، وانصرفت إلى خيمتها جاعلة منها مأوى الحزن ، وظلت حزينة ما بقيت فى هذا العالم ، فكانت رفيق المحنة والأشجان .

وأى امرىء لم يعره مثل ما عراها من الأسى بفقد الأحباب !؟ فيارب لا كان فى مصائب الدهر ما له من سنة فى فجيعتنا بفراق الأبد !

(٥٠)

ليلى تضنى وتستعصى على نصح صديقاتها

أضحت ليلى كشقائق النعمان ، غريقة فى دم الحرقة والأشجان ، قد ضاقت على قلبها الأرض بما رحبت ، ورمت بكأس عيشها على حجر الأسى . وفقدت فى صراعها مع الآلام ، لذة المطعم وراحة المنام . وذهب عن بدرها المشرق الضوء ، وانفض عن وردتها الغضة ماء الرونق ؛ وصار قلبها كبرعمة ، مضرجة بدم الأحزان ، وكانت دموعها فى لون شقائق النعمان . ثم غزت جسمها أخيراً الحمى ، فنهبت وردها وياسمينها . واتخذت الحمى روحها هدفاً ، فلم تترك فى خدودها لون عافية ؛ بل رمتها بسهم من قوسها ، فأحالت حمرة وجنتها اصفراراً ، فغدا دينار جمالها درهماً نقشه آهات الألم ، وصنعت بثور الحمى على شفتها خالا ، واتسع عن ساقها الخلخال . وعلى وسادتها بلغت بها الأنات المدى ، وغدا سريرها كمبضع جراح ، وهى فوقه نحيلة الجسم واهنة كالشعرة لحمة وسدى . ونمت فى حديقة جسمها زهرة الأسى الزرقاء . وذهب عن قدها رونق السرو ، وعن صبغتها بهاء الأرجوان ، وآد قلبها عبء الأسى ، فقوس صنوبر قدها . وعلمت صديقاتها — وهن موضع سرها ونجواها — بأنها وقعت مريضة على سرير الأشجان ، عقب موت ذلك الغريب الشريد ، فحاولن ما

فى وسعهن أن يجدن لها دواء فى نصائحهن ، فقلن لها جميعاً فى حدب : ياشجرة الورد فى حديقة الأمانى ، وياسروة روض الحياة ، ويادبياجة سجل الجمال ، وعنوان صحيفة الحسن ، ومن سلكت فى أمرك طريق الوفاء ، وكنت راسخة القدم فى خلق الحب والولاء ! ! فى ذلك العهد الذى كان يعيش فيه المجنون ، كان مقامك فى بيت الهموم لا تبرحينه ، وكان هو سالكا بروحه لك طريق الوفاء ؛ لم يرض بك بديلا . وما أطيب ما كان منه لك من وفاء ، ومن ثبوت قدمه على حبك . ولهذا يلد الحبُّ الحب ، ومن ديدان الوفاء أن يزيد جزاؤه وفاء ؛ ولكن اليوم — وقد شد رحله من هذه الدار وولى وجهه شطر العالم الآخر — أى جدوى من هذا الحب والوفاء؟ وماذا ترد عليك هذه المحنة التى تعانين ؟ فلا تعيشى بالحداد مع الميت ، فليس المرء يحى على الحداد والنحيب . وأخلى بالك من الوسواس ، وأفرغى قلبك من هذا الشجن . ولاتُذْرى على الريح شبابك ، ولا تزهدى فى صفاء العيش .

فلما سمعت حديثهن نظرت إليهن ، وقالت : أيتها الغافلات عما بى من نار ، وعن حرقة قلبى ومأتى بلائى ، لا تحرقن على الدوام قلبى بهذا الشمع المشئوم الذى تُشْعلْنه ، وأنا المتقدة الجوانح من فراق الحبيب ، فماذا انتفاعى بحرقة أخرى ؟ فقد كنت أحيا على ريح قيس حتى سمعت قصة موته ، فضقت بالحياة ذرعاً وصرت غريبة عن سعادة الشباب . وكان بستان عمرى به مورقاً ،

واليوم يطالعنى بريحه الموت . فلا خلاص لى من الكرب الذى أشعل الجوانح بسوى الموت ! فعسى الوصال الذى قبض يده عنا فى مضيق هذا العالم يبسط يده لنا فى العالم الآخر ، وما أطيب النجاة من الهموم لأحظى بالحبيب خالصة له ، وأنعم وإياه بالسعادة فى عيش السرور الخالد ! !

(٥١)

وفاة ليلى

أقبل الخريف بريحه ، فخلعت الأشجار على مهب ريحه ثيابها ، وتعرت من خلعها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه . وصارت الورد زهرها وعشبها فى لون العنب حين يخرج من المعصرة ، وتجلت آلاف الألوان عرضها صباغ الفلك من مصدر واحد . ورمى طاووس الشجر بثماره ، وطرح سلطان المروج درع أوراقه . وأصبحت الأشجار مما نالها من القبة الزرقاء قليلة الحُوَّة(١) كثيرة الاصفرار . وذوى البستان على برد الريح ، وذهبت رعشة الحمى التى انتابته بماله من رونق . ودليل ما يعانيه من سقم دوامة أوراقه على عصف الريح . وكأن كل غصن ، من الأغصان العارية من الورق والثمار ، ثعبان الضحاك(٢) فوق كتف الأشجار ؛ وبدا الرمان ضاحكا على ما تجرع من دم الأسى ، تتراءى أسنانه

---

(١) الحوة : بالضم سواد إلى الخضرة ، والأحوى : الأسود ، والنبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته . وهذا هو المراد من كلمة سيهى أو سياهى فى النص الفارسى

(٢) الضحاك من ملوك الدولة البيشدادية فى تاريخ إيران الأسطورى . زقد حكم إيران ألف سنة ، ويصورة مؤرخو العرب وكذلك الفردوس فى شكل إنسان قد بيت على كل كتف من كتفيه ثعبان ، وهذان الثعبانان لا يتغذيان إلا بأمخاخ الناس . انظر مثلا : تاريخ الطبرى الجزء الأول ص ٢٢٦ من طبعة de Goje ، وانظر :
Christensen : Liran Souslos Sassanides pp. 502–503

مضرجة بما يشبه الدم ، وظهر كالعاشقين ذا خدود صفر عليها الغبار من الألم ، وتبدى النارنج أمام الرائى كأنه كرات ذهب صوبلجانها من البلور الأخضر . والعناب مطل من بين الأوراق الصفر كالدموع على وجه العاشقين .

وصارت غصون الكرم ذهبية اللون تبدو حيناً منها العناقيد دراً خالصاً على سواعد حور ، وأحياناً تتدلى تلك العناقيد من عرائش الكرم زنجية نقية اللون . وقد تدنو قطافها للتقبيل كأنها أصابع العروس أول عهدها بالعرس . وجلست الكمثرى على غصنها ، منتحية جانباً بين الأعواد . والفستق مستو على سوقه ينظر فى كل صوب نظرة الغيران . وخلت الحديقة من الورد والزهر ، وتبدلت بغدادها إلى كوفة(١) ، فاتسمت بسيمى الكوفة من رضاها بالنسور واليوم . فهى فى زاوية الزوال الغانية التى يغار منها ورديات الخدود

(١) يتلاعب الشاعر هنا بالألفاظ على حسب اشتقاق معانيها ، فبغداد فى الأصل مكونة من كلمتين باغ=حديقة ، داد=العدل ويلازمه السلام ، ولذا تسمى بالعربية : مدينة السلام ؛ فى حين أن الكوفة كلمة عربية مرادفة لكوفان ، وكلا هما اسم للمدينة المعروفة . ومن معانيهما : الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تخالطها حصباء ، أو الدغل من القصب والعشب ، أو سميت المدينة كذلك باسم جبل لأنهم سهلوه وبنو عليه ، فهى فى أصل اشتقاقها تدل على أرض تصلح لسكنى البوم ، هـذا والكوف بالفارسية : البوم (راجع القاموس المحيط مادة الكوفة ، والقاموس الفارسى تأليف Desmaison ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ثم معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٢٣٠ — ٢٣١) .

من غانيات بغداد ، كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان .
وكانت ليلى — تلك الوردة ربيبة المروج — طريحة على الأشواك ، أشواك الموت ؛ متهيئة لتسلم الروح . وأخذت تبكى وتقول لأمها : أيتها الأم الحميدة ، الطاهرة الفراش العفة النقاب ! يامرهم المهد ، وصافية الحب ، وشبيهة بلقيس فى صباحة الوجه ! اعطفى علىّ لحظة بحبك ، وطوقى جيدى بفضلك ، وضعى على وجهى وجهك الشفوق ، وانظرى إلىّ بعين كرمك . فقد كنت من قبل — لقيل الناس وقالهم — غير عطوف علىّ . ولم تسعى فى عقد آصرتى بالحبيب حتى رمتنى فرقته بالموت . لقد قضى هو من غم العراق . وهأنذى على الأثر أسلم الروح والبدن لداعى الأجل . فيومى بدونه مشرف على أيل العدم ، والروح متهيئة للخروج من الشفاه . وحين تشد الروح رحلها ستمدين من أجلى بساط المأتم . فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموعى . ولفى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل أنى شهيدة الحب . واتخذى من نار صدرى مجمراً ، وخذى عطر طيبى من دخان كبدى المحترقة . ولست بحاجة إلى عصابة على الرأس ، فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق ؛ وامحى عن وجهى كل أمارة لحرقة الفراق ، لتسطرى لى بذلك منال السعادة ، وتذكرى ما أستقبل من حبيب ، فجملى موكبى ، وتوجهى بى فى سفرى شطر قبره ،

وأنزليني جانباً من ضريحه الطاهر . وليكن مكاني في حفرة دون قدميه في ثرى لحده البهيج . واجعلي رأسي تحت كف قدمه لتكون لرأسي تاجا ، وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر . ويومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه .

وحين سمعت الأم رغبتها ، وضعت من الأسى وجهها على وجه ابنتها ، وبكت قائلة : أي بنيتي المباركة الشمائل ، القاطعة عني حبل ودادها . إذا كنت لم أنزل على وفق مرادك فيما مضى ، فلا يكن في قلبك موجدة علي ، ففي ذلك العهد لم يكن لي في أمرك اختيار ، أما اليوم — ولي الخيار — فسأقوم بما فيه ترغبين .

ورأت ليلى أنها أجيبت إلى طلبتها ، فطابت بذلك نفساً ، وضحكت كالوردة الغضة ، وتوجهت بوجهها إلى ديار حبيبها القديم ، وأسلمت في بسمتها روحها الغالية . ورأت أمها تفيض ، فاحترقت حسرة على شبابها . وأخذت تقتلع بيديها من رأسها شعورها ، وتلطم بكفيها على خدها ، وكانت تخدش وجهها بأظافرها ، وتقلم أظفارها واحداً بعد الآخر ، وتمزق بآهاتها صدرها ، وتقرع باب الهلاك لنفسها ، وكانت تضع يدها على قلبها ، ثم تضرب بقبضتها على فؤادها الكليم . وإنما كانت تضع راحتها على قلبها بغية تسكين جراحه ؛ وحين كان يضيق قلبها بضربها عليه ، كانت تدق بالحجر على صدرها ، وتعلوها حمى الجهد من الضرب بالحجر ، فيذوب الحجر ليناً في يديها . وفرغت

مظاهر حرقتها وبكائها فى يوم لا رأى إنسان مثله ! ، فاشتغلت بتشييع ابنتها ، وشرعت فى الاستعداد لتجهيزها ، وزينت نعشها على وفق ما أبدت من رغبة . وربطوا على النعش من سعف النخيل ، بعد أن نزعوا عنه أوراق الخريف ، يرمزون بذلك إلى أن تلك الوردة اللطيفة أصيبت بآفة الخريف . فلم تتجاوز — بعد — ربيع حياتها ، حتى نفذت إلى روحها سهام الخريف . وكانت فى نعشها كالعروس فى هودجها ، وعلى أثرها أمها تقبل الثرى . وهى سائرة على أكتاف المحبين ، والأم تتبعهم تنثر الدمع ؛ وركبها فى طريقه لوصال الحبيب ، فى حين أمها مثقلة القلب بحجر الفراق . وخرجوا بها من قبيلتها ، غير معرجين ، حتى انتهوا إلى حظيرة المجنون ، وفحروا لقبرها بجوار الحبيب ، وغيبوها فى الثرى جوهرة . ونامت هاتان الجوهرتان النقيتان جنباً لجنب فوق سرير الثرى . وصارت روضة هذين القتيلين من الأشجان مزاراً للعاشقين من كل أنحاء العالم ، ألا فلتغدق عليهما الرحمة ! وليكن مزارهما موئل السعادة ! فقد شدا الرحال من عالم الأحياء ، ونحن كذلك على الأثر . فلا يليق بامرىء فى هذه الدنيا حرص الطمع ، ولن يخلد فى هذه الدار إنسان . والدهر مسدد قوسه ، مصوِّب نحونا سهامه ، يقبض الأرواح خبط عشواء . فخير لنا — قبل أن نعانى سهم هذا القوس النافذ إلى القلب — أن نعتزل جانباً ، لنجنى السنابل من مزرعة هذه الحياة ، ونصنع منها

زاداً لنا فيما سنسلك من طريق النجاة ، لنظفر بحياة الأبد بعد أن نفقد هذا الوجود . والعمر — فى هذا العيش الفانى — برق فى سحاب الحياة . ولا يستطاع نشر الصحف على لمح البرق ، ولا يمكن الاعتماد على ضوئه . فانشد نور الأزل والأبد،وقرّ عيناً إذا ظفرت به . وهذا النور خبيء فى طينتك ، متألق فى مشرق قلبك . فلا ترنق صفو القلب بخيال المادة ، ولا تسدّ ذلك المنفذ بأدران طينتك . فإنك إن سددته ظللت فى ظلمة مادة جسمك من ماء وطين ، فيحال بينك وبين نورك بهذا الحجاب ؛ فخبرنى أنت عما تفيد من النور ؟ يامن تتطلع إلى النور الأزلى ! أشح بوجهك عن الظالمات ؛ وخير لك أن تبقّى الظلمة بعيدة عن ناظريك ، لأنها حجاب دون النور . وما أطيب أن تكون من رأسك حتى القدم كالذرة غارقاً فى الأضواء من شمس نفسك ، ومهما بحثْتَ عن علامة على ذاتك ، فقلما تعثّر على تلك العلامة ولو بالغت فى البحث . فإن غسلت قلبك أيقظ بضوء الشمس ، وجدت نفسك كلها شمساً ، وصار عودك مورقاً كل الإيراق بعد أن كان عارياً من الورق . وأصبحت فى مأمن من آفة الموت . وسيبلغ قلبك مقاماً لا يموت فيه أحد سوى الموت . وتلك حياة الخلود ؛ وقد دللتك على رمز لها ، لو تعلم .

(٥٢)

هوان شأن هذا العـالم

راحة القلب من المحال ، فى عالم هو مقام الزوال ، وموطن الحداد ، مظلم ضيق الجوانب ، وزهرة زوفاه(١) لا لون لها ولا رائحة . ويتمزق قلب كل وردة نمت فى طينته من أشواك الأسى . وكل شقيقة من شقائق النعمان فى بستانه تحمل فى صدرها منه حرقة الفناء . وشجر سَرْوه الذى يناطح برأسه قبة الفلك يهوى صريعاً من قدميه على ريح الأجل .

والفلك مدار السنين مرتد حداداً على نفسه ثوبَهُ الأزرق . وبالشمس المعتصمة بحصن الفلك رعشة الخوف من الزوال . والنجوم فى تلك القبة العالية فى يأس وحيرة بحرقة الاحتراق .

وقد صدَّع الأركانَ المعقودة البناء فى هذا العالم كرُّ الليل والنهار . وحيناً يخمد الريح نار المصباح ، وحيناً يهب بسموم لا تطيب . وآناً ينتصر التراب على الماء فيرد جوهره مظلماً مثله . وآناً يصير الماء سيولا عاتيه فيمزق صدر الأرض مزقاً كثيرة . فإذا سالمتك الأيام برهة — دون أن تنال منك غرضاً — فسالمتها تلك غير خالدة ، فهى شبكة تتعقب طائر الحياة ، ثم تمزق فى

---

(١) الزوفى : زهرة زرقاء ذات رائحة .

لحظة الشبكة ، فينفصل عنها الطائر ويهرب من محبسه . فالطائر الحكيم لا يستسلم بجناحيه للشبكة ، بل يظل مشتعلا فى حلقاتها بأمر نفسه . فيفتح لنفسه طريقاً مستسراً يصل به إلى متنزه الخلود . فإذا انتزعت عليه الشبكة من مدخلها ، وأخذت عليه أركان طرقها ، ذهب هو كذلك من مكانه الخاص به ، وخلص من ضيق القفص إلى المروج ، وغرد بألحان العيش الخالد فى منأى من مضيق الأمل والخوف (١) . أما الطائر الأحمق الذى لم يدر ما الشبكة ، فإنه لا يلقى بنظره إلى رياض الروح ، فيسد الطريق دون ما له من خلاق ، ويعشق محبسه من الشراك ، ويجعل من حبة خال الحبيبة وشراك ذوائبها قيداً يرتبط منه برباط عشق خالد ، فإذا حجبت المعشوقة وجهها دونه ، جهد فى قطع طريق الفراق وحُرم وصالها ، فتجاوزت صيحات آلامه العيّوق(٢) . ولكن ما جدوى الصيحات والأنات حين يحم الفراق ؟ فلا هو ظفر بالعشيقة فى أحضانه ، ولا كان له منها غير الحسرات والآلام . وحين يصل من حظه إلى ذلك الوبال ، فالطمأنينة عليه محال .

أى جامى ! لا تعقد صلة بإنسان ، إذ فى عاقبة الأمر لا محيد من أن تنتزع منه قلبك . وكن جليس نفسك دون الخلق ، وأنيس

---

(١) كناية عن هذا العالم .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها (القاموس المحيط) ، وهى نفس الكلمة فى الأصل الفارسى .

نفسك فى حالات الوحدة ، وعش غريباً عن هذا العالم ، وتعرّف فيه جوهر نفسك . ضارباً صفحاً عن الأغيار ، معانقاً لجوهر نفسك . ومن جوهر ذاتك انشد مرآة معشوق الأزل فى قلبك . وكل ما تشن من حرب على غير نفسك يتحول على مرآتك صدأ . وكلما ران الصدأ على مرآتك ضاق بك الطريق لمتعة الوصال . فاجلُ الصدأ عن مرآة نفسك يتفتح لك الطريق لحرم الوصال ؛ ولا ينفسح لك ذلك الطريق إلا حين تصير مرآتك مجلوة . وكلما نأيت بمرآتك عن الأغيار أشرقت فى قلبك لوامع النور ، فيتحرر بذلك لبابك من غلاف الجسد ، وتتجرد من غشاء مادتك لتبقى والحبيب. كلا ؛ بل لن تظل أنت كذلك على حالة البقاء ، لأنك ستكون مع الحبيب محجوباً عن نفسك .

(٥٣)

نصيحة إلى الابن العزيز (١)

أى حديث العهد بالنظر فى لوح الكونين ، ومن أنت قرة العين وإنسانهما ؛ على الرغم من أن عمرك سبعة أعوام أو ثمانية ، فقلبك عزوف عن الهوى . وهذا اللطف الذى جبلت عليه يجعلنى أرجو من الله أن يتيح لك عهداً تصير فيه مرفوع الرأس بحكمتك وذكاء فؤادك ، وأن يهبك من الفضل والأدب القبول ، ويجنبك طريق الفضول ، فأنا بجوهرك الطاهر عن كل ما لا يحمد وما يليق . وابذل فى كسب الكمال الجهد ، واقض عمرك فى طلب الأفضل ، ودائرة دوامة الطلب وسيعة ، وبحر العلوم بعيد الأغوار ؛ فلا تقنع بكل ما تجد ، وأسرع من الحسن إلى الأحسن . ولا تمح بتبحرك فى الدرس صفحات التقوى من الله ، ولا تدخل الفلسفة فى أمر الدين ، فتكون مثل الفلاسفة نابذى الدين . أمامك الرموز السماوية(٢) ، فلماذا تقرأ أكاذيب أهل الأرض ؟ ودونك يثرب فلاتكن مثل السفلة تطلب الإكسير من قبور اليونان .

---

(١) فى هذا الفصل ينصح الشاعر ابناً له ، ومن الطريف أن يكون من بين نصائح الجامى لابنه ألا يقرأ الفلسفة ، وأن يكتفى بالدين وكتبه ، والجامى نفسه خير مثل لمن قرأ الفلسفة ومزجها بالدين فى كثير من آرائه ، كما أتيح لنا أن نشير إلى ذلك فى تعليقاتنا على هذا الكتاب ، وقد شرحنا ذلك فى الباب الثانى من كتاب : الحياة العاطفية.

(٢) لعله يقصد القرآن .

وإذا كان العالم بالدين غير أحمق فلن يتجاوز سور مدينة الدين ، فكما أن نافجة المسك فى سرة الظبية ، فكذلك فى قلب المدينة مسكُ الدين ، حيث شجت تلك النافجة ، فتضوع أريجها وزعم الشرق والغرب ؛ ولكن أرباب الهوى منه فى زكام مستحكم ، فمشامهم من نكتة خالية . فاتخذ لك من ساكن هذا الحرم قدوة ، واجعل رأسك فى طريق الاقتداء به قدماً . واتجه بأنظارك إلى راحلة الشرع ، فأينما تضع هى القدم فضع أنت الرأس . وإذا سلكت هذا المنحى فى الاقتداء ، فستصل بك تلك الراحلة فى النهاية إلى الغاية .

وكن يقظاً ! إذ سيصادفك فى الطريق آلاف الحفر من الحشمة والجاه ؛ فلا تضل الطريق عن عمى قلب ، فتقع فى بئر من تلك الآبار كعمى القلب . وكن يقظاً ! إذ سيعرض لك قطاع طريق الخير ليجعلوا من الذهب والفضة لك قيوداً ؛ فلاتتقيد بقيود الذهب والفضة ، ولا تفتّر عن السير فى الطريق . وكن يقظاً ! فكل من وقف عن السير اعترضه غول وسط الطريق . ولا تستسلم بفكرك إلى خيال الباطل ، فتُقصى عن الطريق . ولا طريق سوى ما سلكه الرسول بقدم الحق حتى مقعد الصدق ؛ فتفقد طريقه

واسلكه ، وانظر إلى آثار أقدامه فى الطريق وسر على أثره . ومل بنفسك عن كل طريق ليست به آثاره ، إذ ليس بها غير هلاك النفس . وإذا كان من طبعك قبول النصح ، وقع ما سقته لك من نصح موقع القبول . وقد قلتُ ما كان ينبغى أن يقال ، ونظمتُ فى سلك الشعر ما كان على أن أنظمه من جوهر القول . وقد فرغ من الأمر لسانى ويدى ، فصمتّ وحطمتُ القلم .

(٥٤)
ختم الكتاب وخاتمة الخطاب

أى جامى ! مهما عانيت من مرارة الجهد فى اجتياز محيط الأمانى ، فحسبك هذا منالا ، إذ وصلتْ إلى الساحل السفينة ، بعد أن اجتازت أمواج المعانى التى جاش بها صدرك . وهذه السفينة أكثر يمناً من سفينة نوح ، راحة للقلب وسكينة للروح . من كرم طبع كل جواد أن يقف على جودىّ جودها . كلا ، فمن وقف دون بحر الجود فهو كمن قاد سفينته على اليابسة ، تظل شفاهه جَدْبة لا تروى ، ولو جاب — كالفلك — البحار السبعة .

وهذه القصة شمس مشرقة من مطلع الهمة ، ومنتقاة من كتاب الدهر ، باكورة الثمار من حديقة الأمانى ، ورأس مال العيش الخالد ؛ وهى السحر لسحرة الكون بياناً . وهى قصة العاشقين الوالهين ، وحكاية عذبة عن حال البائسين ، وحديث طريف لمن عىّ لسانهم عن البيان ، ومرهم شاف لحرقة مفطورى القلوب ، وتسكين لآلام من حرموا القرار . وهى ماشطة الجمال للغيد الحسان ، ودالة طبائع المحبين. وهى طائر فضاء حديقة الأسرار ، يترنم بلحن حديقة الشوق ، والنفوس مصغية إلى ألحانه ، والأرواح منها فى أريحية ونشوة . وسوق الغيد الملائكية الخدود بها رائجة ؛ وهى مثار آهات القلوب من العاشقين القائمين بالأسحار . فأنت

تشم من لطائف أمرها خاصةالربيع ، إذ تُصيِّر الورد ضاحكا طرباً ، وتستمطر الدموع من عيون السحاب ، وهى السحر وليد القيام بالأسحار ، وهى البحر مستودع الدرر ؛ وهى سكَّر عذب المذاق طازج من عصير قصبة القلم ؛ ونصف قطرة من هذا العصير المقطر من القلم بمائة قطرة من السكر الخالص .

فأين من نظامى(١) طائر فصاحته حلو الحديث ، الذى آخذ عنه عذب القول وثمينه ، ليشرب من رشح هذه الكأس ماء الورد ، وليصير ريقه حلواً على مذاق هذا التشهد ؟ ! فعلى ماله من مئات البحار ذخيرة ، فالماء يعاف متى كان فى حوزة صاحبه . وقد يعاف الظامىء الكوز القديم ولو كان من ذهب خالص ، ويشرب من الجرة لأنها جديدة .

وأين خسرو(١) فى دار الملك الدهلوى ، وفى لطف خلقه الجبلى ، ليحمل إلىّ تحفة تاجه وعرشه ، ويأتى بالخراج من إقليمه ، وينثر على مقالى جواهر من كنز خاطره الفياض بالطرف ؟

سبحان الله ! وما جدوى هذا القول ؟ ومن ذا يتكلم بمثل هذا الكلام ؟ وعادة الخلق أن يرتفعوا بمتاعهم إلى أعلى من درجته ، فيصيح بائع الخرز منادياً : مائتا فيروزة(٢) بدانق ! فيسمى الخرز

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) الفيروز حجر ثمين أزرق .

فيروزاً ليستميل إليه طبع العوام . وهكذا جمعت عدداً من صغار الخرز ، وافتننتَ فى نظمها بعضها ببعض ، ثم صرت بائعاً لخرزى ، سالكاً مسلك باعة الجواهر . وكل من يشتريها بكلمة استحسان فله جزاء الخير . ومهما يكن كلامى غير سامى القدر ، فإن اختيارى يتجه إليه دون كل كلام . وميل الغربان إلى صغارها أكثر من ميلها إلى صغار الببغاوات . والشعر الذى يتولد من خاطر العاقل مثل الإبن . ومهما يكن الإبن قبيح الصورة فهو فى عين والده جميل الخلقة !

وهذه القصة صنع شباة القلم الماضية ، وقد قامت بما يقوم به المغزل لعروس الطبع . فاكتب بالشباة خطاً جميلا ، وانسج بذلك المغزل خطوط المسك ، وسطر الحروف على لوح من الانصاف ، وانسج دراعة المتستر على العيب . وإذا كان الشعر جميلا وكتب بخط حسن فإنه يكتسب جمالا على جمال ؛ ولكنه إن اكتسى من الخط بلباس غير جميل ، صار معيباً فى نظر متتبع العيوب . فإذا لم تكن بحيث تزيد فى جماله ، فاقتصد فى جعله غرضاً لعيب من ضل رأيهم ، فلا تفسد القلم الجميل عبثاً ، ولا تلطخ به الصحائف الجميلة . وما تخطه من حرف ردىء فإنما تدوّن به كل عيوبك . فإذا كنت تعد عيوبى فتستر على عيوب نفسك . وإذا لم تبذل الجهد فى جودة الخط ، فبالله إلا أعملتَ حادّ ذكائك فى وضع ما تكتب من حرف فى مكانه الصواب ، فالصواب

خير الفضائل ، وحين تمّ الكتابة قابل ما كتبت على نسخة صحيحة ، وإذا كنت قد فعلت فى البدء خطأ فلا تكل أمر إصلاحه إلى الآخرين . وكانت نهاية هذا البناء الأشم عام تسع وثمانين وثمانمائة . وإذا وقفتَ فى عد هذه الأبيات كانت ستين وثمانمائة وثلاثة آلاف . وقد استغرق عرضها من طبع خصب بأفكاره طوال أربعة أشهر تنقص قليلا أوتزيد ، وفى بضع ساعات فى كل يوم منها كان طبعى عظيم الجد سعيد الطالع . فإذا جمعت هذه الساعات لبعضها فلن تزيد عن أسبوعين أو ثلاثة . ومهما ضؤُل قدر هذا الضعيف ، فقد انتهى من هذا النظم بجيده ورديئه . ألا فلتكن علية الفلك درجاً لجوهره ، وليبق صيته ملء الزمن ، وليطلب الصالحون لى من الله العفو فى صلاة الفجر .

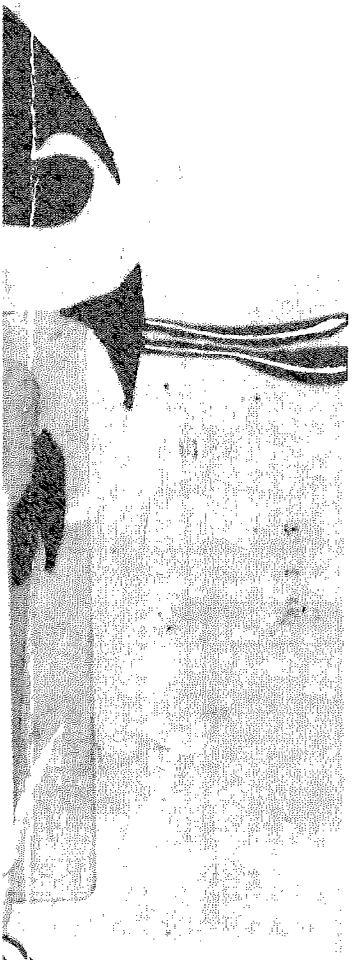
الفهـــرس

الموضــــوع | الصفحة

رقم الإيداع ٥٢٤٧ — ٧٩

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ – ٢٨٦ – ١٩٦ – ٨

مطبعة نهضة مصر



مطبعة نهضة مصر

الثمن ١٢٥